التعريب

المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر
بدمشق

مجلة نصف سنوية محكمة تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق

اللغة العربية هويتنا القومية

المنظمة العربيّة للتربيَة والثقافة والعلوم

59

السنة الثلاثون
العدد التاسع والخمسون

جمادى الأولى 1442هـ – (كانون الأول) ديسمبر 2020م

التعريب

التعريب

مجلة نصف سنوية

العدد التاسع والخمسون

كانون الأول (ديسمبر) 2020

المدير المسؤول:

الأستاذ الدكتور زيد إبراهيم العساف

مدير المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق

رئيس التحرير:

الأستاذ الدكتور محمود السيد

هيئة التحرير:

الأستاذ الدكتور دفع الله عبد الله الترابي

الأستاذ الدكتور قاسم طه السارة

الأستاذة الدكتورة زهيدة درويش جبور

الأستاذ الدكتور محمد حلمي هليّل

الأستاذ الدكتور صالح بلعيد

الأستاذ الدكتور محمد مكي الحسني

الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبيد

الأستاذ الدكتور ميلود حبيبي

مجالات اهتمام المجلة

إن اهتمامات المجلة مركَّزة في الإسهام في تحقيق أهداف المركز في مجال تعريب التعليم العالي في الوطن العربي وتطويره، ومتابعة الجديد مما ينشر في ميادين المعرفة في العالم، للتعريف به وترجمة الجيد الملائم منه، وكذلك ترجمة روائع الفكر العربي في العلوم والآداب والفنون إلى اللغات الأجنبية العالمية.

وفي هذه الأطر تفتح المجلة صفحاتها للدراسات والبحوث الجادة والأصيلة فكراً وموضوعاً في أحد المجالات التالية:

* تعريب التعليم العالي في الوطن العربي.
* بحوث مترجمة ودراسات في التعريب.
* التعليم العالي في الوطن العربي وتطويره.
* من أعلام الحضارة العربية والإسلامية.
* عروض للجديد من الكتب والرسائل الجامعية.
* الإعلام بالأنشطة العربية والدولية في مجال أهداف المركز.

إن مضامين المواد المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها

ولا تمثل بالضرورة رأي المنظمة أو المركز

يسمح باستعمال ما ورد في هذه المجلة من مواد بشرط الإشارة إلى مصدرها

التعريب: مجلة **نصف سنوية** مُحَكَّمَة تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

دمشق – ص.ب: 3752 – هاتف 3334876 / E-mail: acatap2@gmail.com - www.acatap.org

السنة الأولى: 1991 – دمشق ع **2020/6/15**

الاشتراك: قيمة الاشتراك السنوي: داخل الوطن العربي: 25 دولاراً أمريكياً

خارج الوطن العربي: 35 دولاراً أمريكياً

قيمة النسخة الواحدة بدون أجور البريد 5 دولارات أمريكية أو ما يعادلها

في هذا العدد

* **افتتاحية العدد** IX

* **قواعد النشر في المجلة** XI

* **بحوث لغوية مصطلحية**

- **مفهوم التماسك النصي وأدواته** 3
  د. جلال مصطفاوي

* **بحوث في التعليم العالي**

- **مستوى الأداء اللغوي في التعليمين العام والجامعي لدى الطلاب والمدرسين** 31
  د. محمود أحمد السيد

* **بحوث في الترجمة**

- **من طرائق الترجمة** 57
  د. سام عمار
- **الترجمة القانونية مفهومها، وأنواعها، وأساليبها** 79
  د. ورد جبر حسن

* مقالات مترجمة

- **الفلسفة والترجمة** 103
  أ. د. حميد العواضي
- **مفهوم التكافؤ في الترجمة** 143
  د. شريفة بلحوتس
- **برنار سابلونيير: الدماغ، واللغة والذكاء والإيثار** 155
  د. محمد أحمد طجو

* من أمجاد الحضارة العربية والإسلامية

- **المسار الفلسفي للفكر العلمي العربي** 169
  د. مروان المحاسني

الافتتاحيـة

بقلم الأستاذ الدكتور محمد ولد أعمر
المدير العام للمنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم

إن التطور الذي تشهده الثقافة العالمية طرداً مع التطور التقني والمعلوماتي يفرض علينا نحن العربَ أن نساير هذا التطور في كل مفاصله، بل صار واجباً علينا هذا، لأن ما مررنا به من تجارب كثيره أصاب الفشل معظمها، إذ إننا لم نستطع اللحاق بركب الحضارة كما يجب أن نكون، وكانت الشكوى الكسل، مقابل التطور الغربي، ولكن لا يجوز لنا اليوم الشكوى أننا بعيدون عن التقانة، فما في العالم صار بين أيدينا، وكل ما نريده نستطيع الحصول عليه بلحظات قليلة.

لا يجوز أن نبتعد عن هذا الأمر في كل ما يتصل بالثقافة العربية، ولا سيما اللغة التي ما زلنا ننعتها بأنها لا تستطيع مسايرة التطور والتقدم، ونحن لم نعرف كيف نستعملها، ولو عرفنا لَما قصَّرنا، وعرفنا أننا نحن الذين قصرنا.

إن من أبرز الخصائص التي تتميز بها اللغة العربية ظاهرةُ "التوليد"، وهي ليست بجديدة، بل هي مكملة للتعريب عن الأعجمي وتتصل بالدخيل، وقبول العربية بما فيها ويناسبها زاد من مفردات اللغة لأننا بحاجة إليها، وهذا كان بداية مسايرة العلوم الأخرى، فللتوليد أصل يمكن الاشتقاق منه، والاشتقاق في الأصل توليد. وهذا ما سنجده في هذا العدد من مجلة التعريب، وما نعانيه من إشكاليات في لغتنا، ولا سيما في العلوم المعاصرة التي يجب أن تكون معها في كل خطواتها.

إن من كان قادراً على التوليد كان قادراً على الصياغة الصحيحة، ومن ثَمة هو يمتلك القدرة على تقديم نص متماسك له أدواته ومفرداته وجُمَلُه وتراكيبه..

ولا يبتعد هذا الأمر عن الأبحاث التي تعتمد الترجمة، فنحن بتنا بأمس الحاجة للمرادف العربي الذي يُغني العربية والترجمة لا الاعتماد على اللفظ الأجنبي دون عناء البحث.. والترجمة لم تعد حكراً على الأدب بل تجاوزته إلى كل العلوم والمعارف وصار لها أحكام وشروط ومصطلحات أي أنها صارت علماً قائماً بذاته لا لاحقاً غيره، وكل هذا إن لم يمتلكه المترجم فإن نصه سيكون قاصراً أو ضعيفاً، لذلك كان للترجمة في كل عدد من أعداد المجلة حصة، وحصة هذا العدد كبيرة وغنية؛ لأنها تضمنت أبحاثاً ونصوصاً مترجمة..

ولو استطعنا أن نمتلك اللغة والترجمة إليها لَكنَّا قادرين على تقديم أفضل المستويات اللغوية في التعليم العام أو الجامعي سواء المدرس أو الطالب، وكلنا يبحث عن مستوى متقدم للعلم في كل مراحله.

لقد كان هذا العدد متميزاً كما كل الأعداد السابقة في كل مواده، لكن الربط بين أنواع المعرفة التي يتصل بعضها ببعض جعله يُقدم مادة علمية بحثية عالية المستوى من حيث القيمة والمضمون ومن حيث العمق الذي ما زلنا نهدف إلى أن يكون في مقدمة أولوياتنا نحن الذين نعمل في هذا المركز في إطار رسالة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والذين يشتغلون في هذه المجلة التي لاتزال في أوج عطائها في زمن انكفأ الكثيرون عن العمل على الرغم من كل العقبات التي تعترضنا هدفنا اللغة والعلم والثقافة لكل من أرادها.

والله وليّ التوفيق.

قـواعـد الـنـشر فـي المـجلـة

تنشر المجلة المواد المتعلقة بأحد مجالات اهتمامها من دراسات وبحوث وترجمات وفق القواعد التالية:

1. ألاّ يكون البحث أو المادة المقدمة للنشر في مجلة التعريب قد سبق لهما أن نشرا أو قدّما للنشر في أيٍّ من أوعية النشر، وعلى الباحث أن يرفق ببحثه **تصريحاً خطياً** يفيد بأنه **لم يسبق له أن نشر أو أرسل بحثه للنشر لدى أي جهة أخرى.**
2. أن تتسم المادة المقدمة للنشر بالمنهجية العلمية في العرض والمعالجة والاستنباط، وأن تتميز بالمتانة في الأسلوب والدقة في الإسناد والتوثيق.
3. ترسل المادة المراد نشرها مرقونة بالحاسوب باستعمال برنامج مايكروسوفت word، ترسل نسخة إلكترونية على بريد المجلة الإلكتروني إلى عنوان المركز التالي:

acatap2@gmail.com

مع مراعاة مايلي:

أ. **ألاّ يتجاوز عدد صفحاتها /20 صفحة/** من الحجم العادي (6000 كلمة) ولا يقل عن **/7 صفحات/.**

ب. أن تكون المادة خالية من الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية.

ج. ضرورة استعمال علامات الترقيم أصولاً.

د. أن تكون الجمل مترابطة ومتماسكة.

4. تتلقى المجلة المواد المقدمة للنشر من الرعايا العرب من داخل الوطن العربي ومن خارجه، مكتوبة باللغة العربية، على أن ترفق المادة **بملخص واف ودقيق لها بحدود 20/1 من عدد صفحاتها.**

5. ترفق المادة المقدمة للنشر متضمنة:

أ. اسم المؤلِّف الثلاثي بالعربية وبالحروف اللاتينية.

ب. نبذة مختصرة من سيرته.

ج. الصفة أو المرتبة العلمية، مثال (دكتور، أستاذ دكتور، باحث أكاديمي... الخ)

د. عنوانه البريدي الكامل.

هـ. عنوان بريده الإلكتروني.

و. رقم هاتفه.

6. تُستهل المادة بمقدمة في سطور تبين أهميتها والنتائج والاستنتاجات المستفادة منها، كما تُذيل بثَبَتٍ للمصادر والمراجع المستعملة بحيث يكتب اسم المؤلف أولاً، فاسم المصدر أو المرجع، يليه مكان النشر، فاسم الناشر (دار النشر)، وأخيراً تاريخ الصدور فرقم الصفحة.

7. تقدم الرسوم والأشكال، في حال وجودها في مكانها في النص، وترسل أيضاً بملف أو ملفات منفصلة بحيث تكون واضحة و**بدقة صالحة للطباعة أعلى من 200 dpi** بحيث تتضمن جميع الشروح والإيضاحات اللازمة والحجم المناسب، على أن يشار إشارة واضحة إلى أمكنتها في متن النص، مع ضرورة مراعاة حقوق الملكية الفكرية للشكل.

8. تُعَرَّب المقالات والبحوث الصادرة بلغات أجنبية وفقاً لـ "تعليمات تعريب البحوث والمقالات" المعمول بها في المركز، والتي تقوم رئاسة التحرير بتزويد المعرِّب بها **في حال الموافقة المبدئية على تعريب البحث** أو المقالة المقترحة من قبله، وعلى المعربين الالتزام التام بهذه التعليمات.

9. تنشر المجلة عروضاً للكتب والبحوث والرسائل الجامعية الحديثة، التي لايتعدى الفاصل الزمني بين ظهور المادة المعروضة ووصول العرض إلى المجلة أكثر من عام، هذا ومن الضروري عند تقديم العروض مراعاة التعليمات التالية:

– أن يتضمن العرض ملخصاً يتسم بالإيجاز المحكم للمادة المعروضة.

– أن يكون تركيز العارض على رأيه في المادة المعروضة وتقويمه لها.
– ألاّ يتجاوز عدد صفحات العرض 7 صفحات /2000 كلمة/.
– أن يَصْحَبَ العرضَ معلوماتٌ ببليوغرافية دقيقة عن المادة المعروضة.

10. يبلَّغ أصحاب المواد المقدمة للنشر بتَسَلُّم موادهم وبالموافقة المبدئية أو عدمها على النشر، وذلك قبل صدور العدد الجديد بثلاثين يوماً.

11. تعرض المواد المقدمة للنشر في حال قبولها مبدئياً على محكَّم أو أكثر من ذوي الاختصاص، وذلك على نحو سِرِّي، لبيان مدى أصالتها وقيمتها العلمية وسلامة منهجيتها، ومن ثَم صَلاحها للنشر، وللمجلة أن تأخذ بتقرير المحكَّمين أو أن تعرض المادة مرة أخرى على محكم آخر، ولها أيضاً أن تتخذ قراراً بالنشر أو عدمه إذا رأت خلاف ما يراه المحكم.

12. يحق للمجلة – إذا رأت ضرورة لذلك – إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر دون المساس بمضمونها، أما إذا رأت المجلة أو المحكَّم وجوب إجراء تعديلات جوهرية عليها حتى تصبح صالحة للنشر، فإنها تعيدها إلى صاحبها للقيام بهذه التعديلات اللازمة.

13. يبلَّغ أصحاب المواد المقدمة للنشر بالقرار النهائي بالموافقة على النشر أو عدمها وذلك خلال ستة أشهر من تاريخ تسلمها، علماً بأن المجلة ليست ملزمة بإبداء أسباب عدم النشر، كما أنها ليست ملزمة برد المواد التي لا تنشر لأصحابها.

14. تراعي المجلة في أولوية النشر عدة اعتبارات أهمها: تاريخ التسلم والأهمية العلمية للمادة المقدمة، ومدى صَلاحها وجاهزيتها للنشر، وكذلك تنوع مادة العدد والتوزع الجغرافي لمصدرها من مختلف الدول العربية.

15. لا يحق لصاحب المادة المنشورة في مجلة التعريب، ولا لأي جهة أخرى، إعادة نشرها في أي وعاء آخر للنشر **إلا بعد مرور ستة أشهر على تاريخ نشرها في المجلة، وبموافقة خطية من رئيس التحرير**، مع ضرورة الإشارة إلى هذه الموافقة، وإلى رقم العدد وتاريخه الذي نشرت فيه المادة.

16. إن مضامين المواد المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها، ولا تمثل بالضرورة رأي المركز أو المجلة.

17. تقدم المجلة مكافأة مالية رمزية **(فقط في حال كلّف المركز أو رئاسة تحرير المجلة، أحد الباحثين بكتابة مقال بموضوع تحتاجه المجلة)**، بقيمة **5 دولارات أمريكية عن (الصفحة الواحدة والتي تعادل 300 كلمة)**. وبحيث لاتتجاوز عدد صفحات المقال 20 صفحة حسب الفقرة (3– أ). وبذلك **تصل المكافأة إلى /100/ دولار أمريكي كحد أقصى (في حال تجاوزت عدد الصفحات 20 صفحة، للضرورة القصوى و كان المقال يتطلب الاستفاضة قليلاً)**.

18. **تعتذر هيئة التحرير عن عدم نشر أية مقالة لا تلتزم بالشروط الواردة آنفاً.**

19. ترسل المواد وتوجه المراسلات **باسم الأستاذ الدكتور زيد إبراهيم العساف مدير المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر** إلى العنوان:

المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر
دمشق – ص.ب: 3752
هاتف: 3334876 – 11 – 963+
فاكس: 3330998 – 11 – 963+
البريد الإلكتروني: E-mail: acatap2@gmail.com
الموقع على الإنترنت: www.acatap.org
الصفحة على فيس بوك: المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر

بحوث لغوية مصطلحية

مفهوم التماسك النصي وأدواته

د. جلال مصطفاوي
المركز الجامعي – عين تموشنيت –
الجزائر

تمهيد:

تعدّ (لسانيات النص) من أحدث الاتجاهات اللسانية التي تتعامل مع النص في كليته، وتقوم منهجيتها في التحليل اللغوي أساساً على تجاوز (لسانيات الجملة) التي تعدّ الجملة هي الوحدة اللغوية الكبرى، والتجاوز لا يعني الإلغاء إذ إن اللسانيات النصية جعلت من الدراسات السابقة للجملة منطلقا لها في البحث وقامت بتوسيع آفاقها، فبفضل الدراسات والجهود النصيّة فسّرت ظواهر لغوية هامّة منها: التماسك النحوي للنص، والانسجام الدلالي وأبنية التطابق والتقابل والتراكيب المحورية، والتراكيب المجتزأة وبنيات الحذف ودلالاته وغيرها من الظواهر التركيبية التي لا يمكن تفسيرها تفسيراً مقنعاً إلا في إطار النص كوحدة جامعة كلية. ولمّا كانت المهمة الأساسية التي تسعى لِتحقيقها لسانيات النص هي بيان كيفيات التماسك وأشكاله بين الأجزاء المكونة للنص، إلى جانب وصف الأبنية النصية وعلاقتها بالأجناس الأدبية (الأنماط) وتأثير ذلك كله في الجانب التداولي الاتصالي، فإن منهجية الطرح تقتضي منا أن نحدّد المفهوم العام لمصطلح التماسك أولا، ثم المفهوم الخاص له في الحقل المعرفي المحدّد – لسانيات النص.

1. مفهوم التماسك:

آ. لغة

أورد الزمخشري (ت 538هـ) في أساس البلاغة في مادة (مسك) ما يلي: "أمسك الحبل وغيره، وأمسك بالشيء ومسك وتمسك واستمسك وامتسك، وأمسِكْ عليك زوجَك، وأمسكتَ عليه

ماله: حبستَه، وأمسكَ عن الأمر: كفَّ عنه، وأمسكت واستمسكت وتماسكت أن أقع عن الدابة وغيرها، وغشيني أمر مقلق فتماسكت، وفلان ينفكك ولا يتماسك، وما تماسك أن قال ذلك: وما تمالك، وهذا حائط لا يتماسك ولا يتمالك، وحفر في مسيكةٍ من الأرض: في صلابة."[1]

وفي تاج العروس يطالعنا الزبيدي (ت 1205هـ) بقوله: "وفي صفته صلى الله عليه وسلّم بادن متماسك، أراد أنه مع بدانته متماسك اللحم ليس مسترخيه ولا منفضجه، أي أنه معتدل الخلق كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضاً".[2]

أمّا ابن منظور (ت711هـ) فيقول في اللسان فيقول: "المسيك من الأساقي التي تحبس الماء فلا ينضح، وأرض مسيكة لا تتشِّف الماء لصلابتها وأرض مساك أيضاً".[3]

وإذا ما نظرنا في سائر المعاجم العربية فإننا سنجد بأن لفظ التماسك فيها يدل على المتانة والصلابة وترابط الأجزاء بعضها ببعض.

ب. اصطلاحاً

إن الصفة الجوهرية القارّة في النص– في عرف علماء لسانيات النص – هي صفة الاستمرارية، ومفادها ذلك الترابط والتلاحم بين الأجزاء التي تكوّن النص، ثم إن هذه الصفة تَظْهر وتتجلى في سطح النص أو ظاهره..." ونعني بظاهر النص الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني، والتي نخطُّها أو نراها بما هي كمّ متّصل على صفحة الورق، ".[4]

والجدير بالذكر أن هذه الأحداث اللغوية تتعالق بعضها مع بعض بفعل خضوعها للمنوال النحوي أو المباني النحوية، لكنها لا تشكل نصّاً إلا إذا توفرت لها وسائل تماسك تضمن

---

[1] الزمخشري، **أساس البلاغة**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 01، 1989، ص 123.

[2] الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تح:عبد الستار أحمد فراج، مطبعة الكويت، الكويت، د.ط 1977

[3] ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان 1956.

[4] جميل عبد المجيد، **البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1-1998، ص 76.

الاستمرارية والاطراد في النص، ويطلق"سعد مصلوح" على مجموع هذه الوسائل مصطلح الاعتماد النحوي، ويتحدث في أشكاله وتنوعاته المختلفة فيقول: "... يتحقق الاعتماد في شبكة هرمية ومتداخلة من الأنواع وهي:

- الاعتماد في الجملة.
- الاعتماد فيما بين الجمل.
- الاعتماد في الفقرة أو المقطوعة.
- الاعتماد فيما بين الفقرات أو المقطوعات.
- الاعتماد في جملة النص"[1]. ويضيف"هاليداي ورقية حسن "بقولهما: "إن المعيار المختص برسم هذه الاستمرارية ورصدها، هو التماسك وبهذا يتبين لنا دوره الكبير في خلق النص."[2]

في الحقيقة يعدّ مصطلح التماسك مصطلحاً إشكالياً، بسبب تعدّد المفردات العربية المستعملة للدلالة عليه، فهو مترجم في الأصل عن الكلمة الإنجليزية (cohesion) إلا أن مقابله في الدراسات النصية العربية متعدّدٌ، وذلك على النحو الآتي:

الاتساق: محمد خطابي ومحمد الشاوش **السبك:** تمام حسان، سعد مصلوح، جميل عبد المجيد

التضام: إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد **الترابط:** محمد عطاري

الالتئام: عبد القادر قنيني **الربط اللفظي:** عزة شبل محمد

السبك أو الربط أو التضام: أحمد عفيفي

يقول (جمعان بن عبد الكريم) في إشكالية مصطلح (cohesion) ما يلي: "التماسك مصطلح مترجم عن الكلمة الإنجليزية (cohesion) وقد وقع في ترجمته بعض الاختلاف كالعادة في عملية انتقال المصطلحات العلمية مترجمة إلى العربية، فترجمه محمد خطابي إلى الاتساق في

[1] سعد مصلوح، **في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: آفاق جديدة**، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط 01، 2006، ص 227-228.

[2] Halliday and Rugaiya Hasan-cohesion in English-Longman-London-1976-p299.

حين ترجمه تمام حسان إلى السبك وترجمته إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد إلى التضام، أمّا عمر عطاري فترجمه إلى الترابط".[1] ويستنتج في موضع آخر أنّ مصطلح التماسك هو المصطلح الغالب على الدراسات النصيّة العربيّة حيث يقول: "... وفي غياب حلّ حاسم يأخذ على عاتقه مسألة الضبط المصطلحي، وإقصاء العبارة المشهورة (لا مُشاحَّة في الاصطلاح) – في الترجمة خصوصاً – يبدو من استعمال المصطلِحِين في الدراسات النصيّة غلبة استعمال التماسك في (cohesion) وغلبة استعمال الانسجام في (coherence)".[2]

ومن هنا فإنّ الحديث عن التماسك يستدعي الحديث عن مصطلح آخر هو الانسجام وهو المقابل للكلمة الإنجليزية (coherence)، ويعنى بالترابط المفهومي أو الاستمرارية في مفاهيم النص وأفكاره، فإذا كان التماسك مجاله سطح النص وظاهره، فإن مجال الانسجام هو باطن النص ويتشكّل وفق آليات وأدوات متعددة، مثل بعض العلاقات المنطقية كالسببيّة مثلاً، وعلاقة الإجمال – التفصيل وغيرها، وسنحاول الآن أن نورد بعض الاجتهادات في تقديم مفهوم التماسك.

إنّ الاتساق – كما يقول محمد خطابي– هو"ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المكوّنة لنص/خطاب ما، يهتم فيه بالوسائل اللغويّة (الشكليّة) التي تصل بين العناصر المكوّنة لجزء من خطاب أو خطاب برمّته... ومن أجل وصف اتساق الخطاب/النص يسلك المحلّل/الواصف طريقة خطيّة متدرجاً من بداية الخطاب (الجملة الثانية منه غالباً) حتى نهايته، راصداً الضمائر والإشارات المحيلة إحالة قبلية أو بعدية، لامهتمّاً أيضاً بوسائل الربط المتنوعة كالعطف والاستبدال والحذف والمقارنة والاستدراك، كل ذلك بُغْية البرهنة على أن النص/الخطاب (المعطى

[1] جمعان بن عبد الكريم، **إشكالات النص: دراسة لسانية نصية**، النادي الأدبي، الرياض، السعودية، ط 01، 2009، ص 197.

[2] المرجع نفسه، ص 222.

اللغوي بصفة عامة) يشكّل كلّاً متآخذاً".[1]

وترى الباحثة (ريما سعد) أنّ "أهم ما يحدّد ما إذا كانت مجموعة من الجمل تشكّل نصّاً، يعتمد على علاقات الترابط النصي داخل الجمل، وفيما بينها ممّا يخلق بِنية النص."[2] وتضيف بقولها"وهكذا يرى هاليداي ورُقَيَّة حَسَن أن النص ذو وحدة دلالية تأتي من الترابط الموجود بين جمل النص، ومن هذا المنطلق عرّف (هاريس) و(هودجز)، [1983] الترابط في النص بأنه:خواص تربط أجزاء النص بعضها ببعض مثل الإحالة بالعودة، أودرجة ارتباط أجزاء النص بعضها ببعض، وهناك روابط تربط أجزاء النص وتجعله وحدة واحدة وتزيده وضوحاً، ومن هذه الروابط ما يكون بين الجمل أو داخل الجملة الواحدة في النص، وتعطي القارئ انطباعاً بأن النص مترابط."[3]

وتطالعنا (جوديث إروين) [J.Irwin] في كتابها الموسوم: التماسك والفهم بقولها: "يمكن أن يحدّد الربط والتماسك باعتباره مجموعة من البِنى الدلالية والتركيبية التي تحكم الربط بين الجمل على نحو مباشر دون الاعتماد على المستوى الأعلى في التحليل أي البِنية النصية الكبرى".[4]

ويعدّ التماسك – من منظور هاليداي ورقية حسن – مفهوماً دلالياً "إنّه يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص والتي تحدّده كنَصّ"[5]. أما محمد الشاوش فإنه يرى بأن "الاتساق هو مجموعة الإمكانيات المتاحة في اللغة لجعل أجزاء النص متماسكة بعضها ببعض."[6] ويركّز

---

[1] محمد خطابي، **لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006، ص **05**.

[2] ريما سعد، **مهارات التعرف على الترابط في النص في كتب القراءة**، مجلة رسالة الخليج، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ع 87، ص 90.

[3] المرجع نفسه–ص 100.

[4] Judith w.Irwin –Cohesion and Comprehension-published by the international reading association-1986-p31.

[5] Halliday&Hasan-Cohesion in English-London-Longman-1976-p04.

[6] محمد الشاوش، **أصول تحليل الخطاب**، المؤسسة العربية للتوزيع، جامعة منوبة، تونس، ط 1، 2001، ص124.

(هاينه مان) و(ديتر)على الجانب الشكلاني والنحوي فيقولان: "تنطلق تصورات نحو النص (لسانيات النص) من الفرض القائل: إنّ النصوص في الأساس يمكن تحديدها بأنها تكوين بسيط من الجمل تنشأ بينها علاقات تماسك."[1]

أمّا – شحدة فارع– فيرى أن مفهوم التماسك الشكلي (cohesion) يعني: "ترابط الجمل في النص فيما بينها بوسائل لغوية معينة"[2]، ويؤكّد جمعان بن عبد الكريم على المنحى الشكلي (النحوي والمعجمي) للتماسك بقوله: "... وهذا الترابط يهتم بالروابط التي تجري في سطح النص أكثر من اهتمامه بالمشكل الدلالي أو المعنوي للنص. وإذا كان هناك اهتمام بالدلالة وروابطها فيأتي عارضاً، وانطلاقاً من الشكل إلى الدلالة، إذ إنّ كلّ الروابط التي تربط ظاهر النص تحتوي ضرورةً على قدر من الدلالة تمّ الربط وفقاً لها".[3]

والربط اللفظي– لدى (عزة شبل محمد)– هو: "إحدى الوسائل اللغوية التي تتحقق بها النصيّة، فالنص ليس مجرد سلسلة من الجمل بمعنى أنه ليس وحدة نحوية أكبر من الجملة، مختلفة عنها في الحجم فقط، وإنما هو وحدة من نوع مختلف، وحدة دلالية، تلك الوحدة هي وحدة المعنى في السياق."[4] ثمّ إنّ العلاقة بين الربط اللفظي (cohesion) والتماسك المعنوي (coherence) "ليست علاقة ترادف، فالربط اللفظي يقع بين العناصر داخل النص على مستوى البِنية السطحية، ويزيد من تماسك النص، لكنه ليس هو التماسك المعنوي، ففي النص المكتوب يتحقق التماسك عندما ترتبط جملة بجملة أخرى في الفقرة وعندما تقدم الفقرات في النص في تتابع منطقي، ولهذا فربما يكون من المفيد أن نفكر في اعتبار التماسك علاقات مفهومية يقيمها القارئ أو يأمل في إقامتها في عملية قراءة نَصٍّ مترابط، بهذا المعنى التماسك يمكن أن ينظر

---

[1] فولفجانج هاينه مان وديتر فيهفجر، **مدخل إلى علم لغة النص**، ت:سعيد حسن بحيرى، زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط 1، 2004، ص 21.

[2] شحدة فارع، **مقدمة في اللغويات المعاصرة**، دار وائل للنشر، الأردن، ط01، 2000، ص 201.

[3] جمعان بن عبد الكريم، **إشكالات النص**، النادي الأدبي، الرياض، السعودية، ط 1، 2009، ص 222.

[4] عزة شبل، **علم لغة النص(النظرية والتطبيق)**، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط 2، 2009، ص 99.

إليه باعتباره ترابطاً معرفياً متبادلاً أو هو ظاهرة مرتبطة بالنص والقارئ معا."[1]

2. من نماذج وصف التماسك النصي:

لقد أفرز البحث اللساني النصي اهتماماتٍ مركّزةً بموضوع التماسك على صعيد الجملة، وعلى صعيد النص، نظراً للدور الكبير الذي يشغله في فهم النص وتأويله، ويتجلى ذلك في كثرة المقترحات أو النماذج التي تنظّر وتؤسّس لنسق التماسك، وأهمها:

آ. نموذج"هاليداي ورقية حسن"

حيث عمدا في كتابهما "Cohesion in English" سنة (1976) إلى تحديد السمات التي تميّز النص من اللانص "فالنص باعتباره وحدة دلالية، ترتبط أجزاؤه معاً بواسطة أدوات ربط صريحة تختلف من نص إلى آخر تَبعاً لنوعه واختلاف المؤلفين، سواء من حيث عددها أو من حيث نوعها، لأنها تؤدي دوراً وظيفياً ليس باعتبارها وحدات نحوية تربط بين الجمل لعمل سلسلة تشكّل نصّاً، بل باعتبارها وحدات وظيفية تؤدي دوراً في تكوين النص كوحدة دلالية".[2]

فالمعنى – من منظورهما – يصاغ، ثم يعبِّر عنه بالكتابة أو النطق، والمقصود بالصياغة هو التركيب بين اختيار الكلمات (الناحية المعجمية) والبنيات النحوية (الناحية النحْوية)، فالتماسك يتحقق جزء منه بالنحو وجزء آخر بالمفردات، لذلك ينقسم التماسك عندهما إلى نوعين، وهما: التماسك النحوي والتماسك المعجمي. لقد بسط هاليداي ورقية حسن خمسة أنواع لأدوات الربط تكوّن شبكة من العلاقات الدلالية تربط الجمل أو الفقرات أو الوحدات النصية وتهندس مفهوم النصية وهي:

– **الإحالة reference:** وتتضمن ضمائر الإحالة الشخصية والإشارية والمقارنة

– **الاستبدال substitution:** ويتضمن الاستبدال الاسمي والفعلي والعباري.

---

[1] المرجع نفسه، ص 100.

[2] Halliday&Ruqaiya hasan-Cohesion in English-p02.

- **الحذف ellipsis:** ويشمل الحذف الاسمي والفعلي والعباري.
- **الوصل conjuction:** ويضم الوصل الإضافي والاستدراكي والسببي والزمني.
- **التماسك المعجمي lexical cohesion:** ويشمل أشكال التكرار والتضام"[1].

والجدير بالذكر أنّهما يعتبران علاقات التماسك علاقات دلالية، إلّا أنّها تُدرك بالاعتماد على النظامين النحوي والمعجمي، ويضيفون إلى الأدوات السابقة مجموعة من الوسائل الشكلية التي تعمل على تحقيق التماسك النصي، ومنها التوازي التركيبي، والإيقاع/القافية، والوزن/البحر.

ب. نموذج"دي بوجراند ودرسلر DeBeaugrande&W.Dressler"

بحث هذان العالمان في نصية النصوص في كتابهما: (مقدمة في علم لغة النص) سنة 1981 حيث طرحا تساؤلاً هامّاً وهو: كيف تقوم النصوص بدورها في التفاعلات البشرية؟و يجيب كل منهما بأن:"النص حدث تواصلي يلزم لكونه نصا أن تتوفر له سبعة معايير للنصية مجتمعة، وويزول عنه هذا الوصف إذا تخلّف واحد من هذه المعايير وهي:

1. التماسك(الربط) cohesion
2. الانسجام coherence
3. القصدَ intentionnalite
4. القبولَ acceptabilite
5. الإعلام informative
6. المقاميةَ situationalite
7. التناص intertextualite"[2]

وقد وزّع سعد مصلوح وضعيات هذه المعايير كالآتي:

آ. ما يتصل بالنص في ذاته، وهما معيارا السبك والحبك.

ب. ما يتصل بمستعملي النص سواء أكان المستعمل منتجاً أم متلقياً وذلك معيارا القصد والقبول.

ج. ما يتصل بالسياق المادي والثقافي المحيط بالنص وتلك المعايير، الإعلام والمقامية

---

[1] نقلا عن: عزه شبل محمد، **علم لغة النص(النظرية والتطبيق)**، ص 101.

[2] دي بوجرادن(و)درسلر، **النص والخطاب والإجراء**، ت:تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط 01، 1998، ص 103.

والتناص"[1].

د. يشير "دي بوجراند" إلى أن هناك خمسة معايير فقط، يختص بها نحوُ النص وهي القصد والتناص والمقامية والإعلامية والقبول، ويدعو إلى منهج تكاملي في البحث النصي نظراً للأبعاد الثقافية المختلفة المنبثقة عن تلك المعايير، يقول: "ومن هذه المعايير السبعة معياران تبدو لهما صلة وثيقة بالنص (التماسك والانسجام) و اثنان نفسيان بصورة واضحة (رعاية الموقف والتناص)، أما المعيار الأخير، فهو بحسب التقدير"[2].

– وسائل التماسك النصي عند دي بوجراند ودرسلر:

يفرّق هذان العالمان بين نوعين من الترابط، الأول ترابط بسيط يتّكئ على أعراف تركيبية واضحة (المباني النحوية) ويقع في حيز ضيق في الإنجليزية (phrase-clause-sentence)، والثاني هو الترابط الذي يقوم بين تلك الوحدات الصغرى داخل النص، ويتم التركيز على النوع الثاني ما دام موضوع بحثهما هو النص، الذي يتسم بعلاقات رأسية فائقة التعقيد، لذلك يقترحان هذه الوسائل:

1. التكرار reccurence: و هو الإعادة المباشرة للكلمات.
2. التكرار الجزئي partial reccurence: و يعني استعمال المكونات الأساسية للملمة مع نقلها إلى فئة كلمة أخرى.
3. التوازي parallelism: يعني تكرار نفس البنية التركيبية، ولكن مع ملئها بعناصر جديدة.
4. إعادة الصياغة paraphrase: تعني تكرار المحتوى، ولكن بنقله بواسطة تعبيرات مختلفة.
5. الصيغ الكِنائية pro-forms: و تعني استبدال عناصر تحمل مضمونا بعناصر أخرى لا تحمل مضموناً مستقلاً مثل الضمائر وأسماء الإشارة.
6. الحذف ellipsis: و يعني حذف بعض العناصر في البِنية السطحية، مثل الفعل أو الفاعل أو

[1] سعد مصلوح، **نحو أجرومية للنص الشعري**، فصول، مج 10، ع2، 2يوليو/أغسطس 1991، ص 154.

[2] النص والخطاب والإجراء، ص 106.

الموصوف أو المفعول... الخ

7. الربط junction: و له أربعة أنماط وهي:

آ. الوصل conjunction ب. الفصل disjunction

ج. التعارض contrajunction د. التبعية subordination

إضافةً إلى عناصر أخرى تدعم الربط اللفظي كالزمن والجهة ولهما تنظيم نسبي، يختلف من لغة إلى أخرى.[1]

ج. نموذج"مايكل أوي M.Hoey":

يركّز هذا العالم على عنصر التكرار في النصوص من خلال مؤلفه (patterns of lexis in text) سنة 1991، حيث قسّم التكرار إلى أنواع عديدة، وهي:

- التكرار المعجمي البسيط – التكرار المعجمي المركب.
- إعادة الصياغة البسيطة – إعادة الصياغة المركبة.
- الاستبدال – المرجعية المشتركة
- الحذف.

ويشير (أوي) إلى أنّ "ما يميّز هذه الدراسة عن الدراسات السابقة للتماسك، أنها تركّز على دلالات تلك الروابط على عدة محاور: الأول: كثافة الروابط بين أجزاء النص، وتفيد في تحديد المعلومات الأساسية والمعلومات الثانوية، فكلما زادت الروابط بين أجزاء النص، كانت متصلة بالفكرة الأساسية، وكلما ندرت أو انعدمت الروابط كانت هذه الأجزاء تقدّم معلومات ثانوية يمكن الاستغناء عنها عند كتابة ملخص لمحتوى النص. والثاني:المسافة بين الروابط أو توزيع الكثافة بين الروابط، حيث إن علاقة الربط تكون أوضح كلما قلّت المسافة بين الروابط".[2]

---

[1] ينظر: إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، **مدخل إلى علم لغة النص**، ص 37-46.

[2] عزة شبل محمد، **علم لغة النص (النظرية والتطبيق)**، ص 103.

د. نموذج "جوناثان فاين Jonathan Fine":

قدّم هذا العالم عرضا لرؤية وظيفية للتماسك النصي وذلك في كتابه"كيف تعمل اللغة" (how language works) سنة 1994، حيث لم يعتبر التماسك آلية تحقق الربط في النص فحسب، بل عَدَّه جزءاً من النظام اللغوي يقدم أساساً على مبدأ الاختيار في عملية بناء النص، هذا الاختيار يتعلق بجانبين: الأول لغوي بنائي (العوامل اللغوية التي تبني التماسك داخل النص)، والثاني يتعلق بوظائف النص الناتجة عن استعماله في سياق محدد "حيث يريد المتكلم أن ينقل رسالة ما إلى متلق معيّن في موقف ما، ويتحكم في اختيار المتكلم لوسائل الربط مجموعة من العمليات الإدراكية والعوامل الاجتماعية، لأداء وظيفة تواصلية معينة، يقصد بالعمليات الإدراكية: العمليات الذهنية التي تكمن وراء اختيار عنصر الربط، أمّا العوامل الاجتماعية فتبنّي الوظيفة التي يحقّقها لنص بالنظر إلى سياق الموقف الذي أنتج فيه"[1]. إنّ ضرورة دراسة اللغة في السياق المحدّد لها يفضي إلى إبرازها على حقيقتها، حيث تستعمل اللغة أساساً لتحقيق تأثيرات بواسطة الأفراد المتكلمين وقد ركّز (جوناثان) على الوسائل البنائية التي تجعل اللغة مؤثرة، ومنها: أدوات الربط التي تختلف من ذات إلى أخرى، كما تختلف باختلاف الأغراض البلاغية.

وخلاصة القول: إن(جوناثان) في نموذجه يعدّ وسائل التماسك اختيارات كميّة ونوعية، تبني – بفعالية وظيفية – النص، وهذه الوسائل هي:

1. **الصيغ الكِنائية phoricity:** وهي العناصر التي تنبه المتلقي لتفسير عناصر أخرى في النص (سابقة أو لاحقة) وهو مصطلح أشمل من الإحالة الذي استعمل في نموذج"هاليداي ورقية حسن".
2. **الوصل conjunction:** وينقسم إلى أربعة أنواع وهي:

آ. الإضافي additive ب. الاستدراكي adversative

ج. السببي causal د. الزمني temporal

[1] –المرجع نفسه، ص103

3. الربط المعجميlexical cohesion: و يشتمل على الآليات التالية:

آ. التكرار المباشر direct repetition　　ب. المترادفات synonyms

ج. الكلمات الشاملة superordinates　　د. الكلمات العامة generals

4. الاستبدال substitution

5. الحذف ellipsis

ويصنّف هذا النموذج في خانة التيار الوظيفي والكمّي، حيث يهدف هذا العالم إلى بيان الفروق في توظيف وسائل التماسك النصي باختلاف مؤلفي النصوص على لغة الأطفال، والأساليب المستعملة من قبل المرضى، ومقارنة استعمالها ما بين نصوص اعتمدت اللغة الأم، وبين نصوص أخرى كتبت بغيرها، كما يكشف عن العلاقة بين أدوات التماسك النصي، واستعمال النصوص في مواقف سياقية متعددة من زاوية وظيفية.

3. أدوات التماسك النصي

1.3 التماسك المعجمي:

آ. **التكرار (Reiteration\Reccurrance):** ومفاده تكرار لفظتين مرجعهما واحد"... فمثل هذا التكرار يعدّ ضربا من ضروب الإحالة إلى متقدم()، بمعنى أن الثاني منهما يحيل إلى الأول، ومن ثم يحدث السبك بينهما، ومن ثم بين الجملة أو الفقرة الوارد فيها الطرف الأول من طرفي التكرار، والجملة أو الفقرة الوارد فيها الطرف الثاني من طرفي التكرار".[1] ويعرض هاليداي ورقية حسن – في سبيل بيان مفهوم التكرار وقيمته هذا المثال:

Wash and core six cooking apples. Put them into a fire proof dish.

– اغسل وانزع نوى ست تفاحات. ضعها في صحن يقاوم النار.

إن ما يمكن لنا ملاحظته هو أن الضمير(ها) في الجملة الثانية يشير إلى (ست تفاحات)

[1] محمد سالم أبو عفرة، **السبك في العربية المعاصرة**، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط 1، 2010، ص 07.

الموجودة في الجملة الأولى، وهذا الضمير يتعالق بما يشير إليه تعالقاً شديداً وضرورياً بحيث لا يمكننا تفسيره من دون الرجوع إلى المحال إليه.لذلك ترتبط الجملتان ارتباطاً نحوياً عن طريق الإحالة القبلية للضمير(ها). وحريٌّ بنا أن نلاحظ أيضا أن الإحالة القبلية ليست حكراً على الضمير، بل من الممكن أن يقوم بهذه الوظيفة التكرار وَلْنبقْ في المثال نفسه:

Wash and core six cooking apples. Put the apples into a fire proof dish.

– اغسل وانزع نوى ست تفاحات. ضع التفاحات في صحن يقاوم النار.

فتكرار كلمة التفاحات هو الذي حقّق التماسك بين الجملتين، وهو تماسك معجمي لأن التكرار أداة معجمية وليست نحوية... ويقع التكرار عند (هاليداي ورقية حسن) في أربع درجات، وهي:

1. تكرار العنصر المعجمي نفسه
2. الترادف أو شبه الترادف
3. الاسم الشامل
4. الكلمة العامة أو المطلقة.[1]

ب. المصاحبة المعجمية أو التضام (Collocation): والمقصود بها توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة، نظراً لارتباطهما بحكم علاقة محدّدة (تضاد: مثل ميت/حي –علاقة الجزء بالكل: مثل يد/جسم–اشتمال: مثل فرس/حيوان –تنافر: مثل أزرق/أخضر)... ويُمثّل(هاليداي ورقية حسن) لهذا النوع من التماسك المعجمي بما يلي:

Why does this boy wriggle all the time? Girls don't wriggle.

– ما لهذا الولد يتلوّى في كل وقت؟ البنات لا تتلوّى.

وموضع الشاهد هنا في العلاقة القائمة بين الولد والبنات فهما ليسا مترادفين وليس لديهما المحال إليه نفسه.. ومع ذلك فإن ورود لفظ البنات في الجملة الثانية يستدعي الرجوع إلى لفظ الولد الموجود في الجملة الأولى...". وهكذا تؤدي فكرة التضام، أو المصاحبة اللفظية نوعاً من

[1] Halliday&Ruqaiya hasan-Cohesion in English-p277-279.

التماسك المعجمي للنص بناءً على ما تقوم عليه، أو ما يسمى في علم الدلالة بالحقول المعجمية، إذ لا تخرج علاقات أي حقل معجمي عن: التضاد– التنافر– الترادف– الاشتمال– علاقة الجزء بالكل."[1] والجدير بالإشارة أن التماسك القائم على أساس معجمي قد تعرّض للنقد الشديد، لأنه يعوّل على المعنى المعجمي للكلمة بعيداً عن السياق الذي تعيش فيه والذي تتأثر به وتؤثر فيه... لكن معنى الكلمة مهما تغيّر بتغيّر السياقات، لابدّ أن يعود إلى أصل دلالتها ومنبتها.

2.3 التماسك النحوي:

آ. الإحالة (Reference):

يُعدُّ ابن رشيق (ت 456هـ) أول من أشار إلى الإحالة باعتبارها مصطلحا لغويّاً أو نحويّاً في التراث العربي، حيث يقول في العمدة: "ومن التضمين ما يحيل الشاعر فيه إحالة، ويشير به إشارة، فيأتي به كأنه نظم الأخبار أو شبيه به... فهذا النوع من أبعد التضمينات كلها، وأقلّها وجوداً، وذلك نحو قول أبي تمام:

لعمرو مع الرمضاء، والنار تلتظي أرقّ وأخفى منك في ساعة الكرب

أراد البيت المضروب به المثل، وهو:

المستجيرُ بعمـرو عنـد كُربتـه كالمستجير من الرمضاء بالنار."[2]

وغني عن البيان أن "ابن رشيق" "يستعمل مصطلح (الإحالة) للتمييز بين دلالة التضمين المألوفة التي تعني حضور نص سابق زمنياً في نصٍّ لاحق، وبين الإحالة التي تعني إقامة نوع من الترابط اللفظي والدلالي بين نص سابق ونص لاحق، دون حضور النص الأول في صورة التضمين المألوفة."[3]

---

[1] مصطفى صلاح قطب، **الترابط النصي(النظرية والتطبيق)**، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط 1، 2014، ص199.

[2] **العمدة في محاسن الشعر**، تح: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 01، 1988، ج 02، ص 708.

[3] محمد سالم أبو عفرة، السبك في العربية المعاصرة، ص 29.

وقد ظهر أيضاً مصطلح الإحالة عند "حازم القرطاجني (ت 684هـ) "في كتابه المشهور: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حيث ورد ذكره في هذا المؤلف تسع عشرة مرة في سياقات متعددة، وقد تتبع (زياد صالح الزغبي) تجلياتها ونشأتها التاريخية، وذلك حين يقول: "...وملاحظات الشعراء الأقاصيص والأخبار المستطرفة في أشعارهم ومناسبتهم بين تلك المعاني المتقدمة والمعاني المقاربة لزمان وجودهم، والكائنة فيها التي يبنون عليها أشعارهم مما يحسن في صناعة الشعر. ويجب للشاعر أن يعتمد من ذلك المشهور، الذي هو أوضح في معناه من المعنى الذي يناسب بينه وبينه ويعلقه على طريق التشبيه أو التنظير أو المثل أو غير ذلك. ويسمى ما تسبب إلى ذكره من القصص المتقدمة المأثورة بذكر قصة أو حال معهودة (الإحالة)، لأن الشاعر يحيل بالمعهود على المأثور."[1]

ولم يرد مصطلح الإحالة بشكل صريح في النحو العربي القديم، وإنما ورد ما يدل على مفهومه، من ذلك قول "الرضي (ت 686هـ)" عن اسم الإشارة: "كل اسم موضوع للدلالة على ما سبق علم المخاطب بكون ذلك الاسم دالّاً عليه، ومن ثمة لا يحسن أن يخاطب بلسان من الألسنة إلا من سبقت معرفته لذلك اللسان."[2]

عالج علماء لسانيات النص الإحالة باعتبارها وسيلة أساسية من وسائل التماسك النصي (Cohesion) بمسميات متعددة، مثل مصطلح Reference (=الإحالة) عند هاليداي ورقية حسن (1976)، ومصطلح pro-forms (=الصيغ الكِنائية) والذي قدّمه كل من دي بوجاند ودرسلر (1981) وهو مصطلح عام يشمل: إضمار الاسم، وإضمار الفعل، وإضمار المكمّل. أما براون ويول فقد عبَّرا عن هذه الوسيلة بمصطلح: co-reference (=الإحالة المتبادلة)، وقد ظهرت مقابلات عربية لهذا المصطلح منها: المرجعية والإرجاعية والإرجاع (نسبة إلى المرجع

[1] نقلا عن: المرجع نفسه، ص 30.

[2] رضي الدين الاستراباذي، **شرح الرضي على كافية ابن الحاجب**، تح: عبد العال، عالم الكتب، القاهرة، ط 01، 2000، ج 04 ص 184.

reference)، ولكن المصطلح الأكثر تداولاً هو مصطلح الإحالة. فما هو المقصود بهذا المصطلح في الدراسات النصية الحديثة؟

الإحالة تقنية تقضي باستعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى، سابقة أو لاحقة، في النص أو المحادثة، فمعرفة ماهية الإحالة ونوعها متوقفة على معرفة سياق الحال أو الأحداث والمواقف المحيطة بالنص، يقول (جون لاينز): "الإحالة هي العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميات".[1] إن الأدوات التي تحيل داخل النص هي الأدوات التي نعتمد في فهمنا لها، لا على معناها الخاص، بل على إسنادها إلى شيء آخر"فهي تجبر القارئ على البحث في مكان آخر عن معناها".[2] و الإحالة – يضيف هاليداي ورقية حسن – "علاقة دلالية تشير إلى عملية استرجاع المعنى الإحالي في الخطاب مرة أخرى، فيقع التماسك من استمرارية المعنى"[3].

ولا تقوم الإحالة إلا إذا توفر شرط أساس، مفاده أنه يجب أن يكون لكل مضمر، مفسّر مناسب يحكمه، أو عنصر مفترض يكون قابلاً للتطابق بطريقة من الطرق. يقول(الأزهر الزناد): "تطلق هذه التسمية – العناصر الإحالية – على قسم من الألفاظ، لا يملك دلالة مستقلة، بل يعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب، فشرط وجودها هو النص، وهي تقوم على مبدأ التماثل بين ما سبق ذكره في مقام ما وبين ما هو مذكور بعد ذلك في مقام آخر"[4]... وتنحلّ الإحالة إلى أنواع عديدة: قبلية وبعدية، وذات مدى قريب وذات مدى

---

[1] جون لاينز، **اللغة والمعنى والسياق**، ت: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ط 01، 1987، ص 113.

[2] براون ويول، **تحليل الخطاب**، ت: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، السعودية، ط 01، 1997، 230.

[3] Halliday &Ruqaiya Hasan-Cohesion in english-p31.

[4] الأزهر الزناد، **نسيج النص(بحث فيما يكون به الملفوظ نصا)**، المركز الثقافي، بيروت، لبنان، ط 1، 1993، ص 118.

بعيد، وداخلية ومقامية أو خارجية.[1]

ب. الحذف Ellipsis:

في اللغة العربية – وغيرها من اللغات– يجوز حذف أحد عناصر الجملة عند استعمالها، فالحذف ظاهرة مشتركة بين اللغات الإنسانية، لكن نسبة وجودها تتفاوت من لغة إلى أخرى، ولما كان الإيجاز من أهم سمات العربية فإن نسبة الحذف فيها بارزةٌ مقارنةً باللغات الأخرى. ولقد عُني النحاة والبلاغيون والمفسّرون بهذه الظاهرة. فهذا الزركشي (ت794هـ) يقيم تفرقة بين الحذف والإضمار في قوله: "والفرق بينه وبين الإضمار أن شرط المضمر بقاء أثر المقدر في اللفظ نحو: {يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذابا أليما}[سورة الإنسان: الآية31، {يعذّب المنافقين}[سورة الأحزاب:الآية24، {انتهوا خيرا لكم}[سورة النساء171، أي ائتوا أمراً خيراً لكم، وهذا لا يشترط في الحذف.. ويدل على أنه لا بد في الإضمار من ملاحظة المقدر باب الاشتقاق، فإنه من أضمرت الشيء: أخفيته.. وأما الحذف فمن حذفت الشيء قطعته، وهذا يشعر بالطرح بخلاف الإضمار"[2].

وقد اهتم الجرجاني (ت471هـ) بالحذف، حيث عقد فصلاً كاملاً للحديث عنه في الدلائل، يقول في التقديم له: "هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به تَرْكَ الذِّكْر أفصحُ من الذكر، والصمتَ عن الإفادة أزيدُ للإفادة، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ماتكون بياناً إذا لم تُبِن".[3] ويقول العلوي (ت745هـ) في بيان قيمة الحذف وشروطه: "اعلم أن مدار الإيجاز على الحذف، لأن موضوعه على الاختصار، وذلك إنما يكون

---

[1] ينظر: جلال مصطفاوي، **الترابط النصي في سورة الكهف**، دار النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، ط1، 2017، ص 99-102.

[2] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001، ج03، ص 115-116.

[3] عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، تح: محمود شاكر، مكتبة المدني القاهرة، دار المدني، جدة، السعودية، ط 3، 1992، ص 136.

بحذف ما لا يُخلّ ولا ينقُص من البلاغة، بل أقول لو ظهر المحذوف لنزل قدرُ الكلام عن علو بلاغته، ولصار إلى شيء مُسْتَرَكٌ مسترذل، ولكان مُبطِلاً لما يظهر على الكلام من الطلاوة والحسن والرقة. ولابد من الدلالة على ذلك المحذوف، فإن لم يكن هناك دلالة عليه فإنه يكون لغواً من الحديث، ولا يجوز الاعتماد عليه، ولا يُحكم عليه بكونه محذوفاً".[1] ثم إن هذه الشروط برغم أنها تقصد نحوَ، الجملة إلا أنها كذلك تصلح لِنحوِ النص، فمراعاة الوجه البلاغي للتركيب ووجود الدليل على المحذوف من معايير تماسك النص وتلاحمه..". ومن خلال ماذكره الجرجاني والعلوي يتبين لنا اهتمام البلاغيين بسبك النص، ولعل في إشارة العلوي إلى أن ظهور المحذوف يُنزل من قدر الكلام يعزّز القول بأن ما عدّه النحاة من قبيل الحذف الجائز هو أقرب عندهم إلى الوجوب، وأن ما دفعهم إلى القول بالجواز هو بعض الشواهد التي نقلوها عن العرب ولم يروا تخطئتها، وإنما عدّوها من قبيل الجائز غير الفصيح. وأن الحذف في ظل وجود الدليل والقرينة الدالة عليه يتلاءم مع أهم خصائص العربية وهي الإيجاز."[2]

ويظهر الحذف عندما تعتمد عملية فهم النص على إمكان إدراك الانقطاع على مستوى سطح النص، حيث نعمد إلى افتراض وجود عنصر سابق هو مصدر المعلومة المفقودة، فالعنصر المحذوف يترك فراغاً أو فجوة على مستوى البِنية التركيبية من الممكن ملؤها من مكان آخر في النص. إذًا، يجوز حذف أحد عناصر الجملة عند استعمالها" وذلك لا يتم إلا إذا كان الباقي في بناء الجملة بعد الحذف مغنياً في الدلالة كافياً في أداء المعنى، وقد يحذف أحد العناصر، لأن هناك قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدلّ عليه، ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره".[3]

ومن خلال هذا القول نكتشف بأن لسانيات النص تعتمد اعتماداً بيّناً على الحذف، لأن السياق والمقام مجالان مناسبان له. وتكون الجمل المحذوفة ذات وظيفة ربطية، تربط أجزاء

[1] يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، مراجعة: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 01، 1995، ص 246-247.

[2] محمد سالم أبو عفرة، **السبك في العربية المعاصرة**، ص 120.

[3] محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 01، 1996، ص 208.

النص انطلاقا من المضمون الدلالي. يقول(دي بوجراند):"الحذف هو استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن أو أن يوسّع أو يعدّل بواسطة العبارات الناقصة".[1] فالبِنية السطحية للنص غالباً ماتكون غير مكتملة بفعل الحذف، وعليه يكتسي هذا الأخير دوراً بنائيّاً بمساعدة السياق والمقام الدلالي، والحذف باعتباره أداة من أدوات التماسك النصي يتقاطع مع تقنية الاستبدال في النص، لذلك نجد (هاليداي ورقية حسن) يحدّدان الحذف مفرقين بينه وبين الاستبدال بأن الحذف يكون استبدال الصفر بالمحذوف، في حين أن الاستبدال يعتمد على وجود المستبدل به سابقا للمستبدل.[2]

إن الحذف علاقة مرجعية بالعودة إلى السابق في الأغلب، وقد تكون هذه المرجعية خارجية في سياقات معينة حيث يمنحنا سياق الموقف المعطيات التي تخوّل لنا تفسير الحذف مع ملاحظة أن الحذف الخارجي يُعنى بتحقيق تماسك النص مع السياق وليس تماسك النص الداخلي.

وتكمن قيمة وجود الدليل على المحذوف سواء كان مقاليّاً أو مقاميّاً، في أنه يوفّر المرجعية بين المذكور والمحذوف في أكثر من جملة، فتظل استمرارية النص ديناميكية، وهذا الأمر يسهم في تماسك النص، فالتماسك في تراكيب الحذف قوامه أمران: المرجعية والتكرار... فأثر الحذف هو توسيع الهيمنة النصية لجملة ما إلى جملة تالية، ولا يقلّ الحذف فعالية عن غيره من الوسائل التي تعمل على تحقيق التماسك النصي، لأن المحذوف يُعامل معاملة المذكور من الزاوية الدلالية. فالحذف يسهم في ربط "نموذج العالم التقديري للنص بعضه ببعض، في الوقت الذي يقتطع من البنية السطحية".[3] ومن ثم يجري الكشف عنه عن طريق التفتيش عنه في البنية العميقة المسؤولة عن إفراز البِنية السطحية للنص بدعم من سياق الموقف وسياق الحال.

---

[1] **النص والخطاب والإجراء**، ت:تمام حسان، ص301

[2] ينظر: -Cohesion in English-p145.

[3] روبرت دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، ت: تمام حسان، ص 345.

ج. الربط Conjunction

يتجلى مفهوم الربط النحوي في بيان غايته المتمثلة في تحقيق التماسك والاستمراري على مستوى سطح النص الظاهر، ولديه وجوه عديدة أهمها: الوصل أو أدوات الربط، والإحالة، والحذف، والاستبدال. وتعتبر أدوات الربط من وسائل بناء النص وتوظّف أثناء التحليل لتفسير علاقة الوحدات الجملية أو النصية بما سبقها في النص. ونشير إلى أن الربط بالأداة يتمايز عن وجوه الربط الأخرى في كونه لا يمثل علاقة إحالية. فالربط بالأداة"يعبر عن مَعانٍ معينة تفترض وجود مكونات أخرى في الخطاب، فتستعمل بعض الكلمات والعبارات لتحدّد ربطاً خاصاً بين الأجزاء المختلفة للنص، يُطلق على مثل هذه الكلمات والعبارات روابط مثل: لكن – بالرغم من – على الرغم من..الخ".[1] يعتبر الربط – من منظور أنموذج هاليداي ورقية حسن – العنصر الخامس من العناصر الكفيلة بصنع التماسك النصي، فالربط عندهما "يتمثل في الطريقة التي يرتبط بها اللاحق بالسابق بشكل منظم، وأن النص يتمثل في جمل أو متتاليات متعاقبة خطيّاً، ولكي تدرك بوصفها وحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة بينها."[2] وتستعمل (Jeane Fahnestock) (1983) مصطلحاً آخر هو الانتقال (Transition) بدلًا من مصطلح الربط (Conjunction) المستعمل عند هاليداي ورقية حسن (1979).[3]

قسّم هاليداي ورقية حُسْنَ الربط إلى أربعة أنواع، وهي:

آ. **الربط الإضافي (Additive):** ويربط بين الأجزاء التي لها نفس الحالة، فكل منها صحيح في عالم النص، ويستدل عليه في الغالب بالأدوات: الواو–أيضاً– كذلك– أو–أم".. والاختيار من بين هذه الأدوات في النص هو اختيار بلاغي، فالواو تفيد معنى الاشتراك و(أو)تعطي معنى البديل وعادة ما تستعمل مع السؤال والطلب والوعد والخبر".[4] ويقول محمد خطابي في

---

[1] عزة شبل محمد، **علم لغة النص(النظرية والتطبيق)**، ص 110.

[2] Halliday and Rugaiya Hasan-cohesion in English-Longman-London-1976-p227.

[3] نقلاً عن: عزة شبل محمد، **علم لغة النص(النظرية والتطبيق)**، ص 110.

[4] Halliday and Rugaiya Hasan-cohesion in English-p246.

هذا النوع من الربط:"يتم الربط بالوصل الإضافي بالأداتين (و) و(أو)، وتندرج ضمن هذه المقولة العامة للوصل الإضافي علاقات أخرى مثل:التماثل الدلالي المتحقق في الربط بين الجمل بواسطة تعبير من نوع: بالمثل...، وعلاقة الشرح، وتتم بتعابير مثل: أعني، بتعبير آخر، وعلاقة التماثل المتجسدة في تعابير مثل:مثلا، نحو..".[1]

ب. **الربط الاستدراكي (Adversative):** وهو يربط بين الأجزاء المتنافرة أو المتعارضة في عالم النص، ويعني (على عكس ما هو متوقع) ويجري بأدوات مثل (but، yet) وغيرها وبتعابير مثل (however ،Nevertheless) ويستعمل (دي بوجراند ودرسلر) للدلالة عليه مصطلح وصل النقيض (Contrajunction) ويستدل عليه في العربية بأدوات من قبيل: لكن- مع ذلك- على الرغم من - على أية حال- من ناحية أخرى-في حين... حيث يكون هناك جمع غير محتمل بين الأحداث والسياقات" ويسعمل (Rafael Salkie) (1995) مصطلحاً آخر هو روابط التضاد (Opposition connectives) فالمعنى الأساسي لعلاقة الاستدراك هو عكس التوقع".[2]

ج. **الربط السببي (Causal):** وهو نوع من الربط يمكّننا من إدراك العلاقة المنطقية بين جملتين أو أكثر، وتُوظّف كلمات في سبيل التعبير عنه مثل (Therefore، hence، thus، so)، إذن فالشكل البسيط للعلاقة السببية هو"التعبير عنها من خلال الكلمات (لهذا- بهذا- لذلك- لأن) وعدد من التعبيرات مثل (نتيجة لـ - سبب لـ)... ويقع تحت العلاقة السببية الرئيسية علاقات خاصة مثل:النتيجة -السبب -الغرض -الشرط".[3]

وتجدر الإشارة إلى أن (دي بوجراند ودرسلر) يستعملان مصطلحاً آخر أعم وهو التبعية (Subordination) حيث يعتمد عنصر على وجود عنصر آخر، وتضم التبعية علاقة السبب

---

[1] محمد خطابي، **لسانيات النص**، ص 23-24.

[2] نقلاً عن: عزة شبل محمد، **علم لغة النص (النظرية والتطبيق)**، ص 112.

[3] المرجع نفسه، ص 112.

والنتيجة والعلاقة الزمنية والعلاقة الشرطية.

د. الربط الزمني (Temporal): ويجسّد هذا النوع من الربط العلاقة بين أطروحتي جملتين متتابعتين زمنياً: وأبسط تعبير عن هذه العلاقة يكون باستعمال كلمة (Then) "فالربط الزمني من الأدوات التي تؤدي إلى تماسك النص كما في: أضاء النور، ثم أدخل المفتاح في القفل. وتربط العلاقة الزمنية بين الأحداث من خلال الأداة (ثم–بعد) وعدد من التعبيرات مثل (وبعد ذلك–على نحو تال). وقد تشير العلاقة الزمنية إلى ما يحدث في ذات الوقت مثل (في ذات الوقت– حالاً – في هذه اللحظة)أ و تشير إلى السابق مثل (مبكراً– قبل هذا– سابقاً). كما يمكن أن تتحد الجملة مع مجموعة من الجمل لأنها تعدّ نهاية لمجموعة من العمليات أو سلاسل من العمليات فيُطلق عليها جملاً استنتاجية وتسبقها التعبيرات (أخيراً– في الختام– في النهاية)".[1]

والجدير بالذكر أن نشير إلى أن مصطلح (Conjunction) قد اتسع عند دي بوجراند فقد شمل الانسجام (Coherence)، وإن أبقى على الفرق بينهما".. وإذا كانت علاقتا العِلّية والزمانية مهمتين جدّاً للالتحام فينبغي بالطبع أن يفصّلا في توسيع التنشيط والاستدلال سواء أكانت هناك علامة ربط سطحية مستعملة أم لا".[2] ويقول تمام حسان في قراءته لفكرة الربط عند دي بوجراند: ".. وفي رأي المؤلف أنه إذا كانت إعادة اللفظ والاشتراك في الإحالة والحذف تحافظ على بقاء مساحات المعلومات فإن الربط يشير إلى العلاقات بين المساحات أوبين الأشياء في هذه المساحات.وللربط صور مختلفة: فهناك مطلق الجمع وهو لربط صورتين أو أكثر من صور المعلومات بالجمع بينهما إذ تكونان متحدتين من حيث البيئة أو متشابهتين، وهناك الربط بالتخيير بين صورتين أوأكثر من صور المعلومات إذ تكونان متحدتين من حيث البيئة أو متشابهتين.وإذا كانت المحتويات جميعا صادقة عند مطلق الجمع في عالم النص فإن الصدق في

[1] المرجع نفسه، ص 112

[2] روبرت دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، ت: تمام حسان، ص 350.

حالة التخيير لا يتناول إلا محتوى واحدا."[1]....

د. الاستبدال (Substituation):

عمد كلٌّ من (هاليداي ورُقَيَّة حَسَن) إلى بيان حقيقة الاستبدال عن طريق التفرقة بينه وبين الحذف من جهة والإحالة من جهة أخرى، فإذا كان الاستبدال هو تعويض عنصر بآخر، فإن الحذف هو نسيان عنصر وتغييبه عمداً، وإذا كان الاستبدال علاقة مرجعها الصيغ اللغوية من طرف المفردات والمركبات ومجاله النحو والمعجم، فإن الإحالة عبارة عن علاقة معنوية تقع في المستوى الدلالي... وما يهمّنا في هذا السياق هو كيف يحقّق الاستبدال التماسك داخل النصوص؟. يتجلى دور الاستبدال- كما يقول محمد خطابي- في العلاقة بين العنصرين المستبدِل والمستبدَل، وهي علاقة قبلية بين عنصر سابق في النص وبين عنصر لاحق فيه.ومن ثَم يمكن الحديث عن الاستمرارية..."."[2] وينحلّ الاستبدال عند (هاليداي ورُقَيَّة حَسَن) إلى ثلاثة أنواع، وهي: استبدال اسمي، واستبدال فعلي، واستبدال قولي. ولا يمكن فهم العلاقة بين الاستبدال وتماسك النص إلا بتتبع العلاقة بين طرفي الاستبدال (المستبدِل والمستبدَل، وهي علاقة قبلية، ثم إن بعض العناصر مثل: ذلك، ويفعل في الإنجليزية لا يمكن فهمها إلا بالعودة إلى ماتتعلق به في سابق الكلام.

خاتمة:

لقد حاولت من خلال هذا العرض توضيح مفهوم التماسك النصي، وذلك بإلقاء الضوء على أهم النماذج النصية التي قعّدت له، وبيان أهم الوسائل والأدوات التي تحقّقه داخل النصوص، فتبيّن لي أن التماسك النصي هو ذلك الترابط الرصفي مابين الجمل والقائم على النحو والمعجم في مستوى سطح النص والمقصود بسطح النص الوحدات اللغوية الظاهرة التي ندركها بالحواس،

---

[1] المرجع نفسه، ص 35.

[2] محمد خطابي، **لسانيات النص**، ص 19

ننطقها أو نكتبها.

والتماسك النصي نوعان: تماسك نحوي وهو التماسك الذي تبنيه معطيات نحوية، ومن أهم أدواته: الإحالة والاستبدال والحذف والربط. وتماسك معجمي وهو التماسك الذي يقوم على أساس ظاهرتين معجميتين وهما التكرار والمصاحبة المعجمية... إنّ الإحاطة بمفاهيم لسانيات النص عامة ومفهوم التماسك النصي خاصة لا يجب أن يُفصل عن الممارسة الفعلية للقراءة لدى القرّاء عامة والنقاد والمترجمين والمعلّمين في كافة الأطوار على وجه الخصوص. فالمعرفة اللسانية النصية من شأنها أن تعمّق عملية الفهم وتثري الفعل النقدي وترجّح تأويلا على آخر.

قائمة المراجع المعتمدة:

1. أبو عفرة (محمد سالم)، **السبك في العربية المعاصرة**، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط 01، 2010.
2. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، 1956.
3. الإستراباذي (رضي الدين)، **شرح الرضي على كافية ابن الحاجب**، تح:عبد العال، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط01، 2000
4. بحيرى (سعيد حسن)، **علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات**، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، ط02، 2004.
5. بن عبد الكريم (جمعان)، **إشكالات النص: دراسة لسانية نصية**، النادي الأدبي، الرياض، السعودية، ط01، 2009.
6. الجرجاني (عبد القاهر)، **دلائل الإعجاز**، تح:محمود محمد شاكر، مكتبة المدني القاهرة، دار المدني جدة، ط3، 1992
7. الجرف (ريما سعد)، **مهارات التعرف على الترابط في النص في كتب القراءة**، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ع87
8. خطابي (محمد)، **لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب**، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2006.
9. الزبيدي (محمد مرتضى)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تح:عبد الستارأحمد فراج، مطبعة الكويت، الكويت، د، ط، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1977.
10. الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تح:مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001.
11. الزمخشري (جار الله أبو القاسم)، **أساس البلاغة**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 01، 1989 ،
12. الزناد (الأزهر)، **نسيج النص (بحث فيما يكون به الملفوظ نصا)**، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان،

ط01، 1993

13. الشاوش (محمد)، **أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية**، المؤسسة العربية للتوزيع، جامعة منوبة، تونس، ط01، 2001.
14. عبد اللطيف (محمد حماسة)، **بناء الجملة العربية**، دار غريب، القاهرة، مصر، 2003
15. عبد المجيد (جميل)، **البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط01، 1998.
16. العلوي (يحيى بن حمزة)، **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة**، تح:محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995.
17. فارع (شحدة)، **مقدمة في اللغويات المعاصرة**، دار وائل للنشر، الأردن، ط01، 2000.
18. قطب (مصطفى صلاح)، **دراسة لغوية لصور التماسك النصي في لغة الجاحظ والزيات**، جامعة القاهرة، مصر، 1996.
19. القيرواني (ابن رشيق) ، **العمدة في محاسن الشعر**، تح:محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 01، 1988.
20. مصلوح (سعد)، **في البلاغة العربية والأسلوبيات** اللسانية:آفاق جديدة، جامعة الكويت، ط01 ، 2003
21. مصلوح (سعد)، **نحو أجرومية للنص الشعري**، مج10 –ع(01، 02)، جويلية، أوت، 1991.
22. مصطفاوي (جلال)، **الترابط النصي في سورة الكهف**، دار النشر الجامعي الجديد، تلمسان الجزائر، ط1، 2017
23. محمد (عزة شبل)، **علم لغة النص(النظرية والتطبيق)**، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط02، 2009.

(ب) المراجع المترجمة إلى العربية:

24. براون ويول، **تحليل الخطاب**، ت:محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، السعودية، ط 01، 1997.
25. جون لاينز، **اللغة والمعنى والسياق**، ت:عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ط01، 1987.
26. دي بوجراند ، درسلر، **النص والخطاب والإجراء**، ت:تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط 01، 1998.
27. هاينه فولفجانج وديتر فيهفيجر، **مدخل إلى علم لغة النص**، تر:حسن بحيرى، زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط01، 2004.

(ج) المراجع الأجنبية:

1-Halliday and Rugaiya Hasan-cohesion in English-Longman-London-1976

2- Judith w.Irwin –Cohesion and Comprehension-published by the international reading association-1986.

بحوث مقالات الترجمة

مستوى الأداء اللغوي في التعليمين العام والجامعي لدى الطلاب والمدرسين

د. محمود أحمد السيّد

رئيس هيئة الموسوعة العربية بدمشق

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف مفهوم الأداء اللغوي والأهداف المرسومة له في العملية التعليمية التعلمية، والشكوى من تدني مستواه لدى المتعلمين تلامذة وطلاباً، ولدى المعلمين إن في التعليم العام، وإن لدى أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات، ومن ثمَّ نسلط الأضواء على أسباب هذا التدني، ونحدد بعض الصوى للارتقاء بواقع الأداء اللغوي.

أولاً: مدخل تعريفي

الأداء لغة من الفعل «أَدَيَ»، وأداه أدياً بمعنى قضاه، وأدّى الشيء بمعنى قام به، وتأدّى الأمر بمعنى أنجز، والاسم هو الأداء، والأداء هو الإنجاز[1].

والأداء اللغوي في العملية التعليمية التعلمية هو الإنجاز، وقد يكون هذا الإنجاز ذا مستوى جيّد، أو يكون غير ذلك، إلا أن التربية المعاصرة تختلف في نظرتها إلى اكتساب اللغة عن نظرة التربية التقليدية التي كانت ترى أن اللغة ما هي إلا مجموعة من الحقائق والقواعد والقوانين والأحكام، وأن على المعلمين أن يلقّنوها للمتعلمين تلقيناً، وما على المتعلمين إلا أن يحفظوها ويستظهروها عن ظهر قلب، وبقدر درجة حفظهم لها يعدون متمكنين من اللغة، وينظر إلى

[1] مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، القاهرة ص 10.

أدائهم اللغوي على أنه أداء جيّد. في حين أن التربية المعاصرة تركز على التمهير أي التجلية والأداء المتقن لا على التحفيظ والتسميع، والمهارة هي الأداء المتقن القائم على الفهم والاقتصاد في الوقت والمجهود معاً، والسرعة في الإنجاز إلى جانب الدقة والإتقان فيه[2].

والمهارات اللغوية نوعان: مهارات إرسال، وتتمثل في المحادثة والكتابة، ومهارات استقبال، وتتمثل في الاستماع والقراءة.

ولا تتكون المهارة اللغوية إلا بالممارسة والتكرار على أن تكون الممارسة مبنية على الفهم وإدراك العلاقات والنتائج، ومبنية على التوجيه من جانب، والتعزيز من جانب آخر، وتوفر القدوة الحسنة.

ثانياً: الأهداف المرسومة للأداء اللغوي في العملية التعليمية التعلمية

ثمة أهداف مشتركة للأداء اللغوي في جميع مراحل العملية التعليمية التعلمية، وأهداف تختلف بين المراحل في ضوء النمو الفكري للمتعلمين، وتتلخص الأهداف التي نبتغيها من تعليم اللغة وتعلمها في الآتي[3]:

1. أن يكتسب المتعلم مهارات استعمال اللغة العربية استعمالاً ناجحاً في الاتصال بغيره محادثة وكتابة وقراءة واستماعاً.
2. أن يكتسب مهارات القراءة الجهرية تعرفاً للحروف والكلمات والنطق بها صحيحة، وفهم المعاني وتمثّل القيم والاتجاهات الواردة في المادة المقروءة، والتفاعل مع المقروء.
3. أن يكتسب مهارات القراءة الصامتة فهماً واستنتاجاً وتمييزاً وتحليلاً وموازنة ونقداً وتقويماً.
4. أن يكتسب مهارات الاستماع فهماً دقيقاً لما يقال، واستنتاجاً لما يود المتحدث قوله، وما يهدف إليه، وتحليلاً لكلامه، وتلخيصاً لفكره، ونقداً لها.

---

[2] R.L.Lyman. Summary of investigations relation to grammar language and composition supplementory. Education monographs u Chicagos- illinois P.13.

[3] الدكتور محمود السيّد، **في الأداء اللغوي**، وزارة الثقافة السورية، دمشق 2005، ص 90.

5. أن يكتسب مهارات التعبير الوظيفي لقضاء حاجاته، وتنفيذ متطلباته في تفاعله مع المجتمع الذي يحيا فيه من كتابة رسائل، وإعداد محاضر جلسات، وكتابة مذكرات، وإلقاء كلمات في المناسبات... الخ.
6. أن يكتسب مهارات التعبير عن نفسه ميولاً واتجاهات وقيماً وتطلعات ومعاناة..الخ، وعما يقع تحت حسه كلاماً وكتابة في أسلوب واضح ومنظّم.
7. أن يكتب كتابة صحيحة بأسلوب سليم خال من الأخطاء الإملائية والنحوية.
8. أن يعبّر شفاهياً عن فكره وحاجاته واهتماماته وميوله ورغباته تعبيراً سليماً خالياً من الأخطاء.
9. أن يكتسب مهارات التذوق الأدبي، وإدراك الجمال والتناسق في النصوص الأدبية التي يتفاعل معها.
10. أن يكتسب عادة الإقبال على القراءة الحرة بشغف ومحبة حتى يغدو الكتاب صديقه الذي لا يمل مصاحبته.
11. أن يكتسب عادة البحث عن الكلمات والتفتيش عنها في المعاجم والموسوعات بحثاً عن معانيها واستعمالاتها الحرفية والمجازية والاصطلاحية.
12. أن يوظف ما يحصل عليه، ويكتسبه من مفردات وتراكيب وفكر وقيم واتجاهات وصور وأخيلة وأساليب من قراءاته في مواقف التعبير الشفاهي والكتابي.
13. أن يكون قادراً على اختيار المادة الصالحة للقراءة، والتمييز بين الخبرتين المربية وغير المربية، وبين الغث والسمين.

وتجدر الإشارة إلى أن التركيز على الأهداف في المرحلة الثانوية لا يقل أهمية عن الأهداف في مرحلة التعليم الأساسي لأن ثمة شريحة من خريجي هذه المرحلة قد لا يتابعون دراستهم الجامعية، وبناء على ذلك كان لابدَّ من توسيع دائرة اكتساب مهاراتهم اللغوية، وقدرتهم على القراءة الناقدة، وميلهم ومحبتهم للقراءة، وشغفهم بها، وقدرتهم على انتقاء المادة الصالحة للقراءة، وعلى تتبع ما يستمعون إليه فهماً ونقداً وتوظيفاً، وقدرتهم على فهم النصوص الأدبية، وإدراك نواحي الجمال فيها، وعلى تذوقها وتحليلها ونقدها، وقدرتهم على التعبير الوظيفي والإبداعي،

وقدرتهم على البحث، وتقصي المسائل، واستخدام المراجع، والاتصال بالتراث الأدبي في عصوره المختلفة، وكتابة نصوص متكاملة... الخ.

وتتسع دوائر الاكتساب والقدرات في المرحلة الجامعية، ولا بدّ لنا أن نقف على مستوى الأداء اللغوي لدى المتعلمين في مرحلة التعليم ما قبل الجامعي، وفي مرحلة التعليم الجامعي.

ثالثاً: الشكوى من تدني مستوى الأداء لدى المتعلمين في التعليم ما قبل الجامعي والجامعي

لم تكن الشكوى من تدني مستوى الأداء لدى المتعلمين مقتصرة على حاضرنا، وإنما ألفيناها تنطلق منذ ثلاثينيات القرن الماضي – فيما نعلم–، فها هو ذا عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين يقول في كتابه «في الأدب الجاهلي»: «إنك تستطيع أن تمتحن تلاميذ المدارس الثانوية والعالية، وأن تطلب إليهم أن يصفوا لك في لغة عربية واضحة ما يجدون من شعور وإحساس أو عاطفة أو رأي، فلن تظفر منهم بشيء، ولن تظفر من أكثرهم بشيء، فإن وجدت عند بعضهم شيئاً، فليس هو مديناً به للمدرسة، وإنما هو مدين به للصحف والمجلات والأندية السياسية والأدبية»[4].

وفي الخمسينيات يرتفع من مصر أيضاً صوت أمين الخولي شاكياً تدني مستوى الأداء، إذ يقول: «امض قدماً في مراحل التعليم لمن تهيأ لهم السير فيها، فإذا تعليم اللغة القومية غير موفق، وإذا أدبها غير محبب، وإذا النشء يذهب هواه بداً في آداب لغات أخرى إن قرأ، وإذا هو لا يرقى له وجدان إذا ما أعوزته الملهمات الفنية، ومن هذا يكون الركود الأدبي، وتكون أزمة الفن القولي في نواحيه الفنية والعلمية، فللمسرح أزمة، وللصحافة أزمة، وللإذاعة أزمة، ولكذا وكيت أزمات لغوية كلها لا غير، ولهذا وما أشير إليه أشد الأثر في عجز الأمة عن أن تركز

[4] الدكتور طه حسين، **في الأدب الجاهلي**، دار المعارف بمصر، القاهرة 1937، ص 23.

عواطف أفرادها، وتجمع قلوب أبنائها، وتوجه هواهم إلى الأمل الموحد والفعل المشترك»[5].

وتحذو الدكتورة «بنت الشاطئ» حذو الخولي في الإشارة إلى عدم تمكن المتعلمين المتخرجين من كتابة خطاب بسيط، ومعاناتهم عدم القدرة على التعبير السليم، فها هي ذي تقول: «الظاهرة الخطرة لأزمتنا اللغوية هي أن التلميذ كلما سار خطوة في تعلم اللغة العربية ازداد جهلاً بها، ونفوراً منها، وصدوداً عنها. وقد يمضي في الطريق التعليمي إلى آخر الشوط، فيتخرج في الجامعة، وهو لا يستطيع أن يكتب خطاباً بسيطاً بلغة قومه، بل قد يتخصص في دراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها، ويعييه مع ذلك أن يملك هذه اللغة التي هي لسان قومه ومادة تخصصه. كل درس تلقّاه أبناؤنا في لغتهم العربية ينأى بهم عنها، ونرى اللغات الأخرى يتعلمها أبناؤها في مدارسهم العامة، فيكسبون من كل درس معرفة جديدة بأسرار لغتهم»[6].

ولم تقتصر الشكوى على قطر عربي دون آخر، فها هي ذي صيحة الدكتور «هادي نهر» تنطلق في ندوة اللسانيات واللغة العربية التي عقدت في تونس سنة 1978 لتشير إلى أن «لغتنا العربية اليوم كمئذنة يلفّها الغبار، فالناطقون يضيقون بها، ويهربون من قواعدها وتراكيبها، بل إن بعض المتعلمين العرب لا يعرفون تركيب جملة عربية سليمة السكتات والحركات، والأنكى من ذلك أننا نرى بعض طلبة الجامعات في أقسام اللغة العربية وآدابها لا يدركون فصاحة القول، ولسانهم يلحن، ومعارفهم اللغوية على كل المستويات لا تتناسب وشهادتهم الجامعية»[7].

ومن العراق نجد صيحة «الدكتور مهدي المخزومي» تشير إلى أن «هنالك شكوى عامة من تدريس العربية، وبرم الطلبة في مراحل الدراسة المختلفة بالدرس النحوي واستثقالهم ظلّه وظلّ القائمين على تدريسه، وإخفاق الطلبة، حتى المتخرجين منهم في أن يفهموا نصاً أدبياً أو لغوياً،

[5] أمين الخولي، **محاضرات من مشكلات حياتنا اللغوية**، معهد الدراسات العربية، القاهرة 1958، ص 6.

[6] الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»، **لغتنا والحياة**، دار المعارف بمصر، القاهرة 1971، ص 171.

[7] الدكتور هادي نهر، **أشغال ندوة اللسانيات واللغة العربية**، الجامعة التونسية، تونس، ديسمبر 1978، ص 122.

وفي أن يؤلّفوا جملة عربية سليمة»[8].

ويرى «الدكتور حسام الخطيب» في المؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب الذي عقد في الخرطوم أن الإنسان ليس بحاجة إلى روائز تربوية أو إحصاءات لكي يستنتج أن سوية تعليم اللغة العربية في انحدار مستمر»[9].

وهكذا نرى أن الشكوى من تدني مستوى الأداء في اللغة العربية تناولت التعليمين الجامعي وما قبله. ولم تكن الشكوى لتقتصر على الإشارة إلى الأخطاء اللغوية في التعبيرين الشفاهي والكتابي، وإنما كانت تشير إلى الارتباك في تناول ضروب التعبير الوظيفي من إلقاء الكلمات في المناسبات المختلفة، أو إعداد تقارير عن محاضر الجلسات، أو تقديم طلب إلى إحدى الدوائر والمؤسسات... الخ.

يضاف إلى ذلك كله ما يلاحظ من فقر في الرصيد الحفظي للشواهد الشعرية والنثرية لدى حملة الإجازة في اللغة العربية، ومن قصور بعضهم في التفتيش عن كلمة في المعجم، والعزوف عن القراءة الحرة في الأعم الأغلب، والقصور في تمثل ما تشتمل عليه النصوص التي يستمعون إليها من جهة من معان ومفاهيم، أو النصوص التي يقرؤونها أيضاً من جهة أخرى.

رابعاً: الشكوى من تدني مستوى أداء المعلمين في التعليم ما قبل الجامعي، ومستوى أعضاء الهيئة التدريسية في التعليم الجامعي

لم تكن اللغة العربية على ألسنة المعلمين وأقلامهم في التعليم ما قبل الجامعي، وعلى ألسنة أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات والمعاهد لتتسم بالسلامة والصحة وجودة العملية التعليمية التعلمية أحياناً، فلنستمع إلى ما يقوله أمين الخولي في هذا الصدد: «حدّق في المدارس والتعليم فيها، أولئك المدرسون للمواد المختلفة لا يحسنون لغتهم، ولا يحسنون الإبانة، إنهم عوام في

[8] الدكتور مهدي المخزومي، **نحو لغة عربية سليمة**، وزارة الثقافة بالعراق، بغداد 1978، ص 82.

[9] الدكتور حسام الخطيب، اتحاد المعلمين العرب، المؤتمر التاسع، الخرطوم، 1976، ص 558.

شرحهم وتلقينهم، وهم أشباه عوام في تأليفهم وعرضهم، وهم لا يُلقون لتلاميذهم وطلابهم حقائق نيّرة بيّنة، وليس ذلك فحسب، بل هم يبرمون باللغة، ويتأففون ممن يرجو لديهم بياناً بها أو صحة تعبير، فإذا هم يركزون في نفوس التلاميذ كراهية اللغة القومية، إن لم نقل احتقارها»[10].

وتعزز هذه النظرة بنت الشاطئ في كتابها «لغتنا والحياة»، إذ تقول: «ونسمع أساتذة كباراً يحاضرون بالعربية أو يلقون أحاديث في أندية ثقافية، وتقرأ لهم ما يكتبون من بحوث ومقالات، فندرك ما يعانون من إحساس باهظ بمقدرة اللغة التي ترهقهم بالشعور بأنهم لا يملكون أداة التعبير السليم الطلق عن آرائهم وأفكارهم»[11].

وطالما لا حظنا في دروس التربية العملية في مدارسنا في التعليمين الأساسي والثانوي شرح الدروس بالعامية أحياناً وبالهجين اللغوي أحياناً أخرى، وروى لنا عميد كلية التربية في جامعة المنصورة بجمهورية مصر العربية أن مدرسة التربية الإسلامية كانت تشرح لطالباتها في الثانوي موضوع الهجرة النبوية، فاستعملت العامية والهجين اللغوي في شرح درسها.

وكان مدرس رياضيات يشرح الدرس قائلاً بالعامية: «مناخد هالنحتوتة ومنحطها عهالنحتوتة»، وكان يقصد: إذا أخذنا هذه الزاوية ووضعناها على هذه الزاوية.

وما أزال أتذكر تصحيح إحدى المعلمات في مدرسة التطبيقات بدمشق لإجابة أحد المتعلمين في صفها عندما طلبت إليه أن يستخرج الأفعال الماضية والمضارعة من النص، فأشار إلى فعل «أرسل» على أنه فعل ماضٍ، فما كان من المعلمة إلا أن انتفضت قائلة له: «هذا خطأ، هذا فعل مضارع، ألا تجد فيه أحد أحرف أنيت؟».

وإذا انتقلنا إلى التعليم الجامعي، فإننا نلاحظ غياب التدريس باللغة العربية، اللغة الأم، في أغلب الجامعات العربية، إن في جامعات دول الخليج العربي، أو في جامعات دول المغرب العربي. أما في الدول العربية الأخرى فلنستمع إلى ما يقوله الدكتور «عبد الصبور شاهين» في

---

[10] أمين الخولي، **محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية**، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1958، ص 6.

[11] الدكتورة بنت الشاطئ، **لغتنا والحياة**، مرجع سابق، ص 191.

مصر إذ يشير إلى «أن مأساة اللغة العربية بوضوح إذا ما رأينا أن العلوم التي تقوم عليها الحضارة الحديثة كالهندسة والطب والصيدلة والطبيعة والرياضيات كلها تدرّس باللغة الإنجليزية في جامعاتنا، لا لأن اللغة العربية عاجزة عن تمثيل حقائقها ومصطلحاتها تمثيلاً ما، بل لأن هيئات التدريس في هذه المجالات هي العاجزة عن استعمال اللغة العربية أداة لنقل المعارف الحديثة، ومتابعة ما ينشر في الخارج بفكر ولسان عربيين»[12].

وإذا وقفنا على مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه في الجامعات العربية، فإننا نجد هجيناً لغوياً في هذه المناقشات، وإلى هذا أشار الدكتور شاهين قائلاً: «ولقد حضرت أخيراً مناقشة لرسالة في عالم الطفيليات لنيل درجة الدكتوراه كانت نموذجاً للمأساة التي نعيشها نحن في الوطن العربي، ومعبرة عن التمزق العميق في أعلى مستويات البحث العلمي الحضاري، الرسالة محرّرة بالإنجليزية، وقدّمت الطالبة ملخصاً عنها بالإنجليزية أيضاً، وبدأت المناقشة فتحدث المشرف بالعربية، وناقش أحد الأعضاء الطالبة بالإنجليزية، وناقش العضو الآخر الطالبة بالعربية، وكانت الطالبة تردُّ وتناقش بالإنجليزية، وبالعربية في لغة مختلطة كاختلاط الرقع في الثوب المهلهل، وذلك في كلية الطب بإحدى الجامعات المصرية العريقة. ولو أن هذا الموضوع كان مطروحاً بجامعة دمشق لكتب بالعربية، ولنوقش بالعربية دون أدنى صعوبة في الأداء أو في المصطلحات»[13].

ولم يكتف الدكتور شاهين بوصف ما جرى في مناقشة هذه الرسالة لنيل درجة الدكتوراه في كلية الطب بإحدى الجامعات المصرية فقط، وإنما تابع كلامه قائلاً: «لنقلها صراحة ودون مواربة: إن اللغة العربية غير عاجزة، وإنما العاجز بعض بنيها سواء أكان العجز من النوع الثقافي المتمثل في ضعف إلمام الأساتذة باللغة العربية ومصطلحاتها، أم كان من النوع النفسي إذا افترضنا فيهم القدرة على استعمال اللغة، ولكنهم يُحجمون عن خوض التجربة لفقر في

[12] الدكتور عبد الصبور شاهين، **ديوجين مصباح الفكر**، العدد الرابع والثلاثون، السنة العاشرة، 1976، ص 10.
[13] المرجع السابق ص 11.

الإحساس بالكرامة القومية، ذلك الإحساس الذي يدفع الجندي الأمين إلى اقتحام الأهوال، وقد كان خليقاً أن يدفع هؤلاء الأساتذة إلى صنع المحال»[14].

وإذا كان الدكتور شاهين قد افترض القدرة لدى أساتذة الجامعة على استعمال اللغة، فإن الواقع يدل على ضعف القدرة لديهم في الاستعمال الصحيح للغة.

وإذا كان مستهجناً أن يرتكب المعلم– مهما يكن تخصصه – الأخطاء اللغوية في محادثته وتعبيره الشفاهي، وفي أثناء شرح دروسه، فإن الاستهجان يكون أشدَّ وأمرَّ إذا كان الخطأ في كتابته، ويكون الأمر أقسى إذا كان مرتكب الخطأ أستاذاً جامعياً، وردت أخطاؤه في إهداء كتابه الذي كان يدرّس في إحدى كليات الهندسة، وقد جاء هذا الإهداء على النحو الآتي: «وأهدي هذا العمل المتواضع إلى الذين يعرفون معنى العطاء والتضحية والدي ووالدتي ومن تشبه بهم، وإلى الذين يعرفون الحق ويناصروه، وللقراء المعذرة لأنهم كانوا ينتظروا أكثر مما قدّم»[15].

ولقد حضرت ندوة في الكويت عنوانها «محنة اللغة العربية» في النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي برفقة صديقي المرحوم الدكتور صدقي حمدي، الشاعر المتخصص في التاريخ، وشارك فيها كل من رئيس قسم اللغة العربية بجامعة الكويت، ومدرس مادة النحو في الجامعة، والموجه الأول للغة العربية في وزارة التربية، فما كان من رئيس قسم اللغة العربية في الجامعة إلا أن ارتكب أخطاء لغوية في أثناء حديثه، في الوقت الذي تحدّث فيه مدرس مادة النحو بالعامية وباللهجة المصرية، ووحده المفتش الأول للغة العربية في وزارة التربية تحدَّث بالعربية الفصيحة، فقلت لصديقي الدكتور صدقي رحمه الله: «ما كنت أعلم أن اللغة العربية في محنة حتى حضرت هذه الندوة ذات العنوان «محنة اللغة العربية»، وفعلاً لقد كان ممثلو الجامعة في تلك الندوة وسائل إيضاح على محنة اللغة العربية ويا للأسف!

---

[14] المرجع السابق.

[15] الدكتور محمود أحمد السيّد، **تعليم اللغة بين الواقع والطموح**، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1988، ص 208.

والمعلمون في الدول المتقدمة يستخدمون اللغة السليمة في شرح دروسهم مهما تكُ تخصصاتهم، ويحاسبون متعلميهم على ارتكاب الأخطاء اللغوية، فمعلّم الرياضيات في فرنسا عندما يخطئ الطالب خطأ لغوياً في أثناء حل المسألة الرياضية تحمر وجنتاه، ويتطاير الشرر من عينيه، ويقول له: «إن خطأك اللغوي أدهى وأمر من الخطأ في حل المسألة الرياضية»[16]، كما أن المجلس القومي لمدرسي اللغة الإنجليزية في بريطانيا أصدر قراراً يقضي بأن على كل من يود أن يكون مدرساً فعليه أن يكون مدرساً للغة الأم أولاً مهما يكُ تخصصه.

أما في ميدان تعليم لغتنا العربية فلا يلتفت إلى ذلك في الأعم الأغلب، لا بل وصل إهمال ذلك الأمر إلى مدرس الأدب بحجة أن مدرس النحو هو المسؤول عن تصحيح الأخطاء اللغوية، ولا علاقة لمدرس الأدب بذلك على حدّ زعمه.

خامساً: من أسباب تدني مستوى الأداء

ترجع أسباب تدني مستوى الأداء إلى عوامل عدة منها:

1. القصور في إعداد المعلمين في التعليم العام والمدرسين في التعليم العالي:

غني عن البيان أن نجاح العملية التعليمية التعلمية يرجع إلى كفاية المعلمين، فالمعلم الكفي المعدّ إعداداً تخصصياً وتربوياً يسهم أيما إسهام في إكساب متعلميه المهارات اللغوية، وقد قيل: «أعطني معلماً جيّداً أعطك طالباً جيّداً»، وقد أشرنا إلى الشكوى من الأداء المتدني لمعلمي التعليم العام، وأداء مدرسي التعليم العالي، وقد انطلقت هذه الشكوى من أماكن كثيرة على نطاق الساحة العربية.

وها هي ذي الدكتورة «نعيمة عيد» تقول في صدد حديثها عن إعداد المعلم في جمهورية مصر العربية «يجري إعداد المعلم في جمهورية مصر العربية سواء في كليات الآداب أو في كليات التربية على أساس توجيه العناية الأولى لآداب اللغة، وليس اللغة نفسها، إذ يركز على

[16] Pierre Clarac- L' enseignement du français- presse universitaires de France- Paris 1969.

الشعر والنثر والآداب، وتغفل المحادثة والتعبير الشفاهي، ونحن لا ننكر أبداً أهمية هذه الجوانب اللغوية في دراسة المعلم، ولكن في الوقت نفسه، يجب أن نقر بأن الحديث هو أهم عامل في العملية التعليمية، ومع ذلك تتجاهله تلك المعاهد، والنتيجة الحتمية أن يتخرج مدرسون يحفظون قصاصات من تاريخ اللغة وأدبها، ولكنهم لا يحسنون استخدامها»[17].

2. القصور في بناء المناهج الوظيفية:

ثمة أركان أساسية في بناء المناهج الوظيفية، ولا يعدُّ المنهج وظيفياً إلا إذا كان ذا نفعية اجتماعية يؤدي إلى إكساب المتعلم المهارات التي تساعده على تلبية حاجاته، وتنمية ميوله واهتماماته، وتيسر له تفاعله مع أبناء مجتمعه ومواكبة روح عصره. ومن هنا ترى التربية المعاصرة أن بناء المنهج الفعّال يتوقف على توفر أساسيات المادة أولاً أي مفاتيحها، ويعرف ذلك من وجهة نظر الخبراء والمتخصصين، وهذه الأساسيات تعدّ ركناً واحداً في بناء المنهج. أما الأركان المتبقية فهي تعرّف متطلبات المتعلمين لتلبية حاجاتهم وإرضاء ميولهم واهتماماتهم، وتعرّف متطلبات المجتمع ومناشطه وفعالياته تلك التي يتفاعل معها المتعلمون، وتعرف روح العصر الذي يحيا المتعلمون تحت ظلاله.

فإذا أخذ القاسم المشترك لهذه الأركان كافة كان المنهج وظيفياً وفعالاً، أما إذا ركزنا على ركن واحد في منأى عن الأركان الأخرى فيكون المنهج قاصراً.

ومن الملاحظ أن ثمة قصوراً في مناهجنا عندما تقرر على المتعلمين مباحث لا تستخدم في الحياة، فترهق أذهان المتعلمين، ولا تلبي حاجاتهم، فيكرهون المادة، ويضيقون ذرعاً بمحتواها، ما دامت غير نابضة بالحياة.

ومن الملاحظ أن ثمة اهتماماً بالقضايا التاريخية والنظرية على حساب الأمور التطبيقية والعملية، ونجد ذلك في تدريس المادة النحوية إذ يضيع الوقت في التأويلات والتقديرات والمماحكات والاستثناءات على حساب الأمور الجوهرية في ممارسة اللغة، والتركيز على

[17] الدكتورة نعيمة عيد، **حلقة تعليم اللغات الأجنبية في التعليم العام والفني في البلاد العربية**، دمشق، 1974، ص 54.

الأساسيات، والمفاتيح التي تساعد المتعلم على القراءة الصحيحة، والاستعمال السليم في تعبيره الشفاهي والكتابي، والفهم للمقروء، ولما يستمع إليه.

وإذا كان أرباب المنهج الوظيفي يرون أن ثمة نحواً يحتاج إليه المتعلم في مستقبل حياته ولا يعلّم، وأن ثمة نحواً لا يحتاج إليه المتعلم، ولا يستعمله في مستقبل حياته، فهو غير أساسي، ولكنه يتعلمه، فإن نفراً من المتخصصين في المادة النحوية يرون أن جميع المباحث النحوية أساسية، ويجب على المتعلمين أن يعرفوها كافة، وليس ثمة مجال لحذف أي منها، فالنحو في نظرهم غاية وليس وسيلة لتقويم القلم واللسان من الاعوجاج والزلل، وطالما ألفينا النقاش بينهم حادًّا، وتعصب كل واحد منهم لرأيه شديداً، «وهذا الخلاف في كثير من القواعد النحوية كان أظهر العيوب فيها، وأكبر العقبات في تحصيلها بالوصول إلى ضوابط محدودة سليمة يسهل استخدامها، والاستعانة بها في التفاهم الكلامي والكتابي على وجه محكم دقيق لا فوضى فيه ولا اضطراب شأن العلوم القاعدية المضبوطة التي تأخذ بيد صاحبها إلى غاياتها تنهض به في يسر وسهولة ودقة إلى حيث يبغي منها»[18].

وهذا الرأي هو لعلم من أعلام النحو، إنه عباس حسن الذي يتابع كلامه قائلاً: «إنّ النحاة موزّعون، كلٌّ يرى الحق في جانبه، ويحكم على قرينه بالخطأ الصُّراح، والمتعلمون والكاتبون والمتكلمون من بين هؤلاء وهؤلاء، حائرون لا تسعفهم ثقافتهم القائمة بتفهم هذا كله أو بعضه، ولا تتسع صدورهم لقليله، ولا تسمح لهم زحمة الأعمال، ومطالب العيش الملحة باحتمال هذا العبث من أجل ضبط كلمة أو إقامة جملة، وعندهم أن الوقوع في الخطأ على قبحه أهون شأناً، وأيسر ضرراً من بذل الجهد المضني، وإضاعة الوقت في تلك التناقضات التي لم ينته فيها إلى رأي موحد أو مذهب متفق عليه[19].

[18] عباس حسن، **اللغة والنحو بين القديم والحديث**، دار المعارف، القاهرة، 1966، ص 81.

[19] المرجع السابق.

3. تخلّف طرائق التدريس:

وإذا كانت النظرة إلى محتويات المناهج البعيدة عن الحاجات والاهتمامات والميول والحياة النابضة هي المسؤولة عن تدني أداء المتعلمين، فإن ثمة نظرة أخرى توجهت إلى أن طرائق التدريس هي المسؤولة عن ذلك، ولا ترجع العوامل إلى المادة اللغوية، ولا إلى محتوياتها، وتعدد الآراء فيها، إذ إن أي لغة في العالم مهما تبلغ درجة تعقيدها وصعوبتها ممكنة التعلم والإتقان حين توجد الطريقة التربوية الناجعة لتعلمها واكتسابها، ولغتنا العربية غير مخدومة تربوياً، وطرائق تعلمها متخلفة وغير علمية[20].

ولم تتحقق عملية الانتقال من التعليم إلى التعلم في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا على النحو المرغوب فيه، إذ ما يزال العبء ملقًى على كاهل المعلمين في الأعم الأغلب على الرغم من أن العملية التعليمية التعلمية لا تعدُّ ناجحة إلا إذ كان ثمة انتقال من التحفيظ والتسميع إلى التمهير، وإكساب المتعلمين المهارات والكفايات التي تساعدهم على التفاعل مع مجتمعهم وحياتهم، إذ ما يزال التلقين سائداً، وما يزال السؤال:

ماذا نعلِّم؟ يركز عليه أكثر مما يركز على: كيف نعلّم؟

وما تزال عملية التعلم الذاتي، واكتساب مهاراته قاصرة عن تحقيق مرادها.

وهذه الطرائق التقليدية تعوّد الطالب المحاكاة العمياء، والاعتماد على غيره، وتقتل فيه روح الابتكار والإبداع، كما أن المعلومات التي تقدّم في ظلالها تبقى مزعزعة في الذهن نظراً لأن المتعلمين لم يبذلوا جهداً في سبيل الوصول إليها، وإنما كانوا سلبيين، وهذا يؤدي إلى عدم رسوخها في الأذهان بسبب وأد روح الاستنتاج، وحسن التعليل، ودقة الفهم، والجنوح إلى التعميم[21].

أضف إلى ذلك كله القصور الواضح في استخدام وسائل التقانة المعاصرة في العملية

---

[20] الدكتور حسام الخطيب– اتحاد المعلمين العرب– مرجع سابق ص 559.

[21] الدكتور محمود أحمد السيّد– **تعليم اللغة بين الواقع والطموح** – مرجع سابق ص 202.

التعليمية التعلمية عامة، وفي تعليم اللغة العربية خاصة، خلافاً لما يراه المتعلمون في تعلّم اللغات الأجنبية، وإذا كانت الصور ناطقة في كتب تعليم اللغات الأجنبية، فإنها باهتة في ميدان تعليم اللغة العربية.

ومن الملاحظ أننا نركز في طرائق تدريسنا على الجانب المكتوب من اللغة، ونهمل المحادثة والحوار، ومواقف التعبير الشفاهي الوظيفي من إلقاء الكلمات في الأمسيات، وتوجيه التعليمات والإرشادات، وإدارة محاضر الجلسات... الخ.

4. القصور في أساليب تقويم الأداء:

إذا كانت الأهداف التي نبتغيها من تعليم اللغة وتعلمها أن يستخدم المتعلمون اللغة استعمالاً ناجحاً محادثة واستماعاً وقراءة وكتابة، على أن يكون هذا الاستعمال متسماً بالإتقان، ولن يحصل ذلك إلا باكتساب المهارات اللغوية، إذ ما المهارة إلا الأداء المتقن القائم على الفهم، وعلى السرعة، والاقتصاد في الوقت والمجهود، ولن تتكون المهارة لدى المتعلم إلا بالمران والممارسة، والتوجيه، وتصحيح الأخطاء، وتعزيز الاستجابات الصحيحة، وتوفر القدوة الحسنة، إنْ من المعلمين، أو من بعض الأقران المجلّين والمتفوقين.

ومن الثغرات في مجال تعليم اللغة وتعلمها، والحؤول دون تكوّن المهارة لدى المتعلمين:

1. غياب القدوة الحسنة في الأداء اللغوي.
2. الانتقال من المعرفة إلى العادة من غير المرور بالمهارة، إذ إن العادة لا تتكون لدى المتعلم إلا بعد المرور باكتساب المهارة.
3. غياب الأهداف أحياناً، والنأي عن الأهداف السلوكية، ولا يمكن تعرف مدى تحقيق الهدف إلا إذا كان هذا الهدف مصوغاً سلوكياً، يمكن قياسه.
4. اللجوء إلى القراءة الصامتة ما دام المعلمون يجدون راحة في تكليف المتعلمين بها، وغني عن البيان أن القراءة الصامتة لا تكشف عن الأخطاء اللغوية التي يرتكبها المتعلمون، وإنما القراءة الجهرية هي التي تكشف عن الأخطاء، ولابد من التركيز عليها في الحلقة الأولى من مرحلة

التعليم الأساسي، وقد طلبت لجنة التمكين للغة العربية إلى وزارة التربية أن تكون نسبة القراءة الجهرية في الحلقة الأولى من مرحلة التعليم الأساسي 75%، وفي الحلقة الثانية من مرحلة التعليم الأساسي 50%، وفي مرحلة التعليم الثانوي 25%، في حين تكون القراءة الصامتة 25% في الحلقة الأولى، و50% في الحلقة الثانية، و75% في المرحلة الثانوية، وقامت وزارة التربية مشكورة بالتعميم على المدارس لإنفاذ هذه النسب في ضوء طلب لجنة التمكين للغة العربية.

5. التركيز في قياس الأداء على المستوى الأول من مستويات المعرفة ألا وهو الحفظ والتذكر والاسترجاع. أما المستويات العليا من حيث الفهم والربط والاستنتاج والموازنة والتحليل والتركيب والتطبيق والتفاعل والحكم، فنادراً ما تعرض لها أساليب التقويم.

وهذا القصور نجده في جميع المراحل التعليمية، ففي دراسة «تطوير مناهج القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي»[22] نجد أن أعلى نسبة مئوية وردت في أسئلة القواعد النحوية كانت لمصلحة المستوى الأول من مستويات المعرفة: عرّف، عدّد، اذكر... وهذا ما نلاحظه أيضاً في أسئلة الامتحانات الجامعية إذ كانت نسبة هذا المستوى تصل إلى 70%. أما المستويات العليا، فنسبتها متدنية في التعليل، والضبط بالشكل، والتطبيق والإعراب.

ومن الملاحظ أيضاً أن الأسئلة في امتحانات التعليم الجامعي محدودة، وغير شاملة، ويرد أحياناً سؤال خصص له ثمانون درجة من أصل مئة، ونادراً ما يُبصَّر الطالب بأخطائه في الامتحانات، فيعمل على تلافيها، إذ إن معظم الأنظمة الجامعية تتشدد في اطلاع الطالب ورقة امتحانه بعد تصحيحها.

6. التركيز في قياس أداء المتعلم على الجانب المكتوب من اللغة، وإهمال قياس المحادثة، حتى إن بعض الكليات ألغت الامتحان الشفهي، وغني عن البيان أن الاقتصار على الامتحانات

[22] الدكتور محمود أحمد السيّد، **تطوير مناهج القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.

الكتابية يغفل تقويم بعض المهارات اللغوية التي لا تكشف عنها الامتحانات الكتابية وحدها من مثل الضبط بالشكل، والتفاعل مع المقروء، وتلوين القراءة الجهرية بحسب المواقف...الخ.

7. القصور في التركيز على امتحانات الأتمتة في قياس الأداء اللغوي، واستبعاد الأسئلة المقالية، وإذا كانت الاختبارات الموضوعية يمكن تطبيقها في الامتحانات اللغوية في مجال القواعد النحوية والصرفية، ومعاني الكلمات، وتحديد الفِكَر الفرعية والأساسية، ووضع العناوين، واستخراج المغزى، وتعرف ضروب البلاغة، وتسمية البحور الشعرية... الخ، فإن قياس التعبير لا تقيسه الاختبارات الموضوعية المقننة، ولابدّ من اعتماد أسئلة المقال في تعرّف مستويات تعبير المتعلمين.

أما التذوق الأدبي فقد أمكن قياسه موضوعياً مع أن الأمر الشائع أن التذوق لا يمكن قياسه لأن لكل امرئ رؤيته في النصوص الأدبية شعرية كانت أو نثرية، ولكن ثمة دراسة لقياس التذوق الأدبي موضوعياً، ألا وهي دراسة الدكتور المرحوم الصديق الأستاذ الدكتور رشدي طعيمة، وعنوان رسالته «وضع قياس للتذوق الأدبي عند طلاب المرحلة الثانوية (فن الشعر)»[23].

وإذا كانت الاختبارات الموضوعية من الأهمية بمكان لأنها تعطي لكل إنسان حقه، وتحدد مستواه في منأى عن أي تحيّز أو مجاملة، فإن مستوى المتعلم في تعبيره الكتابي أو الشفاهي لا يمكن الوقوف عليه إلا في ضوء أسلوبه ومناقشته وظهور شخصيته... الخ.

ومن هنا فإن أسئلة المقال ضرورية في قياس مستويات الأداء اللغوي.

صُوى على درب النهوض بالأداء اللغوي

ثمة صُوى لابد من أخذها بالحسبان والاهتمام بغية النهوض بالأداء اللغوي، وذلك بعد أن تعرفنا القصور، والتدني في مستوى هذا الأداء، ومن هذه الصُوى:

---

[23] الدكتور رشدي أحمد طعيمة، **وضع قياس للتذوق الأدبي عند طلاب المرحلة الثانوية «فن الشعر»**، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة عين شمس، 1971.

1. إعداد المعلمين جميعاً والمدرسين كافة لتعليم اللغة الأم:

ويؤخذ هذا الإعداد في أثناء الدراسة من جهة، وفي عقد الدورات التدريبية المستمرة في أثناء العمل بحيث نجمع بين التأهيل والتدريب، آخذين بالحسبان أن تعليم اللغة مسؤولية جماعية، فهي مسؤولية المعلمين والمدرسين كافة، إذ إنهم مسؤولون عن تصحيح اعوجاج الألسنة، وزلل الأقلام، وتعويد المتعلمين الوضوح، والدقة في التعبير، وحسن تخيّر الكلمات الدالة، والمعبرة عن الفكرة المراد توضيحها، وتعرّف بساطة الكلمات، والتعبيرات التي يستعملونها ليعبّروا بوساطتها عن فكرهم كتابياً وشفاهياً بكل دقة ونظام ووضوح، لأن من لا يحسن التعبير لا يتمكن من إفهام الآخرين، وقد قال المفكر الفرنسي «بوالو»: «لكي تُفهم جيداً يجب أن تعبّر بوضوح». ومن الواضح أن المرء لا يمكن أن يعبر بوضوح إلا عندما تكون الفكرة واضحة في ذهنه، لأن وضوح الفكرة يؤدي إلى وضوح التعبير عنها، وفهم الآخرين لها[24].

وإذا كانت المهمة الأساسية لمدرسي العلوم تعليم الطالب الدقة والوضوح، كان عليهم أن يكونوا متشددين في تتبع الغموض والخطأ في لغة المتعلمين، إذ من المعروف أن الأخطاء التي يرتكبها الطالب في الإملاء والقواعد، أو في غموض الفكر وتشويشها هي الأخطاء نفسها التي تتكرر على لسانه وقلمه في التاريخ والتربية والكيمياء والفيزياء والرياضيات... الخ.

ومن هنا كان الارتقاء بلغة الطالب هي مسؤولية المدرسين جميعاً، والمعلمين جميعاً، على أن يكونوا متقنين أساسيات لغتهم حتى يتمكنوا من تصحيح اللغة والنهوض بها، ويجيء عقد الدورات التدريبية، والتطوير المهني لأعضاء هيئات التدريس في جامعات الوطن العربي من الأهمية بمكان.

ومن الاتجاهات العالمية في تحديد خصائص المعلم الناجح الفعّال أن يصار إلى التركيز على ثلاث مجموعات في هذا المجال[25]:

---

[24] الدكتور محمود السيّد، **في قضايا اللغة التربوية**، وكالة المطبوعات بالكويت ودار القلم بلبنان، 1978، ص 30.

[25] Jane H Stronge Qualiteés of electives teachers 2007, 2d edition ASCD (1) Publication USA.

المجموعة الأولى: المكتسبات العلمية والتربوية العامة

- التأهيل التربوي الجيد.
- المعرفة بمادة التخصص وإتقانها.
- الخبرة في مجال التعليم.
- الطلاقة اللغوية.

المجموعة الثانية: الصفات الشخصية وعلاقة المعلم بمتعلميه

- الرعاية والاهتمام بالمتعلمين.
- العدالة والاحترام.
- التفاعل الاجتماعي مع المتعلمين.
- الحماسة والدافعية للتعلم.
- الموقف من مهنة التعليم.
- ممارسة التأهيل والمراجعة المستمرة.

المجموعة الثالثة:

- القدرة العالية على التنظيم.
- الاستجابة الحكيمة لسلوك المتعلمين.
- التركيز على التعلم.
- استثمار معظم الوقت في التعلم.
- التخطيط والإعداد للتدريس.
- التنوع في استخدام استراتيجيات التعليم.
- الوعي بالفروق الفردية بين مستويات المتعلمين.
- التفوق في التواصل مع المتعلمين وتوصيل المعلومات إليهم.
- فهم الطبيعة المعقدة للعملية التعليمية التعلمية.

- الإعداد الجيّد للواجبات المنزلية.
- التغذية الراجعة الدقيقة والمفيدة.
- التنويع في أدوات التقويم.

2. اعتماد مفهوم النظام System في تعليم اللغة وتعلمها:

كانت التربية التقليدية تمزّق اللغة في العملية التعليمية التعلمية، فثمة فرع للقواعد، وفرع للقراءة، وحصة للإملاء، وحصة للقراءة، وحصة للتعبير... الخ. أما التربية المعاصرة فتنظر إلى اللغة على أنها نظام، والنظام يشتمل على عدة مكوّنات تتبادل التأثير والتأثر فيما بينها بحيث أن كلاً منها يؤثر في غيره ويتأثر به، وثمة عوامل خارجية تؤثر في هذه المكونات الداخلية.

وفي تعليم اللغة وتعلمها ينبغي لنا أن ننظر نظرة شمولية إلى جميع هذه المكوّنات في إطار من الوحدة والتكامل، وما دامت اللغة تحظى بالاهتمام من علماء متعددي الاختصاصات من بينهم عالم وظائف الأعضاء، وعالم الصوتيات، وعالم الطبيعة، والمهندس الكهربائي المختص بوسائل التواصل، والمعني بتحويل الأمواج الصوتية إلى أمواج كهرطيسية، وعالم النفس، والطبيب المختص بالجهاز العصبي، وعالم الرياضيات، وعالم الاجتماع، والمتخصص بالتربية...

ومن هنا كانت معطيات هذه الاختصاصات كافة تصبُّ في ميدان تعليم اللغة وتعلمها في ضوء مفهوم النظام، فتعليم الأدب لم يعد مقتصراً على الشعر والنثر الغني، وإنما يشمل الأخذ من كل علم بطرف، وليس وقفاً على دواوين الشعر، وكتب النثر الفني، والأدب واسع سعَةَ الحياة، وهو للحياة لا للمجتمع فقط، ولفهمه لا بدَّ من الاستعانة بمناهج البحث العلمي، ونظريات علم الاجتماع، والتحليل النفسي، والانفتاح على ميادين المعرفة ذات الصلة باللغة والأدب ما دامت اللغة هي مركز الدراسات الإنسانية.

وفي إعداد مدرسي الأدب وتأهيلهم ينبغي ألا يقتصر هذا الإعداد، وذلك التأهيل على المواد الأدبية، والإنسانية، وإنما عليه أن يدرس العلوم الطبيعية، والكيمياء، وقوانين السكون، والرياضة... الخ إلى جانب الدراسات العلمية الإنسانية من اجتماعية، ونفسية، وعقيدية... الخ.

وتعليم النحو لم يعد مقتصراً على ضبط أواخر الكلمات، وإنما اتسع ليشمل بِنية الكلمة بما يطلق عليه الصرف، ثم ازداد اتساعاً في مفهومه الحديث ليشمل ضبط أواخر الكلام، والبِنية الداخلية للكلمة، والتراكيب، وبِنى الجمل الفرعية، والأساسية، والأصوات، والأداء في نطق الجملة والمعنى، ذلك لأن تغيير الحركات الإعرابية، والصيغ، والأبنية، والأصوات يؤدي ذلك كله إلى تغيير في المعنى، وهذا ما دعا إلى أن يدرّس علم المعاني في النحو لا في البلاغة، كما دعا إلى ذلك المرحوم الأستاذ الدكتور تمام حسان[26].

وتعليم النحو يجري من خلال النصوص، إذ إن النص تعلّم من خلاله مهارات اللغة الأربع الاستماع، والمحادثة، والحوار، والقراءة، والتعبير، والتذوق الأدبي.

3. تطوير طرائق التدريس

سبقت الإشارة إلى ضرورة الانتقال في العملية التعليمية التعلمية من التعليم إلى التعلم، وإكساب المتعلمين مهارات التعلم الذاتي في منأى عن الطرائق الإلقائية والتلقينية، إذ إن تعويد المتعلمين على البحث عن مصادر التعلم المتعددة في عصر العلوم والتقانة بات من الأهمية بمكان ليكونوا إيجابيين، وفعَّالين لا سلبيين، ومنفعلين، إذ إن الطريقة التنقيبية في العملية التعليمية التعلمية، وتوفير البرامج التفاعلية في ظلال التدفق المعرفي، وتنوع مصادر التعلم، كل ذلك يُعدُّ من مسؤولية المعلمين، ومدرسي التعليم العالي، على أن تركز أدوارهم على تهيئة البيئة، والظروف المناسبة أمام الدارس لكي يقوم بالدور الأساسي في تعليم ذاته، ذلك لأن عصر التدفق المعرفي، والانتشار الثقافي الخاطف يفرض تبني مبدأ التعلم الذاتي الذي هو أساسي للتعلم المستمر مدى الحياة، مواكبة لروح العصر، وانسجاماً مع متطلباته.

ولما كان العصر الذي نحيا تحت ظلاله هو عصر العلوم والتقانة كان على المعلمين في مراحل التعليم العام، وعلى أعضاء الهيئات التدريسية في الجامعات أن يستعملوا وسائل الإيضاح، وأجهزة التقانة الحديثة في تعليم اللغة وتعلمها، لأن لها دوراً كبيراً في النهوض باللغة

[26] الدكتور محمود أحمد السيّد، **طرائق تدريس اللغة العربية**، منشورات جامعة دمشق، كلية التربية، 2017، ص 38.

والارتقاء بها، إذ إنها تقرّب المفاهيم، وتربط بين الرمز والواقع، وتنقل الواقع مصوراً، أو مسموعاً، أو ملموساً، وإذا ربط المدرس بين اللغة والواقع في التعليم كان أقدر على تربية مشاعر طلابه، وصقلها في جو من الصدق والأمانة.

ويحتاج المعلمون والمدرسون في أثناء تعليمهم إلى وسائل تعليمية عدة مساعدة من المراجع والمصادر، والمجلات والصحف، والوثائق، والسجلات، والصور المتحركة، واللوحات المصورة، والتسجيلات الصوتية، والرسوم، والأشكال، والشرائح، والشفافيات، والنماذج، والمجسمات... الخ.

ويحتاجون أيضاً إلى توظيف أجهزة الحاسوب، والشابكة، والبريد الإلكتروني، والمسجلات، والمخابر اللغوية في عملهم التعليمي التعلمي، بحيث تكون البرامج التي يضعونها تفاعلية ترسِّخ مهارات التعلم الذاتي لدى المتعلمين، وتيسير العملية التعليمية التعلمية عن بعد، وها هي ذي الجامعة الافتراضية خير دليل على الإسهام في تحقيق الأهداف المرسومة للتعليم عن بعد بوساطة الأجهزة التقانية الحديثة، وغدا دور المعلم مُيسَّراً، وموجهاً للتعليم، وظهر مصطلح تقانة التعليم، أو تقنيات التعليم بعد ازدهار حركة الأهداف السلوكية، والتعليم المبرمج، واستخدام مفهوم أسلوب النظم للمساعدة على تنظيم العملية التعليمية التعلمية، ولكنه مفهوم شامل، ومتكامل، وتتبادل مكوناته التأثير والتأثر فيما بينها في ضوء المفهوم المنظومي[27].

ومع ظهور التعليم المبرمج، والتعلم الذاتي تعددت الوسائل التقانية من حواسيب، ومختبرات لغوية، وشابكة (انترنت)، وناسوخ، ورزم تعليمية، وفيديو تفاعلي، ونشر الكتروني... الخ.

ويتبوأ التعليم الإلكتروني مكانة كبيرة في الحياة المعاصرة، لأنه يستخدم تقنيات المعلومات، والشابكة، والحاسوب في تدعيم العملية التعليمية التعلمية، وبعد أن كان ينظر إلى التقانة على أنها مجموعة من الوسائل، والأدوات التي يستعان بها في العملية التعليمية التعلمية، أضحى ينظر إليها على أنها قلب هذه العملية، وأنها تعمل على تطوير هذه العملية على أساس من

[27] الدكتور محمود أحمد السيّد، **قضايا راهنة للغة العربية**، الهيئة العامة السورية للكتاب بوزارة الثقافة، دمشق، 2016 ص 153.

التصميم المدروس الذي تخضع له كل خطوة من الخطوات المؤدية إلى تحقيق الأهداف المرجوة، بحيث تكون هذه الوسائل والطرائق المصاحبة لها مُماشيةً للمتعلمين، وعاملة على الوصول إلى الأهداف بأيسر وقت، وأقل جهد.

وغني عن البيان أن الوسائل تجذب انتباه المتعلمين، وتجعلهم ينفعلون بالخبرة، ويتفاعلون معها، وهي تخاطب الحواس مما يزيد قدرة المتعلمين على التفكير، وحل المشكلات، والربط بين الكلمات، والأشياء، والمواقف الجديدة، وهذا يكوّن معيناً ثَرًّا للتعبير اللغوي فيما بعد، كما أنها تتغلب على الهدر في الإنفاق، والوقت، والجهد المبذول في الطرائق التقليدية[28].

وتجدر الإشارة إلى أن التعليم الإلكتروني لا يلغي دور المعلم، بل على العكس يعزز دوره، ويجعله أَشَدَّ فعالية، واقتداراً في المواقف التعليمية التعلمية «إذ إنه يسهم في تنمية التفكير، ويساعد المتعلمين على الاستقلال، والاعتماد على النفس، ويوفر التعليم في أي وقت، وأي مكان وفقاً لمقدرة المتعلم على التحصيل، ويساعد المتعلم على الإدلاء برأيه في أي وقت، ودون حرج، ويزيد من فعاليته وحواره ومناقشته»[29].

4. تنويع أساليب التقويم:

لما كان التقويم ركناً أساسياً في المنهج التربوي، وكان تطوير المناهج وتحديثها يقتضي تطوير جميع أركانه، تطلَّب ذلك تنويع أساليب التقويم، وعودة الامتحانات الشفهية إلى تقويم الأداء، وعدم الاقتصار في التقويم على المستوى الأول من مستويات المعرفة، بل أن يشمل التقويم أيضاً الفهم، والشرح، والتحليل، والتعليل، والاستنتاج، والتطبيق، والموازنة، والنقد، وإبداء وجهات النظر... الخ.

ويقتضي تطوير أنواع التقويم عودة الأسئلة المقالية إلى امتحانات اللغة العربية، وعدم الاقتصار على الأسئلة المؤتمتة.

---

[28] المرجع السابق ص 161.

[29] المرجع السابق ص 190.

تلك هي بعض صوى على دروب النهوض بالواقع اللغوي والارتقاء به، وآمل أن ترى هذه الصوى التنفيذ الجاد، وألا تكون على غرار أخوات لها سبقت على النحو الذي أشار إليه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين عندما قال:

«ما أكثر ما نتحدث عن هذه اللغة العربية الفصحى، وما أكثر ما نعلن اعتزازنا بها، واعتدادنا بتراثها، وحرصنا عليها، وعلى تراثها العظيم، ويقيننا أنها أساس وحدتنا، وهي العروة التي تجمع بين العرب على اختلاف أوطانهم وتباعدها، والعروة التي لا انفصام لها، نتحدث عن هذا فنكثر الحديث، ونقول في هذا فنطيل القول، ونملأ به أفواهنا، وتطمئن إليه قلوبنا، وتثور له نفوسنا، وإذا نحن نفيض له أملاً وإيماناً وثقة ويقيناً، فإذا فرغنا من هذا كله، وثبنا إلى نفوسنا، أو ثابَتْ إلينا نفوسنا، وهدأت عنا الحماسة، اكتفينا بما قلنا، وبما سمعنا، وبما صفقنا، وبما صحنا، ثم لم نكد نصنع شيئاً»[30].

رحمك الله يا عميدنا الكبير، فلقد صورت حالنا في ندواتنا، ومؤتمراتنا، وكان تصويرك بليغاً، ورحم الله أستاذنا المرحوم الفقيه التربوي الأستاذ الدكتور حامد عمّار الذي طالما ردّد: «ندوات ومؤتمرات، ولكنها قليلة البركات». آمل أن يكون في مؤتمرنا كل الخير، وأن تشق توصياتنا ومقترحاتنا طريقها إلى الإنفاذ، والله وليُّ التوفيق.

[30] الدكتور طه حسين، **يَسِّروا النحو والكتابة**، مجلة الآداب، السنة 4، العدد 11.

مصادر البحث ومراجعه

1. أمين الخولي، **محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية**، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1958.
2. الدكتور حسام الخطيب، اتحاد المعلمين العرب في مؤتمره التاسع بالخرطوم، 1976.
3. الدكتور رشدي أحمد طعيمة، **وضع قياس للتذوق الأدبي عند طلاب المرحلة الثانوية**، رسالة ماجستير، كلية التربية بجامعة عين شمس، 1971.
4. الدكتور طه حسين، **في الأدب الجاهلي**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1938.
5. الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»، **لغتنا والحياة**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1971.
6. الدكتور عباس حسن، **اللغة والنحو بين القديم والحديث**، دار المعارف، القاهرة، 1976.
7. الدكتور عبد الصبور شاهين، **ديوجين مصباح الفكر**، العدد الرابع والثلاثون، السنة العاشرة، 1976.
8. الدكتور محمود أحمد السيّد، **تطوير مناهج القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1987.
9. الدكتور محمود أحمد السيّد، **تعليم اللغة بين الواقع والطموح**، دار طلاس، دمشق 1988.
10. الدكتور محمود أحمد السيّد، **طرائق تدريس اللغة العربية 2**، منشورات جامعة دمشق 2017.
11. الدكتور محمود السيد، **في الأداء اللغوي**، وزارة الثقافة السورية دمشق 2005.
12. الدكتور محمود أحمد السيّد، **في قضايا اللغة التربوية**، وكالة المطبوعات بالكويت ودار القلم بلبنان، 1978.
13. الدكتور محمود أحمد السيّد، **قضايا راهنة للغة العربية**، الهيئة العامة السورية للكتاب بوزارة الثقافة، دمشق 2016.
14. الدكتور مهدي المخزومي، **نحو لغة عربية سليمة**، وزارة الثقافة، العراق، بغداد، 1978.
15. الدكتورة نعيمة عيد، **حلقة تعليم اللغات الأجنبية في التعليم العام والفني في البلاد العربية**، دمشق، 1974.
16. الدكتور هادي نهر، **أشغال ندوة اللسانيات واللغة العربية، الجامعة التونسية**، تونس 1978.
17. Jane H Stronge Qualitées of electives teachers 2007, 2d edition ASCD (1) Publication USA.
18. Pierre Clarac- L' enseignement du français- presse universitaires de France- Paris 1969.
19. R.L.Lyman. Summary of investigations relation to grammar language and composition supplementory. Education monographs u Chicagos- illinois P.13.

بحوث في الترجمة

من طرائق التَّرجَمَة[1]

د. سام عمار
كلية التربية بجامعة دمشق

ملخص

بين أشهر طرائق الترجمة يمكننا أن نصنّف طريقتين واسعتي الانتشار، هما: الترجمة التي تعتمد **التّكافُؤات**، وهي، لذلك، ترجمة **تفسيرية**؛ والترجمة التي تعتمد **التّطابُقات**، وهي، لذلك، **لغوية**. وبعد توضيح الفرق بين هاتين الطريقتين ستعالج هذه المقالة الطريقةَ الأولى. إن الفَرْقَ الجوهري بين التكافُؤات والتطابُقات هو أن التكافُؤات تكون بين النصوص، في حين أن التطابُقات تكون بين العناصر اللغوية: الكلمات والتراكيب، سواءٌ أكانت جامدة أم صِيَغاً نحوية.

وقد سعت الدراساتُ التي أجريت في المدرسة العليا للمترجمين الفوريين والمترجمين (ESIT) جميعُها إلى إثبات أن للترجمة التي تعتمد التكافُؤات صِدْقيّةً عامة (validité générale) أيّاً كانت اللغات أو أيّاً كانت أنماط النصوص (أدبيةً أو تِقْنِيَّةً، ونصوصَ خيال علميّ أو نصوصاً واقعية).

وللتكافؤ وجهان: معرفيٌّ ينجم عن التقاء دلالات النص والمكمّلات الفكرية التي يضيفها

---

[1] المقال مستقى من كتاب: Lederer, Marianne (2015). La traduction aujourd'hui, le model interprétatif, Cahiers 9, Champollion, Paris, Lettres modernes minard.

والمؤلفة: ماريان لوديري: عملت مديرة للمدرسة العليا للمترجمين الفوريين والمترجمين (ESIT) بين 1990 و1999، ثم مديرة لمركز البحث في علم الترجمة بجامعة السوربون الثالثة. ثم سميت أستاذة خبيرة في جامعة السوربون الجديدة (باريس الثالثة) عام 2002، وهو عام إحالتها على المعاش. رأست قبل ذلك قسم اللغات الأجنبية التطبيقية (LEA) في جامعة باريس السابعة.

المترجِم، وانفعاليٌّ يتطلب من المترجم الذي يريد أن يحقق قدراً كبيراً من النجاح أن يرى في الخيال الحقيقةَ اللغوية الإضافية، ويحسّ فيها بالانفعال.

فالتكافُؤ هو معاً نتيجة منهجٍ عقلانيٍّ (يَجهَد في أن يرى ويُحسّ)، وحَدْسٍ (يعبِّر عمّا رُئِيَ وما أُحِسَّ به). وفي التكافؤ يسعى المترجِمُ المكوَّن جيداً والذي يمتلك قدْراً جيداً من المعارف إلى تَتَبُّع ولادة المعنى والتعبير عنه مجدداً، ويبني عند ذاك نظرية تفسيرية، معتمداً الترجمةَ بالتكافؤات. بقي أن نبين في هذا الملخص أن الترجمة التي تعتمد التكافؤات هي ترجمة إجمالية تعتمد كثيراً على المجاز المرسل الذي يحدِّد القسم الظاهر من المعنى، ويحتاج إلى تتمات مُضمَرَة (أي المجاز المرسل ذي العلاقة الكلية، وهو ما يُطلَق فيه الجزء ويرَاد الكلّ).

1. مقدمة

بين أشهر طرائق الترجمة يمكننا أن نصنّف طريقتين واسعتي الانتشار، هما: الترجمة التي تعتمد **التّكافُؤات**، والترجمة التي تعتمد **التّطابُقات**. وبعد توضيح كلٍّ من هاتين الطريقتين ستُقصَرُ هذه المقالة على الطريقة الأولى.[1]

والترجمة نشاطٌ، ولا يمكننا التنظير بشكل صحيح حول نشاط ما إن لم يكن ناجحاً. إن رياضة الدراجات والسباحة نشاطان أيضاً، ولن يكون بإمكاننا التوصّل إلى أيّ استنتاج نظري صحيح عن رياضة الدراجات من دراسة الحركات المضطربة لشخص يسقط عن الدراجة، ولا عن ظاهرة السّباحة بملاحظة شخص لا يتمكّن من أن يحتفظ برأسه مرفوعاً خارج الماء؛ فإن لم يكن الحدّ الفاصل بين الإخفاق وعتبة النجاح في هذين النشاطين محدَّداً بوضوح فلن يكون محدَّداً في حالة الترجمة. يجب إذن أن نرتكز على ترجمات ناجحة لكي نشرح عملية الترجمة، وإلا ضلَّت الترجمة طريقها.

[1] هذا الكلام للمترجِم، وما عداه (باستثناء ترجمة النصوص المقارَنَة: الإنكليزية والفرنسية والألمانية إلى العربية) هو للكاتبة: ماريان لوديري.

سأقتصر[1] الآن على تعريف الترجمة الناجحة تعريفاً واسعاً جدّاً، مثبِّتَةً العتبة كالآتي: تكون الترجمة ناجحة إن لم يكن فيها خطأ لغوي ولا خطأ منهجي. أما الأخطاء اللغوية فمعروفة، وأما الأخطاء المنهجية فتَنْتُج أساساً عن الاستعمال المبالغ فيه **للتطابُقات**.

وهناك درجات لا تُحصى من الأداء بين بطل أولمبيٍّ في السباحة وسَبّاح يعرف من السباحة ما يكفي لمنعه من الغرق، وبين دَرّاج يخوض بطولة فرنسا لرياضة الدراجات وساعي البريد الذي يقوم بجولة. كذلك نجد بين الترجمات الناجحة عدداً لا يُحصَى من الدَّرَجات، بدءاً من الترجمات الرفيعة لبعض النصوص الراقية وانتهاءً بالترجمات الصالحة؛ لأنها خالية من الأخطاء. ولكي نُنَظِّر للترجمة كان ينبغي أن نثبّت عَتَبَةَ النّجاح في غياب الأخطاء، لأنها (العتبة) لا تبدو في الترجمة طبيعية كما تبدو في غيرها من الأنشطة. وتحت هذه العَتَبَة لن نكون مع ترجمة بالمعنى الذي نقصِده، وفيما بعد ذلك يكون تقويم الترجمة[2] (الذي كُتِبَ فيه وسيُكتَب الكثير).

2. التكافؤات والتطابقات

الترجمة التفسيرية هي ترجمة تعتمد **التكافؤات**، والترجمة اللغوية هي ترجمة تعتمد **التطابقات**. والأمثلة التي نقدمها هنا لتوضيح الفَرْق بين هذين النوعين من الترجمة مأخوذة من **الفصل الرابعَ عشَرَ من رواية: شارع السّردين المعلَّب**[3] **(Cannery Row) لـ جون ستاينبك (John Steinbck) وترجمته الفرنسية التي أنجزتْها: ماجدولين باز (Magdeleine Paz)**. ولكي نحقق بعض التوازن بين أنواع النصوص واللغات، اعتمدنا نصّاً تِقْنِيّاً ألمانيّاً مع ترجمته لِيُسْهِما أيضاً في هذا التوضيح.

---

[1] الكلام بصيغة المتكلِّم في النص هو دائماً للكاتبة.

[2] إن مشكلة تقويم نوعية الترجمات أسالَتْ كثيراً من الحِبْر، وستُسِيلُ الكثيرَ منه كذلك؛ انظر في هذا الصدد على وجه الخصوص:

Larose, R. (1989). *Théories contemporaines de la traduction, Presses de l'Université du Québec.*

[3] الأجزاء من الكتب المذكورة هنا مقتطعة من ترجمات منشورة. وقد اخترتُها، لأنني لم أجد فيها أيَّ عيب.

1.2 ما المقصود بالتكافؤ؟

لِنَرَ: كيف تُرجِمَت بداية الفصل الرابعَ عشَرَ من الرواية[1]؟

النص الأصلي باللغة الإنكليزية	الترجمة إلى اللغة الفرنسية
Early morning is a time of Magic in Cannery Row. In the gray time after the light has come and before the sun has risen, the Row seems to hang suspended out of time in a silvery light.	Le lever du jour est un moment magique, dans la Rue de la Sardine. Quand le soleil n'a pas encore percé l'horizon gris, la Rue *paraît* suspendue hors du temps, enveloppé d'une lueur d'argent.

ترجمة النص إلى العربية[2]: "الصباح الباكر هو لحظةٌ ساحرةٌ في شارع السّردين المعلَّب. وفي اللحظة التي لا تكون الشمسُ فيها قد اخترقت الأفقَ الرماديَّ بعدُ، يبدو الشارعُ مُعَلَّقاً خارج الزمن، يلفُّه وميضٌ فِضِّيٌّ".

إن المعنى الفرنسي هو عينُه المعنى الإنكليزي، ولكننا نلاحظ أنّ الكلمات الإنكليزية والفرنسية **لا تتطابق إلا نادراً**. فالمدلولات الإنكليزية أسهمت في إظهار معنى النص، ولكنها جميعاً لم تُتَرجَمْ كما هي، فالمعنى قد عُبِّرَ عنه تَبَعاً لضوابط اللغة الفرنسية وتفضيلات المترجِم الأسلوبية. سنقول: إنّ النص وترجمته باللغة الفرنسية **هما متكافِئَان**.

2.2 ما المقصود بالتطابُق؟

سنجد في المقطع نفسه كلماتٍ وصِيَغاً نحوية تتطابق في اللغتين، وقد ميزْتُهما بلونٍ غامق:

النص الأصلي باللغة الإنكليزية	الترجمة إلى اللغة الفرنسية
Early morning is a time of **Magic** in **Cannery Row**. In the gray time after the light has come and before the **sun** has risen, the Row seems to hang **suspended out of time** in a	Le lever du jour est un moment **magique**, dans la **Rue de la Sardine**. Quand le **soleil** n'a pas encore percé l'horizon gris, la Rue ***paraît*** **suspendue hors du temps,** enveloppé d'une

[1] Steinbeeck, J. (1945): *Cannery Row*, Bantam Books, New York. Traduction française de Paz, M. (1948): *Rue de le Sardine*, Collection "Folio". Gallimard.

[2] ترجمات النصوص الأجنبية (الإنكليزية والفرنسية والألمانية) المقارَنة كلِّها إلى العربية، في هذا المقال، هي للمترجِم

silvery light.	lueur d'argent.

نلاحظ هنا الفَرْقَ الجوهري بين التكافُؤات والتطابُقات: فالتكافُؤات تكون بين النصوص، والتطابُقات تكون بين العناصر اللغوية: الكلمات والتراكيب، سواءٌ أكانت جامدة أم صِيَغاً نحوية. والتكافؤ هو تطابق فريد؛ إنه أسلوب الترجمة العامة التي لا تستبعِد مع ذلك التطابقات التي يبرّرها وجودُ عناصر تتطابق في مختلف الظروف: استحضار من خارج السياق أو استعمال في نصّ.

ولكي تكون الترجمة ناجحة، يجب أن تهدف إلى وضع تكافؤ إجماليّ بين النصّ الأصليّ والنصّ المتَرجَم، لأن التطابقات تستجيب لحاجات دقيقة، في حين أنّ تطبيقها النظامي قد لا يتيح الحصول على هذا التكافؤ. والأسباب التي من أجلها لا تُنتِج المطابقة النظامية لعناصر اللغتين ترجماتٍ جيدة، ليست سهلة التحديد، ولكنّ النوعية السيّئة لهذا النوع من الترجمة واضح.

وفي الترجمة المتزامنة (الفورية) يبدو الوضوح القليل لهذا النوع من الترجمة بجلاء أكثر: فالمستمع لا يحس بالترجمة ثقيلة وغير مشوقة فحسب، بل يجدها كذلك غامضة، لأن استمرارية التدفّق الشفويّ وسرعته لا تتيح فرصة للتأمل، ولا عودة إلى الوراء. والترجمة بأسلوب التطابقات هي في هذه الحالة غير مجدية إطلاقاً. وفي الترجمة كتابيّاً يكون عدم الوضوح أقلَّ جلاءً، ولكن الترجمة بأسلوب التطابقات المعمَّمَة ثقيلة، وقراءتها غير مُشَوِّقة.

والمطابقة بين لغتين هي المستوى الأول من مستويات الترجمة، فعندما يتعلق الأمر بكلمات أو جُمَل منعزلة، يُمْكِن أن تكون الترجمة بهذا الأسلوب مفيدة في تعليم اللغات؛ وحينما يكون المقصود مصطلحات أحادية المرجع، تكون (الترجمة) تقريباً ضرورية دائماً؛ أما عندما يتعلق الأمر بنصوص كاملة فإنها تكون غير ذات جدوى. ومع قوة هذه الملاحظات، يبحث المترجمون كتابيّاً والمترجمون الفوريون (شفويّاً) عن نجاح الترجمة في التكافؤ بين النصوص.

3.2 الترجمة التي تعتمد التكافُؤات

سعت الدراساتُ التي أجريت في المدرسة العليا للمترجمين الفوريين والمترجمين (ESIT)

جميعُها إلى إثبات أن للترجمة التي تعتمد التكافُؤات صِدْقيّةً عامة (validité générale) أيّاً كانت اللغات أو أيّاً كانت أنماط النصوص، أدبية أو تِقْنِيَّة، ونصوصَ خيال علميّ أو نصوصاً واقعية. ولكي نوضّح هذا المبدأ الأساسيّ للنظرية التفسيريّة في الترجمة، نتفحّص من جهة، مقطعاً من تقرير ألمانيّ يُحيل إلى وقائع حقيقية مترجَماً إلى الفرنسية، ونتفحّص من جهة أخرى مثالاً من الخيال العلمي مترجَماً عن الإنكليزية (مقتطعاً هو أيضاً من رواية **شارع السّردين المعلَّب**).

1.3.2 التكافُؤ المعرفيّ

ينجم التكافُؤ المعرفيّ عن التقاء دلالات النص والمكمّلات الفكرية التي يضيفها المترجِم. وسنراها في مقطع مقتطع من التقرير العام للاتحاد العالمي لمنتجي الطاقة الكهربائية وموزعيها، المقدم إلى مؤتمره في بروكسل.

المقطع مترجَماً إلى الفرنسية	المقطع الأصلي بلغته الألمانية
Il s'agira pour l'essentiel de répondre à deux **défis**: celui de la **pénurie croissante** d'énérgie – d'où la nécessité d'économiser l'énérgie primaire - et celui du risque grandissant de dépendance politique et économique du pétrole importé - d'où la nécessité de remplacer le pétrole par d'autres **sources d'énérgie.** Ces deux **impératifs** ne sont pas forcément compatibles; il peut y avoir conflit entre la **volonté** d'économie d'énérgie primaire et la **volonté** de réduire la dépendance politique du pétrole.	Es muss zwei Herausfor-derungen begegnet werden: der allgemeine Energie verknappung – das bedeutet, es muss Primärenergie eingespart werden – und der drohenden politischen und wirtschaftlichen Abhängigkeit vom importierten Mineralöl durch andere **Energien** ersetzt warden. Hierbei kann der Zielkonflikt zwischen der **Forderung** nach Einspparung von Primärenergie und der **Forderung** zur reduzierung der Abhängigkeit von der politisch unsicheren Mineralöl entstehen.

ترجمة النص إلى العربية:

"يتعلق الأمر أساساً بالاستجابة لتحدّيين هما: النقصُ المتزايد في الطاقة – ومن هنا تنشأ الحاجة إلى توفير الطاقة الأولية – والخطرُ المتزايد للاعتماد السياسي والاقتصادي على النفط المستورد – ومن هنا تبدو ضرورة استبدال النفط بمصادرَ أخرى للطاقة. وهذان المطلبان لا

يتوافقان بالضرورة؛ فقد يكون هناك تعارضٌ بين الرغبة في توفير الطاقة الأولية والرغبة في تقليل الاعتماد السياسي على النفط".

إن اللغتين الألمانية والفرنسية كلتيهما تعبّران هنا عن المعنى نفسه بصيغ مختلفة: إننا نجد في النص الألماني عبارة "allgemeine verknappung"، التي يقابلها في الترجمة الفرنسية "croissante pénurie: النقص المتزايد"، وليس العبارة التي تطابقها "raréfaction générale". ونجد في مقابل العبارة الألمانية " drohenden (politischen und wirtschaftlichen) Abhängigkeit" العبارة الفرنسية " risque grandissant de: الخطر المتزايد لـ"، التي تأخذ الحالة بالحسبان (كُتِبَ النصُ في وقت سبقته عدة أزْمات بترولية)، وليس العبارة المطابقة "dépendance (....) menaçante". وفي مقابل صيغة الجمع بالألمانية "energien" نجد بالفرنسية عبارة "sources d'énergie: مصادر للطاقة"، وليس الكلمة المطابقة "énérgies". والكهرباء طاقة ثانوية، تُنتَج انطلاقاً من طاقات أولية، كالهيدروليك والكربون والنفط،.. إلخ. ولذلك استُبْدِل بالنفط مصادرُ أخرى للطاقة، والفرنسيّ يتكلّم هنا عن مصادر أخرى للطاقة، لأن النفط لا يصير طاقة إلا عندما يُستَهلَكُ. والمترجم الفرنسي يؤوّل "andere Energien".

يقول الفرنسيون: إن لغتهم قد تكون أكثر منطقيةً، ويقول الألمان: إن لغتهم أكثر قدرةً على التعبير، وأكثر مرونةً. وأيّاً كان الأمر فإن معنى النص الألمانيّ واضح، وإن المترجِم الفرنسي يقدم مكافئاً له واضحاً لقُرّاء فرنسيين.

وكلما قلّ تقارب اللغتين قلت ملاءمة التكافؤات المعجمية والنحوية لترجمة النصوص. ومن جانب آخر، حينما يكون المعنى الذي يحدده النصُّ واقعيّاً لا خياليّاً، يستطيع المترجِم أن يستند إلى معرفته للواقع في تعبيره.

2.3.2 التكافُؤ الانفعاليّ

يصف ستاينبك مشهداً يحصل في فجر نهار صيفي في كاليفورنيا في **شارع السردين المعلَّب** الذي يحاذي المحيط. فبعد أن أظهر الشارعَ مُعَلَّقاً خارج الزمن، في سلام مطلق، تنزلق فيه

القطط بخطوات صامتة عبر الحواجز، أظهر جنديين وفتاتين يتسكّعون بكَسَل. لقد أمضوا الليل في حانة، وهم منهكون، سعداء. يصف ستاينبك هذا المشهد في الفقرة الثالثة من الفصل الرابعَ عشَرَ:

النص مترجَماً إلى الفرنسية	النص الأصلي باللغة الإنكليزية
Les soldats avaient déboutonné leur tunique et passé leur ceinture dans leurs épaules. Ils avaient défait leur cravate afin de pouvoir ouvrir leur col, et ils avaient coiffé les chapeaux des filles: l'un avait le chef adorné d'une paille jaune surmontée d'un bouquet de pâquerettes, l'autre portait un bonichon de tricot blanc décoré d'un médaillon de cellophane bleue. Soldats et filles se tenaient par la main et balançaient leurs mains en mesure. Le soldat qui marchait sur le bord du trottoir portait un cabas de papier brun, rempli de bière en Boîtes, et tous quatre avançaient doucement dans la lumière aux tons nacrés; ils venaient de passer une nuit du tonnerre de Dieu, et la vie était belle. Et ils souriaient comme sourient les enfants au souvenir d'une fête. Chaque couple se regardait, souriait, et balançait ses mains de plus belle.	The soldiers' tunics were unbuttoned and their belts were threaded through their epaulets. The ties were pulled down a little so the shirt collars could be unbuttoned. And the soldiers wore the girls' hats, one a tiny yellow straw boater with a bunch of daisies on the crown, the other a white knitted half-hat to which medallions of blue cellophane adhered. They walked holding handed, swinging their hands rhythmically. The soldiers on the outside had a large brown paper bag filled with cold canned beer. They strolled softly in the pearly light. They had had a hell of a time and they felt good. They smiled delicately like weary children remembering a party. They looked at one another and smiled and they swung their hands.

ترجمة النص إلى العربية:

"فكَّ الجنديّان أزرارَ سترتَيْهما ووضعا حزامَيْهما على كتفَيْهما، وفكّا ربطتَيْ عُنُقَيْهما ليتمكّنا من فتح قبّتَيْ قميصَيْهما، ورتّبا قُبّعتي الفتاتين: كانت إحدى القبعتين في شكل قارب من القشّ الأصفر تعلوه باقةٌ من زهر الأُقحوان، وكانت الأخرى قَلَنْسُوةً من التريكو الأبيض مزيّنةً بمدالية من السّيلُوفان الأزرق. أمسك الجنديّان بيدي الفتاتين وأرجحوا أيدَيهم. كان الجندي الذي كان يسير على حافة الرصيف يحمل كيسَ تسوُّق ورقيّاً بُنّيّاً مملوءاً بالبيرة المعلّبة، وكان الأربعة يتقدمون بلطف في ضوءٍ لُؤلُئيٍّ. لقد أمضوا للتّو ليلة حمراء، وكانت الحياة جميلة. لقد ابتسموا كما يبتسم الأطفال في ذكرى عيد. كان كل زوج منهما يتبادل النظرات، والابتسامات، ويؤرجح

أبديه بسعادة غامرة".

قد يظنّ القارئ وهو يحلّل هذه الترجمة أنه كان بالإمكان أن يُعبَّر عن المعنى بطريقة أخرى؛ فقد يأخذ على المترجِم مثلاً أنه أغفل شيئاً: هو لم يقل: إن البيرة كانت باردة... إنّ الترجمة تقدّم لنا مع ذلك مثالاً توضيحيّاً رائعاً عن مفهوم التكافؤ.

فكيف يحقق المترجِم هذا التكافُؤ؟ لقد رأينا أن كل نص يستدعي تفسيراً لدى القارئ المهتمّ. والمترجِمُ هو أكثر من قارئ مهتمٍّ، إنه **القارئ الممتاز** للنص الذي يترجمه. ولن يكون باستطاعة المترجِم أن يترجم بقدر كبير من النجاح مقطعَ ستاينبك هذا إن لم يكن يرى في الخيال الحقيقةَ اللغوية الإضافية، وإن لم يكن يحسّ فيها بالانفعال. إنه يقدم المشهد لنفسه، ويحس بفتور العاشقين بعد ليلة حمراءَ، ويسمو باللغة ليدرك عَبْرَها ما يريدُ أن يقوله الكاتبُ. وهذه الرؤية، وهذا الإحساس اللذين تثيرُهما دلالاتُ النص الإنكليزي وأسلوبُه غيرُ المُتَضَمّنَيْن فيهما (الدلالات والأسلوب) يُلهِمانِ المترجِمَ؛ إنه يعيش المعرفيَّ والانفعاليَّ بوصفهما كلّاً غيرَ قابل للتجزئة، ومع موهبة ماجدولين باز (المترجِمة) يعبِّر عنهما من جديد بالنجاح ذاته.

فالتكافُؤ هو معاً نتيجة منهجٍ عقلانيٍّ (يَجهَد في أن يرى ويُحسّ) وحَدْسٍ (يعبِّر عمّا **رُئِيَ** وما أُحِسَّ به). إنه تحوُّل الفِكْر الفرديّ للكاتب بواسطة لغة أخرى، وقد عبَّر عنه المترجِمُ من جديد بكل المهارة التي يمتلكها.

إن كل ترجمة تحتوي بالتأكيد تطابقاتٍ بين مصطلحات وكلمات، ولكنها لا تصبح نصّاً إلا بفضل إبداع تكافُؤات. وهنا يكمن العنصر الجوهريّ في نظريّتنا.

وهذا التحليل يُجْمِل بطريقة مدهشة ردة فعل المترجِم تجاه نصٍّ ما. ولكي نذهب بعيداً في التحليل يتحتَّم علينا أن نجيب عن سؤال آخر هو: ما وحدة التكافُؤ؟ فيما يخص التطابقات تكون الوحدة في الواقع سهلة الإيجاد: فالكلمات، أو التراكيب، أو العبارات الجامدة، أو المصطلحات يمكن أن توضع في حالة تطابق. أما تكافُؤات النَّصّ فيجب أن نبحث بشأنها عن الوحدات اللغوية الأكثر صِغَراً فيه التي تنطلق منها الترجمة بأسلوب التكافُؤ.

3.3.2 الطابَع الإجماليّ للتكافُؤ

عندما نقرأ نصّاً لا نفهم معنى كلِّ كلمةٍ من كلماته بالتتالي، بل نَعْبُر بنظرة سريعة مجموعة من الكلمات. فإذا لم تفاجئنا كلمةٌ منها بتفرّدها، فسيقودنا مجموعُها إلى جزء من المعنى أسميْتُه "وحدة معنى"، يمكننا أن نسميها أيضاً "فكرة"، إن لم يكن هذا المصطلح يشير إلى مفهوم أوسع بكثير من وحدة المعنى التي ذكرتُها.

و"وحدة المعنى" هذه هي وحدة الترجمة، إنها الوحدة النّصّيّة الصّغرى التي نستطيع أن نضع لها مكافِئاً في لغة أخرى. والوحدة الخَطّيّة هي على العكس من ذلك ثابتة، فالعين تمُوج على مقطع من النص في حركة ذهاب وإياب لا تنقطع، بحيث تكون وحدات المعنى صعبة جدّاً على أن يُحاطَ بها بدقة، إن لم تكن الإحاطة بها مستحيلة.

غير أننا، حينما نحلل بانتباه نصّاً ما وترجمتَه، نجد تكافُؤاتٍ تُبيّن أيضاً، إذا ما أكَّدت الطابعَ الإجماليّ لفهم المترجِم، أنّ وحدة المعنى يمكن أن تكون الصورةَ التي يولّدُها ظاهر اللغة (explicite linguistique).

وفي المقطع التالي الذي استشهدنا به قبل قليل، يبدو أنّ التكافُؤ قد ولّدته رؤيةُ صورةٍ:

الترجمة بالفرنسية	الأصل بالإنكليزية
Ils avaient défait leur cravate afin de pouvoir ouvrir leur col.	The ties were pulled down a little so the shirt collars could be unbuttoned.

الترجمة إلى العربية: "فك الجنديّان ربطَتيْ عُنُقَيْهما ليتمّكنا من فتح قَبّتَي قميصَيْهما".

إنّ المترجِم لم يعالج كل كلمة فيه واحدة بعد أخرى؛ فهو لم يكتب: كانت ربطتا العنق مشدودتين قليلاً نحو الأسفل، لكي تكون قبّتا القميصين ممكنتَيْ الفكّ. لقد رأى وحدة المعنى (الصورة)، ووصفها كما يراها: ربطتا العنق مفكوكتان، والقَبّتان مفتوحتان.

لقد انضافت مُخَيِّلةُ المترجِم إلى دلالات الكلمات وعُبِّرَ عن الصورة بالطريقة التي يراها القارئ الفرنسيّ هو أيضاً. والمترجِم يقدّم بالفرنسية صورة مماثلة لتلك التي يثيرها الأصلُ (الإنكليزيّ)

مستعمِلاً عبارات مكافئة.

وهذا مثال آخر يوضّح توضيحاً أكثر دقة أيضاً المعرفةَ التي تتضاف إلى دلالات الكلمات، لتكوين وحدة معنى:

الترجمة بالفرنسية	الأصل بالإنكليزية
Soldats et filles se tenaient par la main.	They walked holding handed.

الترجمة إلى العربية: "أمسك الجنديّان بيدي الفتاتين".

لقد عُبِّرَ عن الضمير (They) بالفرنسية باستعمال الاسم الظاهر: الجنديان والفتاتان، وبالمقابل أُهمِلت كلمة (walked). فالمترجِم يعلم منذ بداية الرواية أن الشابين والفتاتين يتسكّعون، والقارئ يعلم ذلك أيضاً. وكلٌّ من النصَّين الإنكليزي الفرنسي ينقلان شيئاً غيرَ معبَّرٍ عنه صراحة؛ إن كلمتي (They) و(walked) مضمرتان ومفهومتان من القرّاء المتأثرين بما يقرؤون في كلٍّ من الحالتين. والكلام الصريح والمعنى الضمنيّ للمعارف يقترنان في الحالتين ليُشكّلا معاً وحدة المعنى ذاتَها؛ ففي إحدى الحالتين لدينا كلٌّ مركَّبٌ من صريح (a)، وضمنيٍّ (b)، وفي الثانية لدينا (a') و(b')، لأن مجموعهما واحد، على الرغم من أن العناصر ليست كذلك.

وإذا كانت وحدة التطابق سهلة التحديد، فإن وحدة المعنى ليس لها طول لغوي معيّن. إن الفكرة لا تقبل القياس.

وأية فكرة لا تغدو صريحة إلا بعد اكتمال حدّها؛ وكل متحدِّث يعتمد على تعاون مَنْ يتجه إليهم بكلامه، ويوفّق بين كلامه الظاهر والمعارف التي يَفْتَرِض أنهم يمتلكونها. وسيوسِّع نصه بمقدار ما يَعتبِر أن مَنْ يتحدث إليهم يجهلون المادة التي يعالجها، وسيكثّفُه بمقدار ما يقدِّر أنهم يعرفون عنها، ولكنّ الكلام الظاهر في نصٍّ ما لن يكون مفهوماً أبداً وحدَه، ولن يكون واحداً إذا ما ورد في عدة لغات ليُحيلَ إلى وحدة المعنى ذاتها.

والمادة اللغوية لوحدة المعنى وللمعنى بصفة عامة ليست إلا جزءاً في سبيل كُلٍّ: هي مَجَاز

مُرْسَل "cynecdoque"[1]، وهي (المادة اللغوية) تَستحضِر ما لدى المستمعين والمتحدِّثين من معارف عميقة الصلة بها لتكمِّلها.

4.3.2 الكلام الظاهر أو المَجَاز المُرسَل

كل نصٍّ هو تسوية بين كلام ظاهر قصير بما يكفي لكي لا يجلب السّأمَ بذكر أشياء معروفة ومعنى ضمنيٍّ على قدر كافٍ من الوضوح لكي لا يُبقِي القارئ جاهلاً بالمعنى المقصود من الكلام الظاهر.

ففي غياب معرفة الظروف التي أُنجِزَ فيها الإعلان الآتي، مثلاً: "Minitel 3615 FR3"، سيبقى القارئ جاهلاً بموضوع هذه الرسالة. فإذا حدَّدْتُ أنّ الإعلان كان يقدَّم بوصفه عنواناً فرعيّاً لإعادة عرضٍ تلفزي لمباراة كرة مضربٍ جرت في مدنية مونت كارلو[2]، سيَفهم القارئُ أنها كانت تتوجّه إلى المشاهدين المهتمين برياضة كرة المضرب. وكان لهذا الإعلان عند هؤلاء، بشرط أن يكونوا يمتلكون جهازَ مينيتل[3] (Minitel)، معنىً يمكن أن يُبرَزَ على الشكل الآتي: إن كنتم ترغبون، في وقت حقيقي، في معرفة نتيجة الأشواط التي تنفَّذ في هذه اللحظة في مونت كارلو، صِلوا جاز المينيتل الذي تمتلكونه، وافصلوا الهاتف، وانقروا على الرقم 3615. وحينما تسمعون نغمة صوتية اضغطوا على زر (وَصْل) في جهازكم، وانتظروا الإعلان على الشاشة، الذي يطلب الرّمز، وأجيبوا بالضغط على FR3، وستجدون عند ذاك لائحة الأسئلة التي تستطيعون طرحها حول اللاعبين، والمباراة، والتوقُّعات،.. إلخ، وتختارون منها ما يهمّكم.

لقد استعرْتُ من البلاغة مفهوم المَجَاز المُرْسَل لأحدِّد القسم الظاهر من المعنى. إن إعلان "Minitel 3615 FR3" هو المَجَاز المُرسَل للمعنى، الذي كنْتُ أكملْتُه بمكونات مُضْمَرَة.

---

[1]. مصطلح في علم المعاني يُقصَد به هنا: المجاز المرسل ذو العلاقة الكلية، وفيه يُطلَق الجزء ويُرادُ الكلّ. المترجِم.

[2] هي إحدى المناطق الإدارية الموجودة في إمارة موناكو على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهي عاصمة الإمارة الرسمية. وتُعتَبر مونت كارلو واحداً من أهم المنتجعات السياحية العالمية وأفخمها. المترجِم.

[3] خدمة على الخط مبنية على فيديوتكس يمكن الوصول إليها عبر خطوط الهاتف. المترجِم.

والمَجَازات المُرسَلة الكثيرة في النصوص تُحيل إلى ما هو أوسعُ منها بكثير.

ونجد ظاهرة المَجاز المرسَل على مستوى **الكلمات** فيما يخص الشيءَ نفسَه: فالإيطالي يميّز شكلاً بقوله: (quadro)، والفرنسي يميّز سطحاً، فيقول عنه (tableau)، ويميّز الإنكليزي نتيجة المنتَج المطبقة على السطح، فيقول: (painting)؛ وحول الظاهرة نفسها يُستَعمل في الفرنسية عن **تسريب** الصُّنبور للماء: كلمةُ (fuit)، وفي الإيطالية كلمةُ (perd)، وفي الألمانية كلمةُ (court). فالمسمّى واحد، ولكن المَجازَ المرسَلَ، وهو الجزء الظاهر من المعنى، مختلفٌ.

وينطبق الشيء نفسه على **الأقوال المأثورة، والمعاني المتشابهة**، إن لم تكن متطابقة، والتي نادراً ما يُعبَّر عنها بالمَجازات المرسَلة ذاتها. فالقول المأثور الذي يعبَّر عنه بالفرنسية بـ" porter de l'eau au moulin" (جاءَ بالماء إلى الطاحون)، يعبَّر عنه بالإنكليزية بـ " To bring coal to newcastle" (جاءَ بالكربون إلى نيوكاسل)، ويعبَّر عنه بالألمانية بـ " Eulen nach Athen bringen" (جاء بالبُوم إلى أثينا)، يعبَّر عنه بالعربية بحسب ما يقول طلابي،[1] بـ "باعَ التَّمْرَ في هَجَر".[2] وهناك مثل عربي آخر يؤدي المعنى ذاته هو: (باعَ الماءَ في حارة السّقّائين)[3]. إن الصياغات المختلفة في لغات مختلفة للتعبير عن معانٍ متماثلة توحي بغياب تساوي الشكل (isomorphisme) بين الفِكَر والعبارات اللغوية.

لقد بين ذلك بوضوح شديد، وبعبارات لا تقبل التأويل ج. ب. فيناي وج. داربيلان (J. P. Finay et J. Darbulent, 1958) بقولهما: "إن الكلام الظاهر الذي يعيّن معنىً في لغة ما لا يكون هو نفسُه في لغة أخرى إلا في حالات نادرة".[4]

والمجَاز المُرسَل، بوصفه ظاهرةً، قد لا يكون ذا فائدة كبيرة لنظرية الترجمة إن لم يوجد إلا

---

[1] طلاب الكاتِبة ماريان لوديري. المترجِم.

[2] هي منطقة الأَحْساء بالمملكة العربية السعودية، وهي مشهورة بزراعة النخيل وإنتاج التمر. المترجِم.

[3] هذا المثَلَ أضافه المترجِم.

[4] Vinay, J. P. et Darbelnet, J. (1958): *Stylistique comparée du français et de l'anglais,* Paris: Didier.

على مستوى اللغات، وإن لم يكن عليه أن يؤدّي على مستوى النصوص باستمرار إلى إبداعات أسلوبية. وذلك لأن المَجَاز المُرسَل هو في الجوهر ظاهرة خَطابية، والفكِرَ والانفعالات والوقائع لا يعيّنها المتحدثون الألمان أو الإنكليز أو الصينيون أو الفرنسيون بالطريقة ذاتها. إن المجازات المرسَلة، التي يكفي أن نَعْرفها على مستوى الكلمات والعبارات الجاهزة، يجب أن تُنْشَأَ من أجل وضع تكافُؤاتٍ للنصوص. ومن أجل تجنّب المطابقات وإنشاء تكافُؤات، ولكي نجد الكلماتِ التي **ستُعيّن جزئيّاً** في اللغة المترَجَم إليها، الفكرةَ، والواقعةَ، والانفعالَ، **المُعَيّنَةَ كلَّها** في اللغة المترَجَم عنها، يجب أن ندرك أنّ: *"الشكل الماديّ للخطاب، فيما يخص الفكِر التي يُعَبَّر عنها، هو دائماً وفي مختلف الظروف مؤشّر أكثر مما هو وصف. [...] وكما تُبَيِّنُ، في اللغة، كلمةُ (كأسٍ) المادةَ، ولكنها تسمّي الشيءَ الذي نشرب فيه، كذلك في الخطاب يقتصر أغلبُ الجمل على إعطاء سِمَة مميِّزة لفكرة ما لكي تَثْقُلَ الفكرةَ كلَّها [...]. والآثار التي تتركها، في الترجمة، هذه الظاهرة العامة التي من أجلها سأحتفظ بمصطلح مَجاز مرسَل، لم تُلاحَظ حتى الآن بما يكفي. ولأن كل لغة تختار بطريقة مختلفة السِّمات البارزة التي تسمّي بها الأشياء والمفاهيم، كما تختار الخاصيات التي تميّز بها الفِكَر، تبدو لَيَ انعكاسات هذه الظاهرة على الترجمة جوهريةً، لأنها تشرح أكثر من أيّ عامل آخر السببَ الذي من أجله لا يمكن أن تكون الترجمةُ فقط عمليةً حول اللغة، بل يجب أن تكون عملية حول المعنى"* [1].

وعلى امتداد النصوص تشكلت بحرية مَجازاتٌ مُرسَلة تشير إلى معانٍ أوسع من دلالاتها، وعلى امتداد الترجمات تنشِئُ المجازاتُ المرسَلة التي شكَّلها المترجم بحرية تكافُؤاتٍ. إنه حدثٌ قابل للملاحظة على لغات قريبٍ بعضُها من بعض كالفرنسية والإنكليزية؛ إنه حدث شبة إجباري بين زوجين من اللغات أكثرَ تباعُداً، كالألمانية والفرنسية، أو بعيدٍ بعضُها عن بعض بوضوح، كالصِّينية والفرنسية.

فلماذا ترجمَ مترجمُ روايةِ: **شارع السّردين المعلَّب** إلى الفرنسية في الفقرة الأولى عبارة: *no*

[1] Lederer, M. (1984): *Implicite et explicite, Interpréter pour traduire,* Paris: Didier Éruditions.

automobiles are runing then بـ *pas encore d'automobiles*؟ لأنه عبَّر بطريقته عن الانطباع بالطمأنينة الذي كان يَختفي وراء هذه الجملة والذي يَنْتُج عن مجمل النص بقدر ما يَنْتُج عن الكلمات السابقة.

إن ترجمةً تحتفظ بالمجازات المرسَلة للغة المترجَم عنها تعطي، بالمقابل، نتيجة سيئة: لِنَرَ بهذا الخصوص الجملةَ الألمانية التي تبتدئ بها قصةٌ قصيرة لستيفان زويغ (Stefan zweig)[1] إن مترجِم هذا النص القصير يتردَّد بين عدة طرائق، فتارة يكتب ما فهِمَه، وتارة أخرى يترجم مع النية الصادقة بأن يكون مخلصاً للغة المترجَم عنها (الألمانية).

النص مترجماً إلى الفرنسية	النص باللغة الأصل الألمانية
Dans la petite pension de la Riviera, où je me trouvais alors (dix ans avant la guerre), avait éclaté **à notre table**, une violente discussion, qui **brusquement** menaça de tourner en alteraction furieuse et fut même accompagnée de paroles haineuses et injurieuse.	In der kleinen pension an der Riviera, wo ich damals, zehn Jahar vor dem kriege, wohnte, war eine heftigeDiskussion **an unserem Tische** ausgebrochen, die **unvermutet** zu rabiater Auseinandersetzung, ja sogar zu Gehässigkeit und Beleindigung auszuraten drohte.

ترجمة النص إلى العربية:

"في نُزُل الريفييرا الصغير الذي كنت أقيم فيه حينَها (قبل الحرب بعشر سنوات)، اندلعت، على مائدتنا، مناقشةٌ عنيفة هدّدت فجأة بالتحول إلى مشاجرة عنيفة، حتى إنها اقترنت بكلمات حاقدة ومُهينة".

من دون أن نتكلّم عن تطابُقات هي غالباً غير دقيقة: إن (*unvermutet* ليست *brusquement* مثلاً، ولكنها بمعنى"*à l'improviste*، *inopinément*، *sans crier gare*)[2].

[1] Zweig, S. (1983): *Vierundzwanzing Stunden aus dem Leben einer Faru*, Fischer Bibliothek, Francfort, (1ére éd. 1927). Traduction française de Bounarc, et Hella, A. (1981) sous le titre*: Vingt quatre heures de la vie d'une* femme, Bibliothèque cosmopolite, Stok.

[2] معانيها الدقيقة باللغة العربية هي على التوالي: بشكل غير متوقع: للعبارتين الأولى والثانية؛ دون سابق إنذار: للعبارة الثالثة. المترجِم.

وهذه الترجمة (للنص الألماني إلى الفرنسية) تُبيّن أن وضع التطابقات كاملةً ليس ممكناً، فالمترجم تَجنَّبَها قَسْراً في هذه اللحظات. وفي جهد معاكس باحث عن المعنى الحرفيّ، سيجد المترجِم نفسه مدعوّاً إلى أن يسيء استعمال اللغة المترجَم إليها، إلى أن يجعل الفِكَرَ الواضحة في اللغة الأصل مشوَّشة في اللغة المترجَم إليها، وإلى أن يزيّف مُناخها.

كنتُ طلبت إلى طالبة في المدرسة العليا للمترجمين الفوريين والمترجمين، أن تتخيل المشهد الذي وصفه س. زويغ، وأن تعبِّر عنه عَفْويّاً بعد المحاولة الأولى، وبعد أن عادت إلى الأصل لتتحقّق توالي الأحداث، أنتجت ما يلي: *أجد نفسي في هذه الحقبة من الزمن (10 سنوات قبل الحرب) في نُزُلٍ عائليٍّ صغير على الشاطئ اللازورديّ.* ***وذات مساء،*** *اندلعت مشاجرة على* ***الطاولة التي كنت أتعشى عليها؛*** *كان بالإمكان أن تؤدي في كل لحظة إلى شتيمة وكلام حاقد.*

وخلافاً للترجمة المنشورة، يتوافق هذا التكافُؤ مع عبقرية اللغة الفرنسية، كما يتوافق الأصل مع عبقرية اللغة الألمانية. إن المَعَالِم اللغوية الإضافية (extra-linguistique) التي استدعتْها الكلماتُ الألمانية، وليس هذه الكلمات ذاتها، تكمُنُ وراء الكلمات الفرنسية.

لنقدّم، على سبيل المقارنة، بعضَ المَجازات المُرسَلة الألمانية في مقابل ترجمة بأسلوب التطابُقات والمَجازات المرسَلة الفرنسية التي وجدتها هذه الطالبة:

المجازات المرسلة الألمانية	التطابقات الفرنسية	التكافُؤات الفرنسية
an unserem Tische	à notre table	Un soir, à la table où je dînais
unvermutet	à l'improviste	A tout moment

لقد كتبْنا في مكان آخر: *"لكي يتابع القارئُ نصّاً من دون تعب، يجب أن يكون هذا النص متوافقاً مع عادات اللغة التي كُتِبَ بها،... ولكي تكون الترجمة قابلةً للفهم لدى من يهتمّ بها، يجب أن يردِّد في نفسه بلا انقطاع أنها ليست سوى حالةٍ خاصة من حالات الاتصال".*[1]

[1] Lederer, M. et Sleskovitch, D. (1984): *Interpréter pour traduire,* Didier Érudition.

إن الكلام الظاهر للنص الأصلي مُكَيَّف مع معارف قُرّائه، والمترجِمُ يكيّف معناه مع قرّائه هو، وهو حين يفعل ذلك يجد في لغته توازناً آخر بين الكلام الظاهر ومعناه الضمني لكي يعيّن أحداث النص الأصليّ، وفِكَره، ومشاعرَه. والكلام الظاهر تُميّزه عادات تعبير خاصة باللغة التي كُتِب بها، والمترجِم هو الآخر يجد في لغته صِيَغاً تتوافق مع عادات التعبير، وتعكس مع ذلك قدرته اللغوية الإبداعية. إن مشكلة المترجِم إذن مزدوجة: عليه أولاً أن يعرف حدودَ كل جزء من النص ونواحيَه ليفهم معناه، وعليه ثانياً أن يكون قادراً على أن يعيّن في لغته في مَجاز مرسَل ملائم، الكلَّ المعرفيَّ الانفعاليَّ ذاتَهُ الذي سيخلُقُ مكافئَ المجازِ المرسَل الأصليّ.

5.3.2 عبقريّة اللغات وخلق التكافؤات

لقد أُخِذَ علينا أحياناً استعمالُنا عبارةَ "عبقرية اللغة" لنُعَيِّنَ اصطلاحيتها (idiomaticité)، وما من شك في أن الكلمة غامضة، ولكننا لا نعتقد أن كلمة "أسلوبية"، وهي كلمة أكثر علمية، أوضحُ منها، يضاف إلى ذلك أنّ عبقرية اللغة التي وُضِّحَتْ ببراعة في أعمال ج. ب. فيناري وج. داربولنيه (J. P. Vinary et J. Darbelnet) إن عبقرية لغة ما لا تمنحها إطلاقاً أية فوقية على غيرها؛ إنها المعالجة الحَدْسيّة التي تجعل المواطن الأصليّ (l'autochtone) الفرنسي يقول في بعض المناسبات: "هذا التعبير ليس فرنسيّاً". والألمان يتحدثون عن "الإحساس باللغة: sprachgefühl" الذي لم يُحدِّدْه حتى الآن وصفٌ للرموز الصوتية أو الصرفية المعجمية أو النحوية.

لقد ظنّ بعضهم أننا بوجود عدد هائل من الدراسات اللغوية المقارِنة، قد نستطيع أن نحدِّد ونعدِّد مختلف التباينات التي تميِّز بين لغتين. وأيّاً كانت فائدة هذا التمرين فإنه لا يستنفِد الحقلَ الذي يغطّيه مفهوم "**عبقرية اللغة**" الذي يوجد فيه كلُّ ما بقي حتى الآن غيرَ منظَّم. إن كلمة "**عبقريّة**" تقتضي وجود قواعد غير مكتوبة يستعملها المواطن الأصليّ حَدْسيّاً لدى إنشاء الجُمل، وبناء النص. وهو يحترم هذه القواعد عندما يبرمج خطابه، مع احتفاظه بحريته الأسلوبية: ولا يتعلق ذلك بالعلاقة بين الدّالّ والمدلول فحسب (لا نستطيع أن نقول: نافذة حينما نريد أن نقول:

هِرّ) وإنما أيضاً الجوانب الوثيقة الصلة التي تُظْهِرُ الفكرةَ كاملةً. والقواعد لا تؤثّر في حرية إنشاء التكافُؤات، فالمَجازات المرسَلة المشكَّلَة بطريقة مختلفة تقيم بين الجمل والفِكَر صلةً تحقّق فهمَ الكلِّ عفويّاً من خلال تلقّي الجزء، وفهمَ الفِكرةَ لدى تلقّي الكلمات.

لقد بقيت المعرفة الحدْسية والمعالجة الارتكاسية للغة خارج نطاق الوصف حتى الآن: والمترجِم الناجح يستفيد منهما مع ذلك ليصوِّبَ النص الأصليّ؛ فهناك صلة مباشرة بين اصطلاحية (idiomaticité) الترجمة وصحّتها. والترجمةُ، مع الحرص الشديد على وضع الحد الأقصى من التطابُقات مقابلَ النص، تعني الترجمةَ برَطَانةٍ (بكلام غير مفهوم) لما كان كُتِبَ في لغة اصطلاحية. وقد فَهِمَ ذلك ميشيل تورنييه (Michel Tournier) جيداً:[1]

"لكلّ لغة مُناخُها وجاذبيتها الخاصة، وأساس الترجمة الناجحة هو الخروج من هذا المُناخ، والتحرّرُ من هذه الجاذبية، للتطور بحرية كاملة في اللغة المعتمَدَة في الترجمة".

وأيّاً كانت دقة بعض التطابُقات فإن المترجِم لا يمكنه أن يبقى أميناً للكاتب إن اقتصر على ترجمة لغته. فالكاتب يكتب بلغته، والمترجِم يكتب هو أيضاً بلغته، بحيث إن لغتَيْ النّصّين تكونان من المستوى الأسلوبي عينِه. ومثلُ كل شخص متكلم، يعبِّر الكاتب عن نفسه مقدِّماً الكلماتِ التي تجعل فِكَرَهُ مفهومةً، ويحق للمترجِم أن يفعل الشيءَ نفسَه، أن يكتب بلغته الخاصة به وبحسب موهبته الخاصة به الفِكَرَ التي يجب عليه أن يُفهِمها للآخرين والمشاعرَ التي عليه أن يجعل الآخرين يُحِسّون بها. إن نصّاً مكتوباً بلغة متوافقة مع عبقريتها يستدعي في اللغة الأخرى (المترجَم إليها) نصّاً مكتوباً هو الآخر بما يتوافق مع عبقريتها.

وإذا كان احترام عبقرية لغة ما لا يعني الاقتصار على المعايير المعجمية والنحوية والأسلوبية، فإن الإبداع الفردي يساوي احترام المعايير. وفضاء حرية المترجِم ليس بلا نهاية، ولكنه، مثل كل متحدث، بعيد عن أن يكون مركّزاً في خط وحيد ليُبَلِّغَ الفِكَرَ التي جَعَلَها فِكَرَهُ؛ إن بعض خياراته يستجيب لعادات لغوية خاصّة به: تفضيلٍ لبعض الكلمات، ولبعض الأساليب،

[1] Tournier, M. (1977): *Le vent Paraclet,* Paris, Gallimard.

واختيار أسلوب يوافق أسلوب الكاتب من دون أن يقلّد حرفيّاً صِيَغَهُ.

وبخصوص عبقرية اللغة، تبقى كل الاختراعات الفردية ممكنة ما دام المواطنُ الأصليّ (l'autochtone) يُقِرّ بأن النص المترجَم يبدو كما لو أنه كُتِبَ بلغته (المواطن).

6.3.2 كيف نحكم على التكافؤ

ما الذي يسمح بالقول: إن ترجمة ما مكافِئة للنص الأصليّ، في حين أنه لا الكلمات ولا البِنى النحوية تتطابق تماماً؟ وبكلمات أخرى، ما الذي يسمح بالقول: إن ترجمةً ما ناجحةٌ؟

لقد جَهَدَ ورنر كولر (Werner Koller) في كتابه: **مقدمة إلى علم الترجمة**[1] في أن يُرْسِيَ شيئاً من الوضوح في معايير التكافؤ: فقد ذكّر بتعددية الصفات التي ألصقها بمفهوم التكافؤ كُتّابٌ مثل: كاتفور، ونيدا وتابر، وويلس، وجاير (Catford ; Nida et Taber, wills, Jäger) الذين ذكروا: تكافؤ المحتوى، المسمّى أيضاً المحتوى الثابت؛ وتكافؤ الشكل؛ والتكافؤ الوظيفيّ؛ والتكافؤ التواصليّ؛ والتكافؤ النّصّيّ؛ والتكافؤ التبادليّ؛ وتكافؤ الأثر.

ولكي يحيط و. كولر (W. Koller) عن قرب بمفهوم التكافؤ، حلّل العناصر التي تحدِّد التكافؤ في كُلِّيَّتِه، وأعادها إلى خمس فئات هي:

1. ترجمةٌ يجب عليها أن تنقل المعلومة التي يقدمها النص الأصليّ عن الواقع اللغوي الإضافيّ الذي يسميه كولر: التكافؤ الهِبَوِيّ[2] (*équivalence donative*).
2. وجوبُ أن تحترم الترجمةُ الأسلوبَ: سجلَّ اللغة (registre)، واللهجة الاجتماعية (sociolecte)، والامتداد الجغرافيّ للتعابير،.. إلخ. وهو يسمّيه تكافؤ إيحاء المعنى (*équivalence de connotation*).
3. وجوبُ أن تكون الترجمة متوافقة مع نوع النّصّ، فلا تُكتُب وصفاتُ الطبخ مثلما تُكتب

[1] Koller, W. (1979): *Einfuhrung in die Ubersetzuwngswissenschaft,* UTB 819, Quelle und Meyer, Heidelberg, 4è éd. 1992

[2] نِسْبةً إلى هِبَةٍ (وَهَبَ يَهَبُ وَهْباً وَوَهَباً وهِبَةً: أعطى الشّيءَ بلا عِوَض). المترجِم.

المعاهدات القانونية. إن كولر يتحدث هنا عن تكافؤ المعيار (*équivalence de norme*).

4. وجوبُ أن تكون الترجمة مُكَيَّفَةً مع معارف القارئ لكي تكون مفهومة. إنه التكافُؤ التداوليّ (*équivalence pragmatique*).

5. وجوبُ أن يُنتِج شكلُ الترجمة الأثرَ الجماليَّ ذاتَه الذي يُنتِجُه النصُّ الأصليّ. إنه تكافُؤ الأثر (*équivalence d'effet*).

وهذ المعايير تَدْخُل في الحساب بالتأكيد، عن وعي أو حدسيّاً، حينما نَحكُم على ترجمة ما. غيرَ أنّه لا بد من ملاحظة أنّ هذه المعايير المفيدة لدعم الترجمة ليست بالضرورة طرائق للترجمة، وليست من جانب آخر مقترحة كما هي. وفيما عدا أساليبَ الترجمة السبعةَ التي لاحظها ج. ب. فيناي وب. داربولنيه (J. P. Vinary et J. Darbelnet)، لن تتيح هذه المعايير لأيٍّ كان أن يتعلّم الترجمة، ولكنها ستسمح لكل شخص بأن يتأكّد له أنه لم يفتقر إلى التكافؤ الضروري فيما يخص هذه الفكرة أو تلك. ومثل أيّ حُكْم قيمة، سيكون الحكمُ على تكافُؤ الترجمة، دائماً، ذاتياً إلى حد بعيد.

فلنحاولْ تطبيق معايير و. كولر الخمسة على ترجمة رواية: **شارع السّردين المعلَّب** المذكورة آنفاً:

الترجمة بالفرنسية	النص الأصلي الإنكليزية
Les soldats avaient défait leur cravate afin de pouvoir ouvrir leur col, et ils avaient coiffé les chapeaux des filles: l'un avait le chef adorné d'une paille jaune surmontée d'un bouquet de pâquerettes, l'autre portait un bonichon de tricot blanc décoré d'un médaillon de cellophane bleue. Soldats et filles se tenaient par la main et balançaient leurs mains en mesure. Le soldat qui marchait sur le bord du trottoir portait un cabas de papier brun, rempli de bière en boites, et tous quatre avançaient doucement dans la lumière aux tons nacrés; ils venaient de passer une nuit du tonnerre de Dieu, et la vie était rudement belle. Et ils	The ties were pulled down a little so the shirt collard could be unbuttoned. And the soldiers wore the girls' hats, on a tiny yellow straw boater with a bunch of daisies on the crown, the other a white knitted half hat tow which medallions of blue cellophane adhered. They walked holding hands swinging their hands rhythmically. The soldier on the outside had a large brown paper bag filled with cold canned beer. They strolled softly in the pearly light They had had a hell of a time and they felt good. They smiled delicately like weary children remembering a party. They looked at one another and smiled and they swung their

hands.	souriaient comme sourient les enfants au souvenir d'une fête. Chaque couple se regardait, souriait, et balançait ses mains de plus belle.

ترجمة النص إلى العربية:

*"فكَّ الجندّيان ربطتَيْ عُنُقَيْهما ليتمكّنا من فتح قبّتَيْ قميصَيْهما، ورتّبا قُبّعتي الفتاتين: **كانت إحدى القبعتين في شكل قاربٍ من** القشّ الأصفر تعلوه باقةٌ من زهر الأُقحوان، **وكانت الأخرى** قَلَنْسُوةً من التريكو الأبيض مزّينةً بمدالية من السّيلُوفان الأزرق. أمسك الجندّيان بيدي الفتاتين وأرجحوا أيدَيهم. كان الجندي الذي كان يسير على حافة الرصيف يحمل كيسَ تسوُّق **ورقيّاً بُنّيّاً مملوءاً** بالبيرة المعلّبة، وكان الأربعة يتقدمون بلطف في ضوءٍ **لُؤْلُئِيٍّ**. لقد أمضوا للتّو ليلة حمراء، وكانت الحياة جميلة. لقد ابتسموا كما يبتسم الأطفال في ذكرى عيد. كان كل زوج منهما يتبادل النظرات، والابتسامات، ويؤرجح أيديه بسعادة غامرة".*

1. إن المعلومة التي حملَتَهْا القصةُ نُقلت كُلِّيّاً.
2. تحترم اللغة الفرنسية سجلَّ اللغة، وبساطةَ عبارة النص الأصليّ.
3. الفرنسية التي تُرجِم النصّ إليها لا تُشعِر بأنه مترجَم، والأسلوب متوافق مع جنس الرواية الأدبي.
4. التكيُّفُ مع القارئ الفرنسيّ ناجح؛ فترجمة عبارة: "large brown paper bag" بـ" cabas de papier brun" تعطي دلالة على حجم الأكياس الورقية التي توضع فيها المشتريات من المواد الغذائية في الولايات المتحدة. والترجمة بعبارة "grand sac en papier" ربما لم تكن تتيح فهم هذا *الحجم*.
5. الأثر الجماليّ ذو الصلة العميقة بالنصّ الأصليّ نجده في الترجمة.

سيُقال: إن معايير و. كولر الخمسة قد رُوعِيَتْ. ففي الوقت الذي يكتب فيه المترجِم ترجمتَه، يستلهمُ ما يفهِمُه وما يحسُّ به لدى قراءة النص ليُتيحَ لريشته أن تعمل؛ ولكنه عندما يقوم، بعد الترجمة، بالتحليل التّبريريّ لعمله، يأخذ بالاعتبار، بهذا القدر أو ذاك من الوعي، معاييرَ و.

كولر للتكافُؤ.

3. خاتمة

قدّم المترجِمُ في هذا المقال طريقة الترجمة التي تعتمد **التكافؤات** كما عرضتها الكاتبة ماريان لوديري في كتابها الذي وثقناه في الصفحة الأولى من هذا المقال. أما الموضوع المكمِّل له فسيكون طريقة الترجمة التي تعتمد **التطابُقات**، وهو موضوع مقال جديد.

الترجمة القانونيّة
مفهومُها، وأنواعُها، وأساليبُها

د. ورد جبر حسن

مدرّس الترجمة في قسم اللغة الفرنسيّة

كليّة الآداب بجامعة دمشق

ملخص المقالة

تتناولُ هذه المقالة الترجمة التحريريّة القانونيّة بين اللغتين العربيّة والفرنسيّة. إذ نستهلّ هذا البحثَ بمقدّمة تعرضُ أهميّة الترجمة في إقامة التواصل بين الحضارات والشعوب، وتحدِّدُ المجالَ الذي سوف ندرسُه في هذا المقال (الترجمة القانونيّة)، وتعدِّدُ المراحلَ التي سنمرّ بها خلال إجرائنا هذه الدراسة (تحديد مفهوم الترجمة القانونيّة، شرح كل واحدٍ من أنواعِها، توضيح أسلوب عمل المترجم في كل منها). يلي ذلك القسمُ الأول من البحث، وهو مخصصٌ لتعريف الترجمة القانونيّة. فقد استندنا إلى الشرح الذي يُقدّمه المنجدُ في اللغة العربيّة المعاصِرة لكلمة "القانون"، كي نحاول تقديم تعريف مفصّل ووافٍ يُبَيّنُ مفهومَ الترجمة القانونيّة، ويُعدِّدُ مختلفَ أنواعِها. ثم انتقلنا إلى النوع الأول من الترجمة القانونيّة، وهو ترجمة أخبار الحوادث. فقدّمنا تعريفاً دقيقاً لها، وذكرنا أمثلة متعددة عليها، ووضحنا أسسَ تعامل المترجم معها، وهي: أمانة نقل الفحوى، ودقة نقل المصطلحات التخصصيّة، ومراعاة أسلوب الصياغة الصحفيّة. ولمزيدٍ من الإيضاح، وضعنا مثالاً مقتبساً من أخبار الحوادث الفرنسيّة، وقدّمنا ترجمتنا له، وأتبعناها بشرح مفصل لأسلوبنا في القيام بهذه الترجمة. بعدئذٍ تناولنا ترجمة نصوص القوانين والمراسيم. فشرحنا مفهومَ هذا النوع من النصوص، وأساليبَ صياغتها، وأشرنا بوضوح إلى جوانب اختلاف أساليب الصياغة هذه بين

الجمهوريّة العربيّة السوريّة والجمهوريّة الفرنسيّة، إضافة إلى انعكاس هذا الاختلاف على طريقة عمل المترجم. ووضعنا العديدَ من الأمثلة مع ترجماتها، وشرحنا هذه الترجمات كي تكون أفكارُنا واضحة بيِّنة. وخصّصنا القسمَ الرابعَ من المقال لترجمة الدساتير. فسردنا تعريفين لكلمة "دستور"، أحدهما واردٌ في المعجم الوسيط، والآخر في المنجد في اللغة العربيّة المعاصرة. ثم حاولنا الاستفادة من هذين التعريفين ومن قراءتنا لدساتير عددٍ من دول العالم، لتقديم تعريفٍ أكثرَ شمولاً لكلمة "دستور". وقادَنا هذا التعريف إلى تحديد الرهانات الملقاة على عاتق المترجم لدى ترجمته دستورَ دولةٍ ما، وقدّمنا مثالاً مفصّلاً زيادة في الإيضاح. أما القسم الخامس من المقالة، فتناولَ ترجمة الوثائق الرسميّة كشهادات الميلاد، والشهادات الجامعيّة، والوكالات القانونيّة.. إلخ. حيثُ ركزنا على العلاقة بين شكل كل واحدةٍ من هذه الوثائق وطبيعة البيانات التي تهم الحكومة التي تُصدِرُها، وأشرنا إلى أنّ هذا الأمرَ يُفسِّرُ اختلافَ أشكال وصيغ هذه الوثائق من بلدٍ لآخر، نظراً لاختلاف القوانين والتشريعات من دولةٍ لأخرى. لذا فقد أَلْحَحْنا على أهميّة مراعاة المترجم لهذه الاختلافات الشكليّة دون إهمال أمانة نقل فحوى النصوص الأصليّة. وعرضنا مثالاً دقيقاً يتناول هذه القضيّة. ثم وضعنا خاتمة أجملنا فيها نتائج البحث، وأضفنا لائحة المراجع التي استندنا إليها باللغتين العربيّة والفرنسيّة.

مُقدِّمة

لطالما قيلَ عن الترجمة إنها جسرُ تواصل بين الشعوب. وهذه حقيقة لا يُمكنُ بأي حال من الأحوال دحضُها أو التشكيكُ فيها. فلقد أحيا المترجمون العربُ في العصر العباسيّ علومَ الإغريق القديمة، مما سمح بالحفاظ عليها وتطويرها. ثم جاء المترجمون الأوربيّون إلى مكتبة طليطلة في الأندلس، وترجموا أمهات الكتب العلميّة العربيّة إلى لغاتهم، مما أتاح لبلدانهم الخروج من غياهب العصور الوسطى وتطويرَ حضاراتها حتى بلغت درجات التقدّم التي يعرفها العالم الآن. وعندما أراد العرب النهوض بحضارتهم بعد عصور من الانحطاط، عادوا إلى الترجمة ابتداءً من القرن التاسع عشر، فكان عصرُ النهضة في مصر أيامَ محمد علي، وكان تعريب

التعليم في سورية مع تأسيس كلية الطب بدمشق عام 1919 ليتسع بعدئذ ويطال مجالات التعليم الجامعي السوريّ كافة. أما الترجمة الأدبية التي عرفتها مصر ولبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد أثرَتِ الأدب العربيّ بأنواع أدبيّة جديدة، وخاصة الرواية والمسرح.

وغنيّ عن القول إنّ الترجمة بمختلف أشكالها (التحريريّة، والإلكترونيّة، والشفهيّة) تطالُ مختلف الميادين العلميّة (الطب، الذرّة، المعلوماتيّة.. إلخ) والاجتماعيّة (الفلسفة، القانون، التربية.. إلخ) والأدبيّة (الرواية، القصة القصيرة، المسرح.. إلخ). وتكتسي علاقة الترجمة مع كل واحدٍ من هذه الميادين طبيعة خاصة، تفرض على المترجم قواعدَ عمل مُحَدّدة وأساليبَ ممارسةٍ معيّنة. لذا فقد اخترنا أن نعالج في هذه المقالة العلاقة بين الترجمة التحريريّة والقانون، أو ما يُسمّى الترجمة القانونيّة. إذ سنوضّحُ في البداية مفهوم هذا النمط من الترجمة، ثم سنعرض كل واحدٍ من أنواعه، ونشرح أسلوب عمل المترجم في كل منها. ونودّ الإشارة في هذا الصدد إلى أنّ مقالنا سيركز على الترجمة التحريريّة القانونيّة بين اللغتين العربيّة والفرنسيّة.

1. مفهوم الترجمة القانونيّة

القانونُ، وَفقاً للمنجد في اللغة العربيّة المعاصِرة: "قواعِدُ وأحكامٌ تضعها السّلطة العُليا لتنظيم العلاقاتِ بين الأفراد والجماعات وحِمايةِ حقوقهم، وتقضي بالعِقاب والثواب، تنفذها الدولة بواسطة المحاكم (يونانيّة)".[1]

بناءً على ما تقدّم، تعني الترجمة القانونيّة أن يَنقلَ المترجمُ من لغةٍ لأخرى نصوص القوانين، والمراسيم، والدساتير، والوثائق الرسميّة (القراراتُ الوزاريّة، إخراجات القيد، شهادات الميلاد والزواج والوفاة، شهادات إنهاء الدراسة الثانويّة والجامعيّة، الوكالات العامة والخاصة.. إلخ)، إضافة إلى أخبار الحوادث الواردة في وسائل الإعلام. وغنيّ عن القول إنّ كل واحدٍ من أنواع الوثائق القانونيّة التي ذكرناها للتو يخضع لأسلوب صياغةٍ منسجمٍ مع الغاية التي يُصدَرُ من أجلها، ومع

[1] حَشيمة، كميل إسكندر، **المنجد في اللغة العربيّة المعاصرة**، بيروت، دار المشرق، 2001 ص 1189

القواعدِ المتبعَة في الدولة التي يُنشَرُ فيها، مما يُحَتِّمُ على المترجمِ مراعاة هذه الضوابط لدى نقله هذه النصوص، دون نسيان أهميّة أمانة نقل فحواها. لذا فإننا نميّز بين أربعة أنواع للترجمة القانونيّة، هي:

آ. ترجمة أخبار الحوادث

ب. ترجمة نصوص القوانين والمراسيم

ج. ترجمة الدستور

د. ترجمة الوثائق الرسميّة.

2. ترجمة أخبار الحوادث

أخبارُ الحوادثِ مقالاتٌ مَنشورةٌ في الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونيّة، كما يُمكِنُ أن تكونَ أنباءً تنقلها محطاتُ الإذاعة والتلفزة، وهي تتناولُ حوادثَ السير، والكوارثَ الطبيعيّة (حرائق، فيضانات، زلازل.. إلخ)، والمُشاجرات، والجُنَحَ، والجرائمَ، وملاحقات الشرطة للفارّين من وجهِ العدالة، وجلساتِ محاكمةِ المتهَمين بمخالفة القانون.. إلخ. وبما أنّ السلطة القضائيّة وأجهزة الأمن التي تعمل تحت إشرافِها مَعنيّة بالتعامل مع هذه الحوادث على اختلاف أشكالها، وفقاً للأنظمة والقوانين المَرعيّة في الدولةِ المَعنيّة، فإنّ ترجمة النصوص التي تتحدث عنها جزءٌ لا يتجزأ من الترجمة القانونيّة.

غير أنّ أخبارَ الحوادث نصوصٌ صحفيّة في نهاية المطاف، مما يفرضُ على المترجم مراعاة قواعد الترجمة الصحفيّة لدى نقله أخبارَ الحوادث. إذ يجب عليه إعطاء الأولويّة لأمانة نقل مضمون النص الأصليّ بكل تجرّد، دون إهمال قواعد اللغة المنقول إليها. كما يجب على المترجم الابتعادُ عن الصياغة الأدبيّة المنمّقة، ذات الألفاظ الجزلة والجمل الطويلة المليئة بالصور البيانية والمحسّنات البديعيّة (التشبيه، الاستعارة، السجع)، بل عليه اختيارُ ألفاظٍ مباشَرةٍ، دقيقةٍ، يضعها في جمل مترابطةٍ، تنقل الخبرَ بوضوح لا يزيدُ ولا ينقص عن وضوح جمل النص الأصليّ. وإنْ تضمّن هذا الأخيرُ صوراً بيانيّة، وهو أمرٌ لا تخلو منه الصحافة الفرنسيّة،

فللمترجم حريّة الاختيار بين وضع صور بيانيّةٍ مقابلةٍ لها في الترجمة، أو الاكتفاءِ بنقل مضمونها إن وجدَ ذلك كافياً ولا يضرّ بأمانة الترجمة. فلنأخذ مثلاً العبارة الصحفيّة الفرنسيّة التالية: «faire la moue» إنّ المعنى الحَرفيّ لهذه العبارة هو: "بَرطمة، أي مَدّ الشفتين تعبيراً عن الاشمئزاز".[1] لكنّها تُستعمل أيضاً بمعنى مجازيّ كناية عن الامتعاض أو الاستهزاء.[2] ومن ثَم يمكن للمترجم العربيّ مثلاً الاختيارُ بين أمرين: إما وضع كنايةٍ عربيّةٍ مقابلة – "برطَمَ" – أو نقلِ مضمون الصورة الفرنسيّة بطريقةٍ مباشَرةٍ: "امتعضَ" أو "استهزأ".

من جهةٍ أخرى، لابد للمترجم من توخي الدقة لدى نقل المصطلحات القانونيّة من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف. فلنأخذ على سبيل المثال خبراً صحفياً فرنسيّاً وارداً في الموقع الإلكترونيّ yahoo.fr:

«Alors qu'une perquisition s'effectue actuellement dans les locaux de l'Assemblée nationale, le Parisien nous apprend aujourd'hui que Penelope Fillon n'y avait ni badge ni boîte mail.»[3]

يَنقلُ هذا الخبرُ بطريقةٍ مباشرةٍ خاليةٍ من أيةِ صور أدبيّةٍ أو مُحَسِّناتٍ بديعيّةٍ، معلومَتين حولَ فضيحةٍ ماليّةٍ تطالُ المرشّح للانتخابات الرئاسيّة الفرنسيّة عامَ 2017 فرانسوا فيّون وزوجتَه بينيلوب. هاتان المعلومتان هما:

آ. إجراءُ تحرّياتٍ داخل مبنى الجمعيّة الوطنيّة (البرلمان)

ب. عدمُ امتلاكِ بينيلوب فيّون لمفتاح إلكترونيّ ولا لعلبة بريدٍ إلكترونيّ في الجمعيّة الوطنيّة، وفقاً لما ذكرته صحيفة لوباريسيان.

وبناءً عليه، يجب على المترجم العربيّ نقل هذا الخبر بطريقةٍ مباشرةٍ، لا توجد فيها صورٌ

---

[1] د. المالكي، د. البيطار، د. اليافي، د. حسن، **العبارة والاصطلاح السياسي والصحفي (دراسة وترجمة)**، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2018 ص 343.

[2] المرجع السابق.

[3] « Perquisition à l'Assemblée nationale », [En ligne], mis en ligne le 3 avril 2017, consulté le 3 avril 2017. URL : https://yahoo.fr/

بيانيّة ولا مُحَسِّناتٌ بديعيّة، لكنها تراعي قواعد اللغة العربيّة، وتتضمّن المعلومَتين المُشار إليهما آنفاً. إليكم ترجمتَنا على سبيل المثال:

"بينما تجري حالياً تحرياتٌ داخِلَ مَبنى الجمعيّة الوطنيّة، أعلنت صحيفة لوباريسيان اليوم أنّ بينيلوب فيّون لم تكن تملِكُ هناكَ مِفتاحاً إلكترونيّاً ولا علبة بَريدٍ إلكترونيّ".

الجديرُ ذكرُهُ أنّنا حرصنا على دقة نقل المصطلحَين القانونيّين الواردَين في النص الفرنسيّ، وهما:

1. تحريات: perquisition
2. الجمعيّة الوطنيّة: Assemblée nationale

خلاصة القول، إنّ ترجمة أخبار الحوادث جزءٌ من الترجمة القانونيّة من حيثُ المعنى، وجزءٌ من الترجمة الصحفيّة من حيثُ المبنى. لذا لابد للمترجم الذي يعمل في هذا المجال من إتقان أسلوب الصياغة الصحفيّة، والتمكنِ من المصطلحات القانونيّة باللغتين المنقول منها والمنقول إليها، واحترام الأفكار الأصليّة جميعها دون أي تعديل فيها، أو إغفال لها، أو زيادةٍ عليها.

3. ترجمة نصوصِ القوانينِ والمراسيم

ذكرنا آنفاً أنّ القانونَ مجموعة قواعدَ وأحكامٍ تضعها السلطة العليا لتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات وحماية حقوقهم. وهذه القواعد تردُ ضمنَ نصوص تشريعيّةٍ منها ما يُسمّى القوانين، ومنها ما يُسمى المراسيم. فالمرسومُ، بحسَب المُنجدِ في اللغةِ العربيّةِ المعاصِرة: "كتابة رسميّة يُصدِرُها رئيسُ الدولة في شأنٍ ما فتصبحُ قانوناً".[1] غير أنّ كلمة "قانون" يُمكِنُ أن تأخذ معنى يتخطى حدودَ دولةٍ مُعيّنة، ليُشيرَ إلى مجموعة القواعدِ التي تنظمُ علاقاتِ الدولِ ببعضها، وهو ما يُسَمّى "القانونَ الدوليّ العام".[2]

---

[1] حَشيمة، كميل إسكندر، **المنجد في اللغة العربيّة المعاصرة**، بيروت، دار المشرق، 2001، ص 553.

[2] المصدر نفسه، ص 1189.

عموماً، سواءٌ أكانت القوانين محلية أم دوليّة، فإنها صادرةٌ، شأنها شأن المراسيم، عن جهاتٍ رسميّةٍ عُليا، لها سُلطتُها وهيبتُها. لذا فإنها مَصوغةٌ بأسلوب راقٍ للغاية، تكون مفرداته منتقاة بعنايةٍ فائقة، وبعيدة تماماً عن كل ما يمكنُ أن يبدو سوقياً أو مبتذلاً. أما الجملُ فطويلة، مرَكبة، تتداخلُ أجزاؤها فيما بينها، مما يُحتمُ الاعتناءَ المطلق بعلامات الترقيم حرصاً على وضوح المعنى أمامَ القارئ.

إنّ هذه الصياغة المتينة المُتقنة تفرض على المترجم أخذَها بعين الاعتبار لدى كتابته ترجمة قانونٍ ما. فأمانة نقل المعنى ودقة ترجمة المصطلحات القانونيّة ضروريّتان في هذا المجال، لكنهما لا تكفيان إن أهملَ المترجم أسلوب صياغة النص الهدف، لأنّ الأمرَ متعلقٌ بوثيقةٍ صادرةٍ عن سلطةٍ وطنيّةٍ أو دوليّةٍ عليا لها هيبتها ومكانتها. فلنتناول مثلاً فقرة من أحد القوانين الصادرة في فرنسا بتاريخ 4 آب 1994:

«Dans la désignation, l'offre, la présentation, le mode d'emploi ou d'utilisation, la description de l'étendue et des conditions de garantie d'un bien, d'un produit ou d'un service, ainsi que dans les factures et quittances, l'emploi de la langue française est obligatoire.»[1]

تتألف الفقرة الواردة آنفاً من جملة واحدة طويلةٍ ممتدةٍ على أربعةِ أسطر، تبدأ بمفعول فيه ظرف مكان طويل يتضمن تعداداً لستة عناصرَ:

«Dans la désignation, l'offre, la présentation, le mode d'emploi ou d'utilisation, la description de l'étendue et des conditions de garantie d'un bien, d'un produit ou d'un service, ainsi que dans les factures et quittances (…)»

يلي ذلك الفاعلُ أو المُسنَدُ إليه l'emploi فالمضاف إليه de la langue française فالفعل est فالمُسنَد obligatoire إنّ ابتداءَ الجملة بتعدادٍ طويل، وتأخرَ ورودِ الفاعل يُصعّبان على القارئ فهمَ المضمون، ويتطلبان منه تركيزاً شديداً متواصلاً كي يستوعب الفكرة، وهذا أحدُ أبرز صفات أسلوب الصياغة الراقي، علماً أنّ الفقرة الفرنسيّة المذكورة خالية من أية عبارة سوقيّةٍ أو

[1] « Loi du 4 août relative à l'emploi de la langue française – Version consolidée », [En ligne], mis en ligne le 5 août 1994, consulté le 3 octobre 2020. URL : https://www.journal-officiel.gouv.fr/

مبتذلة، وأنّها تتضمّن الكثيرَ من الفواصل التي تمنع تداخل الأفكار فتزيد المعنى وضوحاً. إنّ هذه التفاصيلَ الشكليّة أساسيّة بالنسبة للمترجم، لأنّ النص فقرة مأخوذة من قانون صادر عن أعلى سلطة في فرنسا، لكنّ مراعاة هذه النواحي الشكليّة في الترجمة لا تعفي المترجم من ضرورة البحث الدقيق عن مقابلات المصطلحات القانونيّة الواردة في الجملة الأصليّة، إضافة إلى الأمانة المطلقة في نقل معناها. وكي نوضح أكثرَ واجبات المترجم في هذا الصدد، سنسرد ترجمتنا للجملة الفرنسية المذكورة:

"يجبُ استعمال اللغة الفرنسيّة لدى تحديدِ سِلعةٍ، أو مُنتجٍ، أو خِدمةٍ، ولدى عرضِ أيٍّ منها، وتقديمِهِ، وتوضيحِ طريقة استعماله أو الاستفادة منه، ووَصفِ امتدادِهِ وشروط كفالتِهِ، إضافة إلى الفواتير وبراءات الذمة."

يتضح جلياً في ترجمتنا أننا حرصنا على وضع مقابل عربيّ مؤلفٍ من جملةٍ واحدةٍ طويلةٍ: فهي تمتد على قرابة ثلاثة أسطر. كما أننا عدّدنا العناصر الستة المذكورة في الجملة الأصليّة مستعينين بحرفي العطف (الواو) و(أو) مراعاة لأسلوب التعداد المتبع عادة في اللغة العربيّة، أي إننا ابتعدْنا عن الترجمة الحرفيّة برغم سعينا لتحقيق التكافؤ بين أسلوب صياغة الجملة الفرنسية الراقي وأسلوب صياغة الترجمة العربيّة. وفي هذا السياق، ابتدأنا هذه الأخيرة بالفعل، خلافاً لما هو عليه الحال في الجملة الفرنسيّة، إذ بدا لنا هذا أكثر انسجاماً مع أساليب التعبير باللغة العربية وضماناً لعدم وقوعنا في فخ ركاكة التعبير. وعلى غرار الجملة الفرنسيّة، أكثرنا من وضع الفواصل كي نزيد وضوح المعنى ونمنع تداخل الأفكار في ذهن القارئ. ويمكن لكل من يقارن الجملتين الفرنسيّة والعربيّة أن يلاحظ أمانة نقل المعنى ودقة ترجمة المصطلحات التخصصية. نسوق على ذلك الأمثلة الآتية:

1. شروط كفالة: conditions de garantie
2. سِلعة: bien
3. براءات الذمة: quittances

طبعاً، نحن لا ندّعي أنّ ترجمتنا هي المثلى أو الفضلى، لكنها إحدى الترجمات الصحيحة التي يُمكنُ أن توضّحَ أسسَ نقل نصوص القوانين من لغةٍ لأخرى، وهي: أمانة نقل المعنى، ودقة ترجمة المصطلحات التخصصيّة، وصياغة الترجمة بأسلوب راقٍ مكافئٍ لأسلوب النص الأصليّ.

غير أنّ على المترجم مراعاة قضايا شكلية أخرى أثناء نقله نصوص القوانين والمراسيم. ففي الجمهوريّة العربيّة السّوريّة، تُستعمل الأرقام الهنديّة (1-2-3.. إلخ) لترقيم القوانين والمراسيم، كما يُذكرُ رقمُ القانون أو المرسوم، ثم توضع عبارة "لِعام" ثم يوضع التاريخ الميلاديّ، وأحياناً يوضَع التاريخان الهجريّ والميلاديّ. مثال: "المرسوم رقم 153 لعام 2011".[1] أما في الجمهوريّة الفرنسيّة، فتستعمل الأرقام العربيّة (1-2-3.. إلخ) لترقيم نصوص القوانين والمراسيم، ولا يُذكر رقم القانون أو المرسوم منفرداً، بل يُذكرُ مسبوقاً بتاريخ صدوره، ثم توضع عبارة promulgué en التي تعني "الصادر في" ثم يُعادُ ذكرُ سنة صدور القانون أو المرسوم. وبناءً عليه، يُترجَمُ المثالُ العربيّ الوارد آنفاً كما يلي:

«le décret 2011-153 promulgué en 2011»

ويتم ترقيم موادّ وبنود وفقرات القوانين والمراسيم في الجمهوريّة العربيّة السوريّة باستعمال الأرقام الهنديّة أو الأحرف الأبجديّة العربيّة. لكنّ القوانين والمراسيم الصادرة في الجمهوريّة الفرنسيّة أقل مرونة في هذا الصدد. فالموادّ مرقمة باستعمال الأرقام العربيّة، والبنود مرقمة باستعمال الأرقام الرومانيّة (I-II-III-IV…)، والفقرات مرقمة باستعمال أرقامٍ عربيّةٍ يلي كلاً منها دائرة صغيرة (1°-2°-3°…)، وبالطبع على المترجم مراعاة هذه النواحي لدى نقله نصوص القوانين والمراسيم بين العربيّة والفرنسيّة.

من جهةٍ أخرى، تبدأ جميع القوانين والمراسيم الصادرة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة بصيغة ثابتة، مؤلفة من عدة أسطر. ففي السطر الأول عبارة "رئيس الجمهوريّة"، وفي كل واحد من

[1] المرسوم رقم 153 لعام 2011 المتضمن نظام امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة بفروعها"، [على الشابكة]، وُضِعَ على الشابكة عام 2011، تاريخ الدخول إلى الصفحة 3 تشرين الأول 2020. الموقع: http://parliament.gov.sy/

الأسطر التالية الأسس القانونيّة التي يستند إليها رئيس الجمهوريّة لإصدار القانون أو المرسوم، يلي ذلك سطرٌ يتضمّن العبارة الآتية: "يُصدِرُ ما يلي". فالقانون رقم 33 لعام 2017 مثلاً يبدأ بعبارة "رئيس الجمهورية" التي ترد في السطر الأول، وفي السطر الثاني عبارة "بناء على أحكام الدستور"، وفي السطر الثالث عبارة "وعلى ما أقره مجلس الشعب في جلسته المنعقدة بتاريخ 1439/2/3 هجري الموافق 2017/10/23 ميلادي"، وفي السطر الرابع عبارة "يُصدر ما يلي".[1] أما القوانين والمراسيم الصادرة في الجمهوريّة الفرنسيّة فتبدأ أيضاً بصيغة ثابتة، لكنها مختلفة شكلاً عن الصيغة العربيّة السوريّة. فمثلاً لترجمة الصيغة الافتتاحيّة الواردة في القانون رقم 33 لعام 2017، يجب أن نضع في السطر الأول عبارة: Le Président de la République متبوعة بفاصلة، وفي السطر الثاني عبارة Vu la Constitution متبوعة بفاصلة، وفي السطر الثالث عبارة Vu l'approbation de l'Assemblée du Peuple dans sa séance tenue le 3-2-1439 de l'hégire – le 23-10-2017 du calendrier grégorien متبوعة بفاصلة، وفي السطر الرابع عبارة Promulgue la loi dont la teneur suit متبوعة بنقطتين فوق بعضهما، علماً أن كل واحدة من العبارات الأربع المذكورة آنفاً تبدأ بحرف كبير.

باختصار، أمانة نقل المعنى ودقة ترجمة المصطلحات أمران أساسيّان في عمل المترجم عندما يكون النص الأصلي قانوناً أو مرسوماً، لكن عليه ألا ينسى ضرورة مراعاة النواحي الشكلية المتعلقة بالترقيم، والصيغ الافتتاحيّة، وأسلوب الكتابة الراقي.

4. ترجمة الدّستور

الدّستور، وفقاً لما وَرَدَ في المُعجم الوسيط، هو القاعِدة التي يُعمَل بمقتضاها، والدفترُ الذي تكتبُ فيه أسماء الجُند وأجورُهم، أما في الاصطِلاح المُعاصِر طِبقاً لتعريفِ المُعجم الوسيط،

[1] "الرئيس الأسد يصدر قانوناً ينظم إعادة تكوين الوثيقة العقارية المفقودة أو التالفة"، [على الشابكة]، وُضِعَ على الشابكة في 1 تشرين الثاني 2017، تاريخ الدخول إلى الصفحة 3 تشرين الأول 2020. الموقع: http://syrianownews.com/

فالدستورُ هو مَجموعة القواعِدِ الأساسيّة التي توضحُ شكلَ الدولةِ ونِظامَ الحُكمِ فيها ومَدى سُلطتِها على أفرادِها.[1]

لكنّ المُنجدَ في اللغةِ العَرَبيّةِ المُعاصِرة يُشيرُ إلى أنّ "الدّستورَ" كلمة فارسيّة تعني ما يلي:

آ. القاعِدة التي يُعمَلُ بمُقتضاها: "دستورُ جَمعيّةٍ"

ب. الإجازة أو الإذن: "أمَرَهُ بألا يُعطيَ أحداً دُسْتوراً بالدّخول عَليه"

ج. مَجموعة رَسميّة للأدوية التي تسمحُ بها الهيئاتُ المُختصّة وهي تتضمّنُ وَصفَ الأدويةِ وتركيبِها

د. مجموعة قواعِدَ أساسيّة تبَيّنُ شكلَ دولةٍ ونِظامَ الحُكمِ فيها وتحَدِّدُ العلاقاتِ بَينها وبَينَ الأفراد: "دُسْتورُ دَولةٍ"، "قانونٌ مُطابقٌ للدّستور"[2]

بناءً على ما تقدّم، نستطيعُ القولَ إنّ الدستورَ نصّ يُعَرِّفُ بهُويّةِ دَولةٍ ما (قوميّتها، ولغتُها، وحُدودُها)، ويَشرَحُ طبيعة النظام السّياسيّ والاقتِصاديّ والاجتماعيّ فيها، ويُبيِّنُ سُلطاتِ الحُكم داخلها وآليّة عَمَل كلّ منها وعلاقاتِ الواحِدةِ مِنها بالأخرى، وربما تعدى النص الدستوري كل ذلك شارحاً الدورَ الذي تتوخى الدولة المَعنيّة الاضطِلاعَ به سواءٌ على السّاحةِ الدوَليّة أو في سبيل دفع عجلةِ التقدّم البَشريّ إلى الأمام. إنّ دستورَ دولةٍ ما، هو باختِصار، بطاقة تعريفٍ بها.

لكنّ قراءة مُتأنية لدساتير مُختلفِ بلادِ العالم تظهِرُ أنّ كلاً مِنها لا يقتصِرُ على تقديم الدولة الحاكمة، بل يُمثّلُ أيضاً مِرآة ترتسِمُ عليها مَلامِحُ حَضارةٍ بكمالها (جُذورُ الشعب، وثقافته، ومُعتقداتهُ، ومُيوله، وطريقة تفكيره).

فإذا أخذنا على سبيل المثال دُستورَ الجُمهوريّة العربيّة السّوريّة، اتضح لنا منذ الكلماتِ الأولى أنّ هذا البلدَ متمَسِّكٌ بانتمائه إلى الأمّة العربيّة، وأنّ هذا الانتِماءَ يُمَثّلُ أساسَ الدّستور ومِحوَرَ

[1] د. أنيس، د. منتصر، الصّوالحي، أحمد، **المعجمُ الوسيط**، بيروت، دار الفكر، 1998، ص 306.

[2] حَشيمة، كميل إسكندر، **المنجد في اللغة العربيّة المعاصرة**، بيروت، دار المشرق، 2001، ص 462-463.

سياسات القطر العربيّ السّوريّ في كافة مجالاتِ الحياة.[1]

أمّا دستورُ الجُمهوريّةِ الفرنسيّة، فحافِلٌ بالقواعِدِ والضوابطِ والتوجيهاتِ، وهذا أمرٌ مُنبَثِقٌ مِن العقليّة الدّيكارتيّة التي يَتسمُ بها الشعبُ الفرنسيّ، والتي تميلُ إلى الإكثار من التنظير في كافة الميادين، وضبط أي تصرّف أو إجراء بقواعِدَ مُفصّلة توضح طريقة العمل وأسلوبَ التصرف مَنعاً لحُدوث أيّ خلل.[2]

استناداً إلى ما سلف ذكرُه، لا يقتصِرُ الدستورُ على التعريفِ بدولةٍ ما وبنظامِها السياسي والاقتصاديّ والاجتماعيّ، بل هو صورة مُصغرة لحضارة شعب بتمامه وطريقةِ تفكيره وأسلوب عَيشِه. لذا لا غرابة أن تصاغَ النصوصُ الدستوريّة في العالم بأرقى مُستوى لغويّ، إذ إنها أوراقُ اعتِمادٍ تقدِّمُها كلّ أمّةٍ للتاريخ كي يَتقبّلها في سِجلّ خالدٍ، اسمُهُ.. الحَضارة الإنسانيّة.

لذا فإنّ نقلَ نصِّ أيِّ دُستور إلى اللغاتِ الأجنبيّة يُتيحُ تعريفَ الأممِ الأخرى بعَقليّة الشعب، ومُيولِهِ، ونِظامِهِ السّياسيّ، ومَذهَبِهِ الاقتِصاديّ، وطريقةِ تنظيمِهِ الاجتِماعيّ. وتسمَحُ ترجماتٌ كهذه لكلّ أمّةٍ بالاستفادةِ مِن تجارِب الأمم الأخرى، وتجنب العثراتِ التي اصطدَمَت بها، والتفاعُل مَعَ قيمِها الإيجابيّة الحَيّة. بعبارة أخرى، إنّ ترجمة الدّساتير، أو "الترجمة الدّستوريّة" إذا جاز القول، تمثّلُ جسراً من جسور التواصل بَين الشعوب، مما يَفرضُ على المترجم توخيَ الحدّ الأقصى من الدّقة والأمانة والموضوعيّة، إن على صعيد اللغة أو على صعيد المَضمون.

إنّ الموضوعيّة القصوى التي يَجبُ أن يتحلى بها المترجم لدى نقله نصّ دستور مِن لغة لأخرى، تفرِضُ عليهِ رهاناتٍ صَعبة، خاصّة عندما يتعامَلُ معَ دستور دولةٍ يَختلفُ نظامُها السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ ومُنطلقها الفكريّ العقائديّ إلى حَدٍّ بعيد عما هو قائمٌ في البلد الذي يُفترَضُ أن تُوجّهَ الترجمة إليه. فهل على المترجم، في هذه الحالة، أن "يُكيِّفَ" الأفكارَ الواردة في النص الأصليّ كي يَجعلها تُماشي ذهنيّةَ القارئ ونظامه السياسي والاقتصاديّ

[1] دستور الجمهوريّة العربيّة السوريّة، 2012، ص 5.

[2] «Constitution du 4 octobre 1958», [En ligne], dernière mise à jour le 1 décembre 2009, consulté le 3 octobre 2020. URL : https://www.legifrance.gouv.fr/

والاجتماعيّ وعَقيدته الفكريّة؟ إنّ الترجمة بأسلوب كهذا تقوِّضُ العملَ كليّاً، وتفرغه من مَضمونِهِ، وتجعله عديمَ الفائدة. فالغاية من ترجمة دستور دولة ما، كما أسلفنا، هي إطلاعُ شعب آخرَ على جوانبَ حضاريّة وسياسيّة واقتصاديّة لم يَعرفها ربما سابقاً، كي يستطيعَ الاستفادة منها إن استحسنها، أو تَجنُّبَها إن لم يَستسِغها. لذا، لا بُدّ للمترجم أن يُظهرَ للقارئ، بموضوعيّةٍ وتجرّدٍ، كلّ ما يَتسمُ بهِ النصّ الأصليّ من جوانبَ لم يألفها أو لم يَعهدْها ربما في دستور دولته. لكنّ هذا يَضعُ المترجمَ أمامَ تحدياتٍ صعبةٍ، لا تقتصِرُ على نقل المُصطلحاتِ الدّستوريّة، بل تتعدّاها إلى إظهار خلفيّة الدّستور الفِكريّةِ في الترجمة.

فكما أشرنا آنفاً، لا يأتي أيّ نصّ دستوريّ مِن العَدَم، ولا توضعُ قواعِدُهُ بمحض المصادفة، بل إنّه يَنبثِقُ مِن جُملةٍ مِنَ المبادئ والعقائدِ والاتجاهاتِ الأخلاقيّة، التي تمثّلُ مُجتمعة الخلفيّة الفِكريّة التي يَستنِدُ إليها المُشرّعون أثناءَ صياغتِهِم للدّستور. ولا شكّ في أنّ هذه المبادئ تتجلى في نصّ الدّستور مِن خِلال عِباراتٍ وتراكيبَ مُحَدّدة، تضفي عليهِ اتجاهاً فكريّاً مُعَيّناً، مِمّا يَفرِضُ على المترجِمِ التعاملَ بحَذر ودِقةٍ وأمانةٍ معَ هذه الصّيغ، خاصّة إن كانت تعكِسُ أفكاراً لا تلقى قبولاً واسِعاً في المُجتمَع الذي توجّهُ الترجمة إليه.

ففي مُقدّمة دستور الجمهوريّة العربيّة السّوريّة، ترِدُ الجُملة التالية: "وتعتز الجمهوريّة العربيّة السّوريّة بانتمائها العربيّ، وبكون شعبها جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربيّة".[1] إنّ المترجم الذي يُريدُ نقلَ هذه الجملة إلى اللغة الفرنسيّة، قد يَتساءَلُ حَولَ الترجمة المُثلى لِعِبارة "الأمة العربيّة": هل يَجبُ اختيارُ العِبارة الشائعةِ في وسائل الإعلام الفرنسيّة، وهي: le monde arabe التي تعني باللغة العربيّة: "العالم العربيّ"؟

للإجابة على هذا التساؤل، لابد من المقارنة بَينَ دلالةِ العِبارة العربيّة الأصليّة ضِمنَ سياق النصّ الذي ترد فيه، ودلالةِ الترجمة الفرنسيّة المُقترَحة، ليس فقط على المستوى اللغويّ، بل على المستوى السياسي أيضاً. إنّ عبارة "الأمة العربيّة" الواردة في الجملة المقتبسة آنفاً من الدستور

[1] دستور الجمهوريّة العربيّة السّوريّة، 2012 ص 5.

العربيّ السوريّ، تشير إلى ارتباط العرب جميعِهم بقوميّةٍ واحِدة لا تتجزأ، مما يؤكدُ حقهم في تحقيق الوحدة العربيّة، أي إقامةِ دولةٍ عربيّة واحِدة مِن المحيط الأطلسي إلى الخليج العربيّ.

أما الترجمة الفرنسيّة المقترَحة le monde arabe – أي "العالم العربيّ" – فهي تعني وجودَ قوميّاتٍ مُتعدِّدة ناطِقة باللغة العربيّة، أي أنها تعتبرُ اللغة العربيّة الرابط الوحيدَ بَينَ العرب، نافية روابطهم الأخرى كالتاريخ، والمصير، والجغرافية المتكاملة، والأعداء المُشتركين، وقبلَ كل شيء الانتِماء للأمة العربيّة. باختِصار، إنّ الترجمة الفرنسيّة المقترَحة le monde arabe – أي "العالم العربيّ" – تنفي وجودَ قوميّة عربية واحدة لا تتجزأ، وتتعارَضُ هذه العبارة من ثَم معَ حق العرب بإقامة دولةٍ عربيّةٍ واحِدة، أي إنّ هذه الترجمة الفرنسيّة تتناقض تناقضاً تاماً مع الدلالاتِ القوميّة والعاطفيّة والسياسيّة التي تحمِلها عبارة "الأمة العربيّة".

لكن، قد يَعترضُ البعضُ قائلين إنّ الفرنسيّين، وخصوصاً سياسييهم ووسائلَ إعلامهم، يُشيرون إلى المنطقة الجغرافيّة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربيّ باستعمال عِبارة le monde arabe وإنّ أيّة عبارة فرنسيّة أخرى قد يَستعملها المترجم لدى نقله نص الدستور العربيّ السوريّ ستبدو ربما غامضة أو مُبهَمة. إنّ ردّنا على هذا الاعتراض يتضمّن نقطتين:

آ. لا يُمكنُ ترجمة أيّة كلمةٍ بكلمةٍ تحمِلُ مَعنى مُناقِضاً لها، وإلا كانت هذه الترجمة غيرَ أمينة ومن ثَم خاطئة كليّاً

ب. لا يَستعمل الساسة والإعلاميون الفرنسيّون عِبارة le monde arabe أي "العالم العربيّ" عن جهل أو بمحض المصادفة، ففرنسا اصطنعت مع إنكلترا قبل أكثر من مئة عام حدوداً سياسيّة داخل الأمة العربيّة لتمزقها وتمنعها من النهوض بعد زوال الاحتلال العثمانيّ، وما فتئت فرنسا تحاول بكل قوتها الإبقاء على هذه الحدود بل زيادتها لتفتيت الأقطار العربيّة وتحطيمها. إذن لا يجوز لغويّاً، ولا أخلاقياً، تبني صيغة le monde arabe أي "العالم العربيّ" لترجمة عبارة "الأمة العربيّة" الواردة في الجملة المقتبسة من الدستور العربي السوري.

السؤالُ الذي يَطرَح نفسَه الآن هو: هل يَحِقّ للمترجم في هذه الحالة إدخالُ صيغةٍ جديدةٍ إلى

اللغةِ الفرنسيّة؟ الجواب بكل تأكيد نعم، خاصة إذا كانت هذه الترجمة تحملُ دلالاتٍ مَعنويّة ولغويّة تتطابقُ مع دلالاتِ الصيغة العربيّة الأصليّة. إنّ عبارة la nation arabe تشيرُ بوضوح إلى وجودِ أمةٍ عربيّةٍ واحِدةٍ، وإدراجُها في ترجمة الجملة المُشار إليها آنفاً والمُقتبَسة من الدستور العربيّ السّوريّ يَجعلُ عمَلَ المترجم دقيقاً، وأميناً، مما سيَسمَحُ بإطلاع القارئ الفرنسيّ على جوانبَ سياسيّة وأخلاقيّة تحاولُ وسائلُ الإعلام الفرنسيّة إخفاءها عنه منذ أمَدٍ بعيد، فتؤدي الترجمة بهذا دورَها الأخلاقيّ والحضاريّ، إذ إنها ستظهر للقارئ الفرنسيّ واقع الشعب العربيّ السوريّ وَفقاً لدستوره، وليسَ وَفقاً للقوالب الجامِدة التي تتكرر يومياً في الصِّحافة الفرنسيّة.

بناءً على ما تقدّم، يتضح جلياً أنّ تمكُّن المترجم من اللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها ضروريّ، لكنه لا يكفي كي يستطيع ترجمة دستور من لغة لأخرى. إذ لا بد من أن يكون قادراً على فهم الخلفيّة الفكريّة التي استندَ إليها واضعو الدستور، مما يتطلب ثقافة سياسيّة وتاريخية ثرّة، وحباً كبيراً للمعرفة والاطلاع، وحرصاً لا حدودَ له على التحلي بالأمانة والموضوعيّة.

5. ترجمة الوثائق الرّسميّة

ذكرْنا سابقاً أنّ المقصودَ بالوثائق الرسميّة الأوراقُ الثبوتيّة الصادرة عن الدوائر الحكوميّة، أي شهادات الميلاد، وإخراجات القيد، وعقود الزواج، وشهادات الوفاة، وخلاصات السجل العدليّ، والشهادات الجامعيّة، والوكالات القانونيّة. وتتضمن الوثائقُ الرسميّة أيضاً القراراتِ الصادرة عن الوزارات والإدارات المختلفة، إضافة إلى العقود التجاريّة المُبرَمة بين الأفراد أو الشركات سواءٌ أكانت تنتمي إلى القطاع العام أم إلى القطاع الخاص.

ولاشك في أنّ أمانة نقل المضمون المطلقة، ودقة التعامل مع المصطلحات التخصصيّة شرطان أساسيّان لنجاح ترجمة الوثائق الرسميّة. لكن ينبغي على المترجم ألا يُغفِلَ الدورَ الأساسيّ الذي يؤديه شكلُ هذه الوثائق، خاصة عند اختلافه من لغةٍ لأخرى ومن ثَمّ من دولةٍ لأخرى. إذ إنّ هذا الاختلافَ الشكليّ له انعكاسٌ على مضمون الوثائق الرسميّة لأنه ناجمٌ عن اختلافٍ في النظم السياسية والاجتماعيّة بين الدول. ففي الجمهوريّة العربيّة السوريّة مثلاً، تشير

شهادة الميلاد إلى دين كل واحدٍ من الأبوين، خلافاً لشهادة الميلاد الصادرة في الجمهوريّة الفرنسيّة، حيث لا تردُ أية إشارة لدين الأبوين. وسببُ هذا الاختلاف هو أنّ الدينَ الإسلاميّ مصدَرُ التشريع في سورية، أما في فرنسا فالدينُ مفصولٌ عن الدولة. وفي الوثائق الرسمية الصادرة عن الحكومة السوريّة، تحتفظ المرأة باسم عائلتها سواء أكانت متزوجة برجل من غير عائلتها أم لا. أما في الوثائق الرسمية الصادرة عن الحكومة الفرنسيّة، فإنّ المرأة المتزوجة تحمل اسمَ عائلة زوجها، مع إمكانيّة الإشارة إلى باسم عائلتها الأصلية إن أرادت ذلك. وسبب هذا الاختلاف هو حرص القانون في سورية على حرية المرأة واستقلالية كيانها حتى لو كانت متزوجة. أما في فرنسا، فرغم كل التشريعات التي صدرت في القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين للدفاع عن حرية المرأة، ما زالت هناك آثارٌ لعاداتٍ قديمةٍ تعتبر المرأة "مُلكاً" لزوجها.

إنّ المثالين السابقين دليلان على ضرورة مراعاة المترجم لهذه التفاصيل الشكلية التي لا يمكن فصلها عن مضمون الوثائق الرسمية. فعندما ينقلُ المترجمُ شهادة ميلادٍ سوريّة إلى اللغة الفرنسيّة، وتكون الترجمة موجّهة للسلطات الفرنسيّة، فلا مبرّرَ لذكر دين الأبوين، لأنّ هذا لا يَدخل في صلب اهتماماتِ الجهات التي توجَّهُ الترجمة لها. وعندما يتعلق الأمرُ بترجمة وثيقةٍ رسميّةٍ سوريّةٍ تخص امرأة متزوجة، وتكون الترجمة موجهة للسلطات الفرنسيّة، فعلى المترجم أن يُشيرَ بوضوح إلى اسم عائلة المرأة الأصليّة واسم عائلة زوجها، تفادياً لأيّ التباس قد يحصل لدى سفر صاحبة العلاقة إلى فرنسا. ولمزيدٍ من الإيضاح، سنضع شهادة ميلادٍ سوريّة مع ترجمتنا لها إلى اللغة الفرنسيّة، علماً أننا حصلنا على موافقة الأشخاص المعنيين الواردة أسماؤهم في الوثيقة المذكورة:

شهادة ولادة

اسم المولود	ترتيب المولود بالنسبة للأم	محل الولادة	تاريخ الولادة يحرر بالحروف على الغربي الغريغوري	جنس المولود ذكر أم أنثى

باسل	الأول	دمشق – قصاع	الساعة الثانية عشرة ظهراً يوم التاسع والعشرين من كانون الثاني سنة ألف وتسعمئة وثمانين	ذكر

والدا المولود

الاسم	النسبة	المهنة	المذهب	الجنسيّة	مكان القيد في السجل المدني	محل الولادة	تاريخ الولادة	محل الإقامة الفعلي	الحالة التعليميّة
الأب: سالم	علي	موظف	إسلام	عربي سوري	مشتى الحلو – بسدقين – 21	بسدقين	1940	دمشق/ قصاع	متعلم
الأم: منى	أحمد	موظفة	إسلام	عربيّة سوريّة	مشتى الحلو – بسدقين – 21	بسدقين	1946	دمشق/ قصاع	متعلمة

الشاهدان

الاسم والنسبة	الصنعة	العمر	الإقامة	التوقيع	اسم الطبيب المولد أو القابلة	الدكتور نسيب البيطار
محمد متعب دبوس	متقاعد	60	دمشق	محمد متعب دبوس	**مقدم الشهادة**	محمد فتحي كركوتلي
عبد الوهاب كركوتلي	ملاك	40	دمشق	عبد الوهاب كركوتلي	**صفته والتوقيع**	موظف لديه

أُصدِّق على صحة محتويات هذه الشهادة ما عدا حقلي ترتيب المولود والحالة التعليمية.

في الثالث من شهر شباط سنة ١٩٨٠

يفوض إلى السيد فتحي كركوتلي بتسجيل الولادة نظراً لغياب الأب خارج القطر

مختار محلة القصاع شمالي الكزبري

يوسف بن يعقوب إبراهيم

وإليكم ترجمتنا للوثيقة الواردة آنفاً:

ACTE DE NAISSANCE

1. ETAT : SYRIE **2. SERVICE DE L'ETAT CIVIL DE** QASSAH

3	**DATE ET LIEU DE NAISSANCE** Jo Mo An 29 01 1980
4	**NOM** ALI
5	**PRENOM** BASSEL
6	**SEXE** MASCULIN **7 PERE** SALEM **8 MERE** MOUNA AHMAD
9	**AUTRES ENONCIATIONS DE L'ACTE**
10	**DATE DE DELIVRANCE** Jo Mo An 03 02 1980 **SIGNATURE - SCEAU** MAIRE DE QASSAH YOUSSEF IBRAHIM

إنّ مقارنة بسيطة للنصين العربيّ والفرنسيّ توضح مراعاتنا للنقاط التالية في الترجمة:

آ. احترمنا أسلوب صياغة شهادات الميلاد في الجمهوريّة الفرنسيّة إذ وضعنا جدولاً واحداً فيه جميع البيانات التي تهم السلطات الفرنسيّة

ب. كل الكلمات الواردة في الترجمة الفرنسيّة مكتوبة بأحرف كبيرة طبقاً لما هو معمول به في شهادات الميلاد الفرنسيّة

ج. وضعنا الكلمات الرئيسيّة بالخط الأسود الغامق مثلما هي الحال في شهادات الميلاد الفرنسيّة

د. لم نأتِ على ذكر مذهب الأبوين برغم إشارة الوثيقة العربيّة إليه، وذلك لخلو شهادات الميلاد

الفرنسيّة من هذه المعلومة

هـ. لم نأتِ على ذكر الشاهدَين في الترجمة لعدم تضمن شهادات الميلاد الفرنسيّة إشارة للشهود

و. ميّزنا بوضوح بين اسم عائلة الأب واسم عائلة الأم في الترجمة تفادياً لأيّ التباس

ز. نقلنا بأمانة البيانات الشخصيّة المطلوبة كافة إلى اللغة الفرنسيّة.

الجدير ذكره أننا وجدنا على الشابكة العديد من شهادات الميلاد الصادرة عن السلطات الفرنسيّة، وهذا الأمر أتاح لنا الاستئناسَ بها قبل ترجمتنا لشهادة الميلاد العربيّة السوريّة الواردة آنفاً.[1] خلاصة القول، إنّ ترجمة الوثائق الرسميّة تتطلب دقة على مستوى الشكل وعلى مستوى المضمون.

الخاتمة

لن نبالغ بتاتاً إن قلنا إنّ هناك ترجماتٍ قانونيّة، وليس ترجمة قانونيّة واحدة. فكل نوع من أنواع الوثائق القانونيّة التي تُترجم له طبيعة خاصة، ووظيفة خاصة، وظروفٌ إداريّة وسياسيّة واجتماعيّة خاصة. وهذه كلّها عواملُ تتحكم بشكل الوثيقة القانونيّة ومضمونِها، مما يفرضُ على المترجم العمل على مستويَين: مستوى شكل الوثيقة القانونيّة، ومستوى مضمونها.

فأمانة نقل فحوى النص القانونيّ شرْط لا بدّ منه لنجاح المترجم في مهمّته. لكنّ هذا لا يكفي لإتمام عمله، إذ يجب عليه مراعاة القواعد الشكليّة المتبعة لدى صياغة الوثيقة القانونيّة المَعنيّة في اللغة المنقول إليها. وتتعلق هذه القواعدُ الشكليّة بأسلوب التعبير اللغويّ (الأسلوب الصحفيّ لدى ترجمة أخبار الحوادث، والأسلوب الراقي لدى ترجمة نصوص القوانين والمراسيم والدساتير)، كما تطالُ القواعدُ الشكليّة الصيغَ الافتتاحيّة في نصوص القوانين والمراسيم، وطرقَ ترقيمِها، إضافة إلى الجداول التي تتضمن البيانات الواردة في الأوراق الثبوتيّة كشهادات الميلاد، وشهادات الوفاة، وغيرها. ولا شكّ في أنّ احترامَ المترجم المطلقَ لقواعد النحو والصرف في اللغة الهدف

[1] «Acte de naissance : demande de copie intégrale », [En ligne], mis en ligne le 26 novembre 2019, consulté le 3 octobre 2020. URL : https://www.service-public.fr/particuliers/vosdroits/

أمرٌ لا غنى عنه. وفي هذا الصدد، تجدرُ الإشارة إلى ضرورة البحث الدقيق عن مقابلات المصطلحات التخصصية الواردة في النصوص القانونيّة، فهذه المسألة لا يُمكِنُ فصلها عن أمانة نقل فحوى النص الأصليّ.

باختصار، إنّ الترجمة القانونيّة، على اختلاف أنواعها، تستند إلى أربعة أسس هي: أمانة نقل أفكار النص الأصليّ، ودقة ترجمة المصطلحات التخصصيّة، وتحقيق التكافؤ بين أسلوب كتابة النص الأصليّ وأسلوب كتابة الترجمة، ومراعاة قواعد وأساليب عرض البيانات المتبعة في اللغة المنقول إليها.

إنّ هذه الأسسَ تتطلبُ الكثيرَ من المرانِ والخبرةِ والدقةِ والانتباه. فما هي أفضل أساليب تدريسِها في برامج تأهيل المترجمين؟ هذا هو السؤالُ الذي سوف نحاولُ الإجابة عنه في أبحاثنا القادمة، إن شاءَ الله.

لائحة المراجع العربيّة

- "الرئيس الأسد يصدر قانوناً ينظم إعادة تكوين الوثيقة العقارية المفقودة أو التالفة"، [على الشابكة]، وُضِعَ على الشابكة في 1 تشرين الثاني 2017، تاريخ الدخول إلى الصفحة 3 تشرين الأول 2020. الموقع: http://syrianownews.com/
- د. المالكي، حنان؛ د. البيطار، هيثم؛ د. اليافي، هنادي؛ د. حسن، ورد، العبارة والاصطلاح السياسي والصحفي (دراسة وترجمة)، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2018
- "المرسوم رقم 153 لعام 2011 المتضمن نظام امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة بفروعها"، [على الشابكة]، وُضِعَ على الشابكة عام 2011، تاريخ الدخول إلى الصفحة 3 تشرين الأول 2020، الموقع: http://parliament.gov.sy/
- د. أنيس، إبراهيم؛ د. منتصر، عبد الحليم؛ الصّوالحي، عطية؛ أحمد، محمد خلف الله، المعجمُ الوسيط، بيروت، دار الفكر، 1998
- د. حسن، ورد، الترجمة الدستوريّة – مشكلاتٌ وحلول، محاضرة أُلقيت في الندوة الوطنية للترجمة بمكتبة الأسد بدمشق، 2017
- د. حسن، ورد، التعريب بين الماضي والحاضر أحدُ أهم روافد مفرداتِ اللغة العربيّة، محاضرة أُلقيت في الندوة الوطنيّة للترجمة بمكتبة الأسد بدمشق، 2018
- حَشيمة، كميل إسكندر، المنجد في اللغة العربيّة المعاصرة، بيروت، دار المشرق، 2001
- دستور الجمهوريّة العربيّة السّوريّة، 2012

لائحة المراجع الفرنسيّة

- « Acte de naissance : demande de copie intégrale », [En ligne], mis en ligne le 26 novembre 2019, consulté le 3 octobre 2020. URL : https://www.service-public.fr/particuliers/vosdroits/
- « Constitution du 4 octobre 1958 », [En ligne], dernière mise à jour le 1 décembre 2009, consulté le 3 octobre 2020. URL : https://www.legifrance.gouv.fr/
- « Loi du 4 août relative à l'emploi de la langue française – Version consolidée », [En ligne], mis en ligne le 5 août 1994, consulté le 3 octobre 2020. URL : https://www.journal-officiel.gouv.fr/
- « Perquisition à l'Assemblée nationale », [En ligne], mis en ligne le 3 avril 2017, consulté le 3 avril 2017. URL : https://yahoo.fr/

مقالات مترجمة

الفلسفة والترجمة

أنطوني بيم

ترجمة أ.د. حميد العواضي

أستاذ اللسانيات والترجمة – جامعة صنعاء

اليمن

مقدمة المترجِم

هذا نص مهم في بابه من وجهين اثنين على الأقل: من جهة كاتبه وسمعته في ميدان علم التّرجمة ومن جهة موضوعه في بيان الالتباس الحاصل في علاقة الفلسفة بالتّرجمة. سأكتفي بالحديث عن المؤلف وأترك للقارئ النّظر في فحوى هذه الدّراسة للوقوف على نوع من "فصل المقال لما بين الفلسفة والتّرجمة من الاتصال" إذا جاز لنا اقتراض هذه العبارة العربية التّراثيّة.

فأمّا الكاتب فهو أنطوني بيم Anthony Pym رئيس الجمعيّة الأوربيّة لدراسات التَّرجمة، ومدير برامج الدّراسات العليا في التَّرجمة بجامعة روفيرا إي فيرجيلي Universitat Rovira i Virgili، طراغونا، إسبانيا. يشتغل على المقاربات الاجتماعيّة للتّرجمة والعلاقات بين الثّقافات. تشمل مؤلفاته بالفرنسيّة "نحو أخلاقيّة للمترجم (1997)، وباللّغة الإنجليزيّة "المنهج في تاريخ التَّرجمة" (1998) وله طبعة أخرى صدرت (2014)، وله أيضا " التفاوض على الحدود: المترجمون والثقافات في التاريخ الإسباني" (2000)، و"النَّص المتحرك: التوطين والتوزيع والتَّرجمة" (2004). و"الوجوه الثقافيّة والاجتماعيّة للترجمة والتَّرجمة الفوريّة" (2006). و"وضع مهنة التَّرجمة في الاتحاد الأوربي" (2013) و"استكشاف نظريّات التَّرجمة" (2014) وفي "أخلاقيات المترجم مبادئ الوساطة بين الثقافات" (2012). كما حرر مع آخرين ما "هو تاريخ التَّرجمة؟ مقاربة جديرة بالثقة". (2019) و"ما بعد علم التَّرجمة الوصفي" (2008) وكان أيضاً

رئيس تحرير (1988) L'Internationalité littéraire و(1990) Mites australians. وشارك في تحرير "التأهيل في التَّرجمة والتَّرجمة الفوريّة محاولة لإحصاء دولي" (1995). وهو زميل في مؤسسة كتلان للبحوث والدراسات المتقدمة، وباحث في معهد موتيري للدراسات الدوليّة.

أما في اللغة العربية فقد تَرْجَمَ له "عَلي كلفت" كتابَ "المنهج في تاريخ الترجمة" وصدر عام 2010 عن المركز القومي للترجمة في القاهرة. وهناك ثلاث مقالات ترجمتها المرحومة الدكتورة ملكة أبيض: "(اللّايقين) في التَّرجمة وطرق التعايش"، نشر في مجلة المعرفة، سوريا عدد 618 عام 2015؛ و"نموذج (التّمركز) في التَّرجمة" في نفس المجلة عدد 622؛ و"ماذا تعني النّظريّة في التَّرجمة؟" في مجلة التّعريب، سوريا عدد 46، عام 2014. (المعلومات عن ترجماته إلى العربيّة وغيره ممن ذكروا في المقال: انظر حميد العواضي "الفهرس العربي لأدبيات علم التَّرجمة"، 2020، مركز التراث والبحوث اليمني، توزيع مكتبة بيسان، بيروت).

حرصتُ على تحرير النّص بإضافة عدد معقول من الملاحظات، ليس لإيضاح طريقة التّرجمة، فكل ترجمة ينبغي أنْ تَبِين عن نفسها، ولكن لإيضاح بعض القضايا الثّقافيّة التي قد لا يعرفها القارئ غير المختص، وكذلك ربط أسماء مهمة بما يتوفر من معلومات عنها باللّسان العربي. كما استخرجتُ مصادر البحث ومراجعه من قائمة مراجع الكتاب الموسع الذي وردت فيه هذه المادة وهو: A Companion to Translation Studies تحرير Piotr Kuhiwczak and Karin Littau منشورات Multilingual Matters Ltd ، كندا – أمريكا ، 2007، ص 24-44. فجعلتها هنا مخصوصة بالبحث للتبصير والتقريب. وها هو نص المؤلف مُترجَماً:

عِلْمُ التّرجمةِ والفَلْسَفةُ الغربيّةُ

تترابط مُخْتلِفُ التّخصصات في العلوم الإنسانيّة فيما بينها بسلاسل من سلطات التّأثير. فاللّسانيّات الاجتماعيّة، على سبيل المثال، تتحدّر تاريخيّا من اللّسانيّات ومن علم الاجتماع فيما يخصّ سلطة مفاهيمها التّأسيسيّة. وكما أنّ اللّسانيات تتحدّر من فقه اللّغة، أو أنّه يمكن إرجاع علم الاجتماع إلى التّاريخ أو إلى علم النّفس أو إلى الاقتصاد السّياسيّ. وتُتِيحُ هذه السّلاسلُ أنْ

تُستَعارَ المفاهيمُ، ومن ثمّة يتم تناقلها باستمرار. كما أنّ هذه السّلاسل تسمح أيضاً بإرجاع سلطة التّأثير إلى الاختصاص الّذي تحدّرت منه، وبالتّالي يستمر تناقل هذه السّلطة نفسها عبر اختصاصاتنا.

ويتيح لنا هذا الإطار جعلَ الفَلْسَفة الغربيّة مثاليّةً بوصفها مجموعةً من الخطابات الّتي لا تَسْتَعِير جِهاراً سلطتَها من تخصّصات خارجه عنها. بل إن شئت قُلْ إنّها مكانُ قد يتمّ فيه وضعُ المصطلحات والمفاهيم وصَقْلُها لاستخدامها في تخصّصات أخرى؛ وإنّها قد تعمل بشكلٍ متميّزٍ في خدمة سِوَاها من الاختصاصات. وبشكل أكثر واقعيّة، فإنّ ضروب الخطاب الفَلْسَفيّ تُشكّل بالطّبع مكاناً يتمّ في نطاقه الدّاخليّ تداول سلطة التّأثير، حيث يتعلّم الفلاسفةُ أَنْ يقرؤوا وأنْ يُعِيدوا قراءة الفلاسفةِ والمدارس والتّقاليد، كما يمكن، في الوقت نفسِه، أن يتدفّق إلى داخله نمط من سلطة التّأثير من أيّ اختصاص يبدو أنّ فيه تطويراً لحدود المعرفة.

ويتيح لنا الإطار العام هذا أيضاً أن نفترض أنّ علم التّرجمة، بوصفه اختصاصاً، يحتاج أن يتّكِئ على ضروبِ الخطاب الفَلْسَفيّ، ويعتمدَ، بلا مِراء، على العديد من التّخصّصات الوسيطة الأخرى.

وبالتّالي قد تتصل ضروب الخطاب الفَلْسَفيّ بعلم التّرجمة اتصلاً من ثلاث وجهات على أَقلّ تقدير، إذْ:

1. استخدمَ الفلاسفةُ من مُخْتلِف المشارب التّرجمة بوصفها دراسةَ حالةٍ أو صورةً مجازيّة لقضايا ذات تطبيق أعمّ.
2. اِتّكأَ مُنَظِّرو التّرجمة وممارسُوها على ضروب الخطاب الفَلْسَفيّ لدعم أفكارهم وإسناد سلطتهم.
3. علّقَ الفلاسفةُ والعلماءُ والمترجمون على ترجمة أنواع الخطاب الفَلْسَفيّ.

ونظراً إلى كون السّلطة تبدو وكأنّها تنساب من الفَلْسَفة باتجاه علم التّرجمة أكثر من كونها عَكْساً لهذا الاتجاه، فإنّ سياسة هذه العلاقات تختلف تماماً في كلّ حالة من الحالات المذكورة آنفاً. وعليه فإنّنا هنا سننظر في تطوراتها بشكل مستقل، على الرّغم من أنّها تاريخياً عمِلت جنباً

إلى جنب في نطاق الإبيستيمولوجيات العامة للعلوم الإنسانيّة.

التّرجمةُ بوصفِها مِثالاً للفَلْسَفة

لا تتوفر الفَلْسَفةُ الغربيّةُ على خطابٍ تقليديّ بشأن التّرجمة. وواقع الأمر يشير إلى أنّ مصطلح "التّرجمة" غائبٌ عن معظم الموسوعات المتخصّصة والمعاجم. ولا يكاد هذا المفهوم أنْ يؤدّي أيَّ دورٍ في الخطاب الفَلْسَفيّ اليونانيّ (كما لاحظ روبنسون Robinson, 1992, 1997b: 225-238)، كما يبدو أنّه لم يتم فعلُ الكثير على مرّ القرون لتلافي هذا السَّقْط. قد يُعزى شيوع هذا الاستبعاد، في تفاوته حِدّةً أو خِفةً، إلى عمق النّزعة المركزيّة العرقيّة، وإلى الموقف الّذي يَعُدُّ جميعَ اللّغاتِ الأجنبيّة "بربريّةً" (من اليونانيّة barbaros أي الأجانب). ومن الممكن النّظر إلى الاستبعاد على أنّه قد امتد ليطال أيضاً الثّقافة الرّومانيّة (وما لدينا من تعليقات هوراس Horace وسيشرون Cicero تُعْنَى بالشّعر الدّراميّ والخطابة، وليس بالفَلْسَفة)، كما امتد هذا الاستبعاد ليطال في واقع الأمر كثيراً من تراث العصور الوسطى. عندما يَأخذُ فيرمير (Vermeer 1996)، على سبيل المثال، خلاصاتِ رامون لول Ramon Llull أو توما الأكويني Thomas Aquinas، ويطوّر نظريّاتٍ للتّرجمة كان يمكن لهؤلاء المفكرين أنْ يُنْتِجوها، فإنّ إنجازه في تفسير ذلك هو ببساطة طرح سؤال عن لماذا لم يُنْتِج مفكرو العصور الوسطى نظريّاتِ ترجمة. حاول روبنسون Robinson (1996, 1991) تَتَبّع قمع التّرجمة من أيام النُّقُول الثّقافيّة المصريّة واليونانيّة إلى روما، ثم عبر حِقب ممالك القمع المسيحيّة. ويمكن العثور على شيء مشابه عند مِشونيك Meschonnic (1999: 32-34) عندما يجادل بأنّ أوربا هي القارّة الوحيدة الّتي تأسّست ثقافتها على التّرجمات (من اليونانيّة لِفلسفتها، ومن العِبريّة لِدينها) وأنّها أخفت باستمرار أصول تلك التّرجمة من خلال التّعامل مع التّرجمات كما لو كانت أُصولاً. أمّا برمان (Berman 1984: 59, 1985: 88) نقلاً عن شليغل Schlegel) فقد قدَّم نفس النّقد للثّقافات الإسلاميّة التي تمّ في نطاقها افتراض تدمير الأصول بمجرد الانتهاء من التّرجمة. أي أنّ التّرجمة شيء يجب إخفاؤه، لا التّنظير بشأنه. ومن هنا كان مَأتَى الصّمت المعتاد لدى الفلاسفة.

ومع ذلك، يجب توخي الحذر الشّديد عند رسم ثقافاتٍ برمّتها بفرشاةٍ كبيرة. فهناك سببان آخران على الأقل قد يُفسّران هذا التّحفظ.

أولاً: كان إنتاجُ الأفكارِ الجديدةِ ونشرُها، في معظم التّاريخ الغربي، نشاطاً سياسياً خطيراً. ولم يكن الفلاسفةُ دائماً إلى جانب السّلطة. وفي بعض الظّروف، كان من الملائم تقديمُ نصوصٍ جديدة كما لو كانت ترجماتٍ أَتَتْ من بعيد (أي أنّها ترجماتٌ زائفةٌ)، ولو فقط لحماية المؤلّف. وهذا ما قد يُفَسِّر الشّكَ بشأن الأعداد الكثيرة من التّرجمات الفلسفيّة الّتي لا يمكن العُثور على أُصولٍ لها – وليس ذلك حصراً في التّقاليد الإسلاميّة (انظر بدوي، Badawi, 1968).

ثانياً: كان انتقالُ الأفكارِ خلالَ مدةٍ طويلةٍ من العصور اللّاتينيّة محكوماً بتسلسلٍ هرميّ للّغات. ففي الأعلى كانت لغاتُ الوحي الإلهيّ (العبريّة، اليونانيّة، العربيّة، السّنسكريتيّة، لدى البعض)، ولغاتُ التّنوير الوسيطة (لا سيّما اللّاتينيّة)، ثم اللّغات القُطْرِيّة Vernacular المكتوبة (الإنجليزيّة، الفرنسيّة، الألمانيّة، إلخ)، دون أنْ يُأخذ بالحسبان ما تَبَقّى من اللّغات المنطوقة الدّارجة patois. وكانت هذه الفكرة بقوتها البيِّنة تَسْتَبْطِن العديد من خطابات المترجمين (حيث تكثر مجازات التّواضع في المقدّمات)، كما تُفْصِح عن العديد من الصور المجازيّة عن التّرجمات باعتبارها منتجاتٍ رديئةً، بالنّظر إلى أنّ الاتجاه عادةً ما يكون من اللّغات المرموقة إلى الأدنى منها. وبما أنّ التّسلسل الهرميّ وَضَعَ التّرجمة نفسها بوصفها نشاطاً أدنى، فإنّ النّتيجة لم تكن جديرةً بالمناقشة اللّائقة بها. هل ينبغي لنا حقاً أن نندم على غياب "فلسفة ترجمة" تقليديّة عظيمة؟ لربما يندم المرء أيضاً على النّقص التّاريخيّ لـ "فلسفة الأَثَاث" – الموجودة عند [ادغار النّ] بو[1] (2004) ولكن ليس في أي مكان آخر.

[1] Edgar Allan Poe هو كاتب وشاعر وناقد أمريكي (1809-1849) له إسهامات هامة، وتفرد بكتابة مقالة عن "فلسفة الأثاث" نشره عام 1940 وفيه عَدَّ الأثاث الداخلي نوعًا من أنواع الفن. ورأى أن الانجليز يتفوقون على الإيطاليين والفرنسيين والصّينين وغيرهم في هذا الباب. ولم يقع تناول هذا الفن فلسفيًا من غير بو، كما يقول الكاتب هنا. (المترجم)

فقط بمجرد إعادة تقييم علاقة اللّغات القُطْرِيَّة باللّاتينيّة، كان من الممكن النّظر بعين الإجلال إلى نشاط المترجم باعتباره موضوعاً للتّفكير الجاد. وقد بدأت هذه العمليّة في عصر النّهضة بمنزعها الإنسانيّ في القرن الخامس عشر، حيث أصرّ ليوناردو بروني Leonardo Bruni بنجاح على الأناقة في التّرجمات. ثم زادت التّرجمة رِفْعَةً حين اعتلت ظهر القوميّات الأوربيّة الصّاعدة، اعتماداً على فكرة وجود لغاتٍ قويّة لجميع الأغراض نَشَأ بينها ما يُشبه التّكافؤ قَبْلَ وقت طويل من استخدام المصطلح نفسه. وبلغ نمط التّفكير العام هذا درجة عالية حين قَوِي عودُ الرّومانسيّة الألمانيّة.

لقد نَظَرَ فيلهلم فون هومبولت (1836) Wilhelm von Humbolt إلى جميع اللّغات على أنّها تعمل بنفس الطّريقة، حيث تقوم بِسَبْك المفاهيم في وجهاتِ نظرٍ متكاملةٍ عن العالم. جاء ذلك نتيجة لاتساع في عالم المفاهيم، أولاً من خلال المقياس الزّمنيّ الهائل للجيولوجيا (راجع فوكو، Foucault, 1966)، ثم من خلال رحلات الاستكشاف. كان هومبولت يبحث في لغاتٍ مثل لغة الكيشوا Quechua واللّغة الباسكيّة Basque[1]، خارج شبكات التّرجمة المعمول بها، والثّقافات، مثل الألمانيّة، الّتي كانت في غِمار عمليّة تطور تاريخيّ. لم تكن النّتيجة إعادة تقييم للفروق الثّقافيّة فقط باتجاه الأعلى (عكس التّسلسل الهرميّ للقرون الوسطى)، ولكن أيضاً الوعي بكيفيّة استخدام التّرجمة لتحسين وَسَنِّ معايير للغات المستهدفة (مُماشاةً للتّسلسل الهرمي). هذا التّناقضُ التّاريخيّ أخفى عن الأنظار إلى حد بعيد الاحتمال المنطقيّ أنه، لمّا كانت للّغات وجهاتُ نظرٍ مختلفة عن العالم، فإنّ التّرجمة بأيّ معنى مثالي يجب أن تكون مستحيلةً (وهذا ما سيكون موضع جدل عِنْد وَلْتَر بنيامين Walter Benjamin ولسانيّات القرن العشرين).

وبدلاً من هذه المشكلة، نجد هومبولت، جِنباً إلى جنب مع شليرماخر Schleiermacher

[1] لغة الكيشو هي لغة يتكلمها في أمريكا الجنوبيّة شعب الكيشو لا سيّما في جبال الانديز والبيرو. أما اللّغة الباسكية فهي لغة يتكلمها شعب الباسك في شمال وشرق إسبانيا وجنوب غرب فرنسا وهي لغة لها خصوصية بالقياس إلى اللّغات الّتي سادت في أوربا. (المترجم)

وآخرين يركّزون على أولويّات تغريب التّرجمة (verfremdend) عوضاً عن تدْجِينها (verdeutschend). وهذا يعني اشتراط قراءة التّرجمة بوصفها ترجمةً، وليست مِثْلَ نصّ آخر في اللّغة – الهدف. هل ستكون النّتيجة مجرد أخلاطٍ مشوشةٍ من التّرجمات؟ بالنّسبة لشليغل Schlegel، فإنّ الحماية من هذا التّطرف تقتضي البحث عن خطوط مفاهيميّة للفصل بين "الغَرابة (Fremdheit)" في التّرجمة وما يمكن أنْ يكون ذا قيمة بوصفه "أجنبياً" (das Fremde) (برمان، Berman1984: 246–7؛ 1992: 154). لربما ستسمح، مثل هذه الفروق من النّاحية النّظريّة للتّرجمات أن تُسهم في تطوير اللّغة والثّقافة الألمانيّتين (اللتين كانتا لا تزالان بحاجة إلى درجة معيّنة من تطابق مثالي بينهما) في نفس الوقت الّذي مَيَّزت هذه الفروق التّرجمات بوصفها نوعاً منفصلاً من النّصوص، ربما تختلف عن النّص القوميّ الحقيقيّ (فإنّ البعض الآخر، ولا سيّما ليفي Levý ، سيختار لاحقاً فكرة التّرجمات بوصفها نوعاً أدبياً منفصلاً). وخفاء هذا التّنظير لم يكن مصدرَ قلقٍ حصري للتّرجمة بل لسلسلة من الأفكار حول التّطور المستقبليّ لثقافة قوميّة معيّنة.

يمكن تتبع تراث الرّومانسيّة الألمانيّة بتعقيداته في مسارين. الأول سيعتمد ربما على المعارضة الأساسيّة لأنماط تدجين التّرجمة. فإذا كان التّدجين هو المعيار للثّقافة المهيمنة والمرموقة، فإن الإصرار الألماني على التّغريب يمكن أن يكون مثالياً من النّاحيّة الأخلاقيّة، بوصفه نمطاً من الانفتاح الّذي يرُحِب بالآخر بدلاً من أنْ يستبعده. وهكذا تصبح نظريّة التّرجمة طريقةً للحديث عن قضايا الحمائيّة الثّقافيّة. إنّ ثُنائيّة الرّومانسيّة الألمانيّة هي الأساس الّذي ارتكز عليه كتاب أورتيغا غاست Ortega y Gassett "بؤس التّرجمة ومجدها" Miseria y esplendor de la traducción (1937/2000)، وكانت أخلاقيات التّغريب قد لقيت هوى عند عدد من المثقفين، وغدت بمثابة كَفّارة محدودة عن الموقع الّذي حَازُوه في نطاق تلك الثّقافات المهيمنة. ففي اللّغة الفرنسيّة، التّقطها مِشونيك (1999/1973) في فرادة فكريّة أصرّ بموجبها على نقل إيقاع الأصل؛ وهو ما فتح الطّريق أمام نقد أنطوان برمان (1984) الشّامل للممارسات النّصيّة ذات المركزيّة العرقيّة. وفي اللّغة الإنجليزيّة، يمكن العثور على طريقة التّفكير ذاتها في

نقد فينوتي[1] Venuti الأولي (1995 ,1998-b) لـ "لطلاقة" في التّرجمة. وفي جميع هذه السّياقات، فإنّ المناقشات المختلفة اهتمت بتأثير التّرجمات على اللّغات – الهدف وثقافاتها.

أما الإرث الثّاني للرومانسيّة الألمانيّة فقد يكون التّأويل العام الّذي دأبت عليه والّذي ينساب عبر كل هذه السّياقات. وفحوى الحجاج هنا هو حول طبيعة النّص–المصدر أو المؤلِف المُتَرْجَم له. وبمجرد أنْ يضع المرء ثنائيتي التّرجمة، يجب عليه أنْ يدرك أنّ هناك أكثر من طريقة للقيام بالتّرجمة. وبالتّالي يصبح وضع النّص المصدر وضعاً إشكالياً. فلا يمكن لأي نصّ أنْ يعطي جميع المعلومات اللّازمة لنقله بِكَلِّه وكَلْكَلِه؛ وبالتّالي فإنّ جميعَ النّصوص مفتوحةٌ إلى حد معيّن على تنافس التّفسيرات. ثم يغدو السّؤال كيف، وبأي درجة من الثّقة، يمكن للمرء أنْ يفترض أنّه قد فَهِم الشّيء الّذي ستتم ترجمته. وهو سؤال في صلب علم الظّواهر، تَمَحّصَه جَيّداً هوسرل Husserl وهايدجر Heidegger وغادامير Gadamer وريكور Ricoeur.

على الرّغم من أنّ الإشكاليّة العامّة للتّرجمة لم تكن بعيدةً عن اهتمامات هؤلاء المفكّرين، إلا أنّ مارتن هايدغر هو الوحيد الّذي استخدم التّرجمة بوصفها إحدى أنماط الطّرح الفَلْسَفيّ وربما التّفكير. ولم يقتصر اهتمامه على التّرجمة في تعدّد التّأويلات فقط، ولكن في كينونة اللّغة نفسها، وفي الأسباب الأساسيّة لوجود العديد من اللّغات، لاسيما في العلاقة الّتي افترضت افتراضاً غريباً هو المساواة بين اللّغة الألمانيّة واللّغة اليونانيّة القديمة. وفي هذا، استند هايدغر، كما فعل ولتر بنيامين، على نُتَفٍ من أفكار هولدرلن Hölderlin، وهو شخصيّة ظلت مهمّشةً في الرّومانسيّة الألمانيّة (بشأن العلاقات المتنوّعة بين هذه الشّخصيّات، انظر Steiner، 1975). والفكرة المركزيّة عند ولتر بنيامين هي أن التّعبير الأصلي يحتوي على تعدديّة المعنى في ذات الشّكل.

[1] كتاب فينوتي "فضائح الترجمة" ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، منشورات المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1/2010. (المترجم)

وبنفس الطّريقة التي يُفسّر بها مذهب القَبَالَة[1] معاني الأرقام الّتي تمثلها أحرف الكتابة العِبْريّة، فإنّ الاشتغال على الشّكل الأصليّ، لاستخراج تلك المعاني الخفيّة، هي مهمّة التّرجمة. في مقال بنيامين لعام 1923 "مهمّة المترجم" (بنيامين، 1955)، يتمّ التّعبير عن ذلك باعتبار فكرةٍ مُؤدّاها إنّ كلّ لغة هي بذاتها جزء من كِلٍّ أوسع، وأنّ المترجم يقوم في الواقع بجمع أشتات أجزاء المعنى المقدّس، الّذي انكسر وفَقدَ وجاهته. ومع ذلك، يصعب تبيّن التّطبيق العملي لهذا الأمر في ترجمة بنيامين لبودلير Baudelaire والّتي لا يكاد يكون فيها ما يستحقّ الذّكر. وقد كانت هذه المقالة الشّهيرة في الأصل مقدمةً لتلك التّرجمة.

ويُلخِّص تشو (1984) Chau المقاربة التّأويليّة باعتبار عدد قليل من مَدَامِيكِها الأساسيّة. ونظراً لعدم وجود فهم موضوعيّ حقيقيّ للنّص، فإنّه لا يمكن لأيّ ترجمة أنْ تمثل مصدرها تمثيلاً كاملاً وليس في وسْع جميع التّرجمات سوى تغيير معنى النّص–المصدر. زد على ذلك، أنّه بحسب غادامير، لا يمكن تجنّب ضروب "الإخلال" والّتي يمكن أنْ تكون إيجابيّة في جميع إجراءات التّأويل. يدّعي تشو أنّ هذه المقاربة العامّة تجعل المترجم، في آن معاً، متواضعاً وأكثر مسؤوليّة، ويشارك بنشاط في إبداع التّرجمة بدلاً من أنْ يبقى عبداً لأوهام التّكافؤ الضّروري. قد يدّعي آخرون أنّ هذه المقاربة تشجّع المترجِم على تجاوز أخلاقيّات الأمانة أو التّكافؤ. وهنا انحرفت مسارات الفلاسفة انحرافاً بَيِّناً على نطاق واسع عن المبادئ الوضعيّة للتّحليل اللّساني في القرن العشرين.

وتُظهر المقاربة التّأويليّة، بصيغتها الحاليّة، جوانبَ فقدان اليقين في القرن العشرين. وحقيقة الأمر أنّ مَدَامِيكَها تتبدّى مرة أخرى في العديد من المقاربات المعاصرة، لاسيّما عند دريدا (الّذي بدأ قارئاً لهوسرل) ولكن أيضاً، وربما أن هذا الأمر من المفارقات، حين تمّ الانتقال إلى علم

[1] القَبَالة أو القَبَلانيّة ويكتبها بعضهم "كابالا" Kabbalistic هي نحلة باطنيّة يهوديّة نشأت منذ القرن الثاني عشر وما تلاه وتقدم تفسيرات خاصة غير شائعة للكتب اليهوديّة ودار حولها جدل كبير. أنظر الموسوعة البريطانيّة، وموقع معرفة، وويكيبيديا على الشّابكة (المترجم).

التّرجمة الوصفيّ، حيث كشفت المفاهيم الوضعيّة للعلم التّجريبيّ آنئذ التّعدديّة الشّاسعة للممارسات التّرجميّة. وعلى هاتين الجبهتين تمّت غَلَبَة النّسبيّة الثّقافيّة والتّاريخيّة على دَعاوى صحّة التّأويلات واكتمالها. وقد رفضت كل هذه المواقف المتنوّعة الرّأيَ القائل بأنّ هناك طريقةً واحدة فقط لنقل أيّ عنصر في مصدر معيّن؛ لقد سعى الجميع لفهم كيف ولماذا تُعدّ التّرجمة أدنى قَدْراً من مصدرها.

افترض الفيلسوف التّحليليّ الأمريكيّ وِيلارد كُوين (1959) Willard Quine وجهة نظر تأصيليّة مختلفة بشأن التّرجمة حين نشر مقالتّه "التّرجمة والمعنى". كان كوين معنياً بالمشكلة العامّة الّتي مَفَادها أنه يمكن تفسير مجموعة واحدة من البيانات بأكثر من نظريّة واحدة، وأنّه لا توجد طريقة للاختيار بين النّظريّات. وفي نهاية المطاف، كان سعي التّقليد التّأويليّ هو البحث عن طرق أخلاقيّة أو أنطولوجيّة أو أُخْرَوِيَّة لحل هذه المشكلة. ومع ذلك، كان كوين ينتمي إلى تقليد تحليليّ محافظ سعى للحصول على إجابة فنيّة دقيقة ومنطقيّة، بالاعتماد على المنزع السّلوكي واتباع مسار لا يمكن إلاّ أنْ يؤدّي إلى الشّك والرّيبة. ومن الواضح أنّ استخدامه للتّرجمة هو بمثابة تجربة فكريّة، وهو تمثيل لمبدأ إبيستيمولوجي عام (ومع ذلك عُرِف باسم "عدم يقينيّة التّرجمة "indeterminacy of translation").

يفترض كوين حالة "ترجمة متشددة"، حيث لم يكن هناك اتصال سابق بين الثّقافات المعنيّة (ويعترف على الفور أنّ الحياة الحقيقيّة لا تُوفّر مثل هذه المواقف). حيث تجتاز أَرْنَبٌ مسرعَة، فيهتف المواطن: "غافاغاي! Gavagai " ويلاحظ اللّغوي هذا المصطلح على أنّه يعني "أرنب" أو"الأرنت!" أو "جزء مجموع من أرنب" أو "هناك برغوث على الأذن اليسرى للأرنب"، وهلم جرّا. هل سيكشف التّحقيق اللّاحق المعنى الحقيقيّ للمصطلح؟ يحدّد تحليل كوين درجات اليقين لأنواع مختلفة من الافتراضات، لكنّه يستنتج أنّه لا يمكن تحديد التّرجمة بشكل مطلق: لن تتمّ ترجمةُ معنى "!Gavagai" على وجه اليقين.

ومن المثير للاهتمام أنّ أطروحة كوين عن عدم اليقين نُشرت في نفس المجلد (Brower,

(1959a الّذي نشر فيه رومان جاكُبسون Roman Jakobson (1959: 232) مقولته إنّ "معنى أيّ علامة لغويّة هو في ترجمتها إلى علامة بديلة أُخرى". قد يُطلق على هذا أيضاً مبدأ التّدليل[1]، أو المعنى نفسه بوصفه سيرورة دائمة للتّأويل أو التّرجمة. ويمكن إرجاع هذه الفكرة إلى المفكر الأمريكي بيرس Peirce، الّذي يُنظر إليه أحياناً على أنه مؤسس المقاربات الدّلاليّة (السّيميائيّة) للتّرجمة (انظر Gorlée, 1994). وعلى هذا النّحو، يجب أن يعني مبدأ التّدليل أنّ التّرجمات لا تَنقل المعنى أو تُعيد إنتاجه ولكنها تُنشّط ابتكار المعاني. منذُ الإرهاصات الأولى، كانت هذه الفكرة موجودة في صلب خطاب أولئك الّذين كانوا يبحثون بشكل رئيسيّ عن اليقين (بما فيهم بيرس وجاكُبسون)، ويبحثون عن أساس وثيق للفكر. ومع ذلك فقد عُدَّ مبدأ التّدليل، في ذلك الوقت، ضياعاً وليس انعتاقاً.

ثمّة صورة مثيرة للاهتمام، على الرّغم من نسيانها إلى حد بعيد تتعلّق بترابط المقاربات التّحليليّة، جاءت ضمن مجلّد "المعنى والتّرجمة"، الّذي حرّره كلٌّ من غونثر و روتر–غونثر Guenther وGuenther-Reutter في عام 1978. حيث نجد فيه افتراضاً عاماً بأنَ مشاكل التّرجمة هي مشاكل الدّلالات الشّكليّة، ويمكن معالجتها بتوسل جُرعات كبيرة من الصّياغات المنطقيّة للجُمَل. فصارت المناقشات تتعلق بمدى الحاجة إلى مراعاة العوامل الاجتماعيّة أو السّياقيّة، سواء كان المعنى في رأس المرء أو في الاستخدام الاجتماعي، وإلى مراعاة الطّبيعة الدّقيقة لقابليّة التّرجمة (وهي مشكلة تم العثور عليها، ولكن لم يتم حلها أبداً، في تراث الرّومانسيّة الألمانيّة). نجد، على سبيل المثال، ترجمة متضمنة في مبدأ قابليّة التّعبير effability عند كاتز Katz، والّذي ينصّ على أنّه يمكن التّعبير عن أيّ قضيّة من خلال بعض الجمل بأيّ لغة طبيعيّة – يمكن العثور على فرضيات مماثلة عند فريجه Frege (1984) وتارسكي Tarski (1994) وسيرل Searle (1969). ويعترف كاتز (1978: 209–216) بأنّ المبدأ صحيح في

[1] التّدليل أو السيميوزيس semiosis مصطلح سيميائي يقصد به سيرورة إضفاء دلالة تؤدّي إلى انبثاق دلالة جديدة. والأصل الأعجمي اشتقاق من اليونانيّة لإفادة "فعل التّدليل" ويمكن في اللّغة العربيّة الاطلاع على أعمال الدكتور عبد الله ديمي، وسعيد بنكراد، وآخرين للتّوسع في فهم هذا المصطلح وحيثيات استخدامه. (المترجم).

الأساس ولكنه يخضع "لقيود الأداء"، ولا سيما طول الجمل النّاتجة. ونظراً لأنّ جميع التّرجمات في العالم الحقيقي تخضع لمثل هذه القيود، فإنّ كاتز ينقل بشكل فعال مشكلة قابليّة التّرجمة إلى المجال الاجتماعيّ أو التّداوليّ، بعيداً عن مخاوف السّيمائيّة الفلسفيّة في تلك المرحلة.

من المجالات ذات الصّلة الّتي تناولها مجلد "التّرجمة والمعنى" هو تحليل الخطاب التّرجميّ بوصفه طريقةً من الكلام المنقول. فقد أقر بِغلو Bigelow (1978) أنّ المترجمين يفعلون شيئاً ما يقع بين الكلام المنقول ("قال المؤلف، " Ich bin müde") والكلام غير المباشر ("قال المؤلف إنه كان متعباً"). فنقطة النّقل التّرجمي في المنتصف: ("قال المؤلف، "أنا متعب") هي ما يمكن أن نُطلق عليها جزئيّاً العامل فائق التّكثيف عند فريجه، وهو ما تعبر عنه جملة: "س" تَرْجَمَتُهَا "ص". وهذا تحليل دقيق للصّيغة الخطابيّة عن التّكافؤ المثاليّ. ومع ذلك، لا يمكن للفيلسوف، في هذه المرحلة، أنْ يذهب أبعدَ من ذلك دون الإقرار بتدخل الذّاتيّات التّاريخيّة (فقد يختار أحدُ المترجمين أن ينقل "س" بوصفها "ص"). وقد تم النّظر في الذاتيّة التّاريخيّة مرة أخرى خارج نطاق الاختصاص التّحليليّ للفلاسفة.

وقد حدث شيء شبيه بذلك بشأن ملاحظة و. د. هارت W.D. Hart (1970) الّتي لم يقع التّنبه لها بأنّ المترجمين لا يمكنهم في الآن نفسه الحفاظ على المرجع الذاتي، والقيمة الحقيقيّة، والمرجع [الخارجي]. هذا يعني أنّ الجملة "الكلمة الأولى من هذه الجملة بالذّات تحتوي على ثلاثة أحرف **the** first word of this very sentence has three letters" لا يمكن نقلها إلى الفرنسيّة كلمةً كلمة (حيث قد تحتوي الكلمة الأولى [في الفرنسيّة] على حرفين) دون أن تتعطل حقيقتها.[1] هناك العديد من الاستراتيجيات لحل المشكلة (مثل الإشارة إلى الجملة الإنجليزيّة، أو التّحدث عن حرفين بدلاً من ثلاثة). ويرى بورج Burge (1978) فائدةً من هذه المفارقة الهامّة من أجل نقل الحوار، حيث لا يكون القارئ متحققاً من اللّغة الّتي تتم الإشارة إليها كما لا يمكن

[1] الإشارة هنا هي إلى أداتي التعريف the الإنجليزيّة ومقالتها le الفرنسيّة عند ما تصف إحدى اللغتين نفسيهما. (المترجم)

الحفاظ على القيمة الحقيقيّة. بالنّسبة إلى الشّكلانيّين، فإنّ دقة التّحليل تتفكك مرة أخرى إلى مسائل تُعْنَى بالسّياق والاختيار، جنباً إلى جنب مع الوعي بأنّ حلول التّرجمة الفعليّة غالباً ما تكون بين البدائل الّتي تم تحديد تفاصيلها في النّظريّة. ومن المثير للاهتمام، أن المفكر الفرنسي موريس بلانشو Maurice Blanchot (1949) قد أشار إلى حالة منتصف الطّريق لشخصيات همنغواي Hemingway الّتي، من خلال تحدثها الإسبانيّة باللّغة الإنجليزيّة – وإدخال المصطلح الإسباني العرضي، واعتماد بناء الجملة الإسبانيّة – خلقت ما يمكن أنْ يُسمى "مسافة الظّل" إذ غدا من الممكن ترجمتها كما هي عليه. بالنّسبة لبلانشو فذلك يعني أنّ النّص، قَبْلَ التّرجمة، كان بأكثر من لغة واحدة، تولَّد عن ذلك مسافة داخليّة استعطى على الدّلاليّة الشّكليّة رؤيتها بوضح. لكن الأمر هنا يخصّ أوربا، بوصفها عالماً مختلفاً مطروحاً بانتظار دريدا.

كان الفلاسفة التّحليليون يقومون بعمل فلسفي واضح النّفع. كانوا يواجهون مشاكل حقيقيّة فعلاً، ويحدّدونها بعبارات دقيقة، ويصوغون بعض الحلول الممكنة. كان يمكن أنْ يشكّل ذلك خدمةً حقيقيّةً لمساق أبحاث التّرجمة. لسوء الحظ، مع بعض الاستثناءات (انظر Malmkjaer, 1998a: 9)، فإنّ صيغهم حظيت بسلطة تأثير متدنيّة في نظريّة التّرجمة، مما ألحق ضرراً كبيراً بهذا الحقل. لماذا؟

أولاً: كان هناك القليل من التّقاليد التي استتبت في الفَلْسَفة التّحليليّة نفسها، حيث لم تعد التّرجمة أكثر من حالة تجريب مُسْتَظْرَفَة. ومن وقت لآخر يقع التّطرق إلى المناقشة الأساسيّة الّتي أثارها كوين (راجع Kirk, 1986; Føllesdal, 2001) وصارت لها تطبيقات في البحوث الأنثروبولوجيّة (Feleppa, 1998). ومع كونها مبدأً ابيستمولوجياً عاماً، إلاّ أنها فشلت فشلاً تاماً في أنْ تتخطى بعض المواقف مثل قول تشومسكي (1980: 15) بأنّ عدم يقينيّة التّرجمة "صحيح ولا طرافة في الأمر". وعلى حد تعبير كاتز (1978: 220)، إذا قَدّم مترجمان ترجمتين مختلفتين لنفس الجملة، وكانت التّرجمتان مقبولتين على قَدْر واحد، فقد يختلفان بوصفهما شخصين ولكن ليس هناك قطعاً ما يتجادلان بشأنه. وفي لغتنا اليوميّة، ليس هناك "حقيقةٌ مطلقةٌ".

ثانياً: على الرّغم من أنّ البحث عن اليقين كان يمكن أن يصوغ مشاكل دقيقة، إلا أنّه لم يستطع أنْ يُقدّم حلولاً موثوقاً بها. ميزّ هذا النّوع من الفَلْسَفة نفسه عن سِواه بوصفه، في المحصلة، حقلَ بحثٍ محدوداً في المكان، مفيداً في بعضٍ من وجوهه ولكنه ليس مُهَيّأً لدخول عالم العمل. كان هناك مقاومة أكثر تشدّداً بشأن عدم اليقين، ولا سيّما في عمل دونالدّ ديفيدسون Donald Davidson، ولربما كان ذلك متناغماً مع التّوجهات العامة بعيداً عن فرضيات علم الوجود. يشير ديفيدسون إلى التّرجمة بشكل صريح عند الدّفاع عن الأطروحة الّتي مفادها إن إسناد قيمة الحقيقة إلى مقول شخص آخر لا ينفصل عن فرضيّة قابليّة التّرجمة لهذا المَقُول. إذا كنّا نعتقد أنّ "غاغافاي !Gagavai" الأصلي له معنى مرجعي (واسع النّطاق)، فيجب أن نفترض أنّه قابل للتّرجمة إلى لغتنا (ديفيدسون Davidson, 1984: 194-195) .وهذا من شأنه أن يجرّ التّرجمة جَراً في مواجهة حِجاجيّة ضد النّسبيّة الثّقافيّة المتشدّدة. ومع ذلك، وفي سبيل رفع الرّاهانات الفلسفيّة إلى أعلى مستوى، لا يفعل ديفيدسون الكثير لإثبات أيّ درجة عن قابليّة فعليّة للتّرجمة، ولا يُقدّم الكثير من الإرشادات لأيّ شخص يسعى إلى التّحقّق من التّرجمات الصّحيحة.

ثالثاً: وبشكل أكثر استماتة، دار نقاش حادّ بين جون سيرل وجاك دريدا، بشكل رئيسي بين 1983 و1988 (انظر دريدا، 1988). دافع سيرل عن وجود المعنى الحرفي، على خط يشبه المعتقدات الضّروريّة الّتي كان ديفيدسون يشتغل عليها. أما دريدا فكان يجادل ضد أي أساس مستقر للمعنى، على نفس خط نقد "المدلولات المتعالِية" الّذي كان يشجبه باللّغة الفرنسيّة منذُ أواخر ستينيات القرن العشرين. على الرّغم من أنَ النّقاش لم يكن حَول التّرجمة في ذاتها، فإنه قد آلَ إلى مشاكل بشأن المواضعات الثّقافيّة المشتركة وغير المشتركة، وبشكل مباشر في كيف يَحْسُن بالمرء أن يتصرّف في المناقشات الأكاديميّة. كانت النّتيجة سطحيّة وانحصرت في خط فاصل بين اللّغة الإنجليزيّة والفَلْسَفة الفرنسيّة (الأولى بقيت تحنّ إلى اليقين، والأخرى ترى مثل هذه الاعتقادات اعتقاداتٍ رجعيّة). كما نَشَأ أيضاً، في التّقليد الأكاديمي النّاطق باللّغة الإنجليزيّة، خطٌ فاصلٌ بين المقاربات اللّغويّة والأدبيّة إزاء مشاكل

الغَيْرِيّة. منذُ ذلك النّقاش، شعر العديد من علماء الأدب أنّهم لم يعودوا بحاجةٍ إلى قراءة أيّ شيء مصدره التّقاليد التّحليليّة، كما لو أنّ هذه التّقاليد قد اعتراها الخطأ الواضح. وقليل جداً من الفلاسفة التّحليليين يشيرون إلى دريدا، كما لو أنّه كان فقط أحدَ المتطرّفين المهوسين. على الرّغم من أنّ النّقاش لم يكن يتعلق بالتّرجمة، فقد كان لتشعباته تأثيراتٌ عميقة على سلطة الخطاب الفَلْسَفيّ في نظريّة التّرجمة، كما سنرى لاحقاً.

قبل هذه المناقشة الأمريكيّة، كان لدى دريدا القليل ليقوله عن التّرجمة. ففي أولى مصنفاته الأكثر تأثيراً، "في علم الكتابة[1] De la grammatologie (1967)" ، تم تقديم مقاربته على أنّها نقد للفصل التّقليديّ بين الشّكل والمعنى. وقد استطاع سوسيور Saussure، على سبيل المثال، أن يصيغ العَلامة [اللّغويّة] بمكونيها (الدّال والمدلول) فقط عندما استبعد من اختصاصه العلمي التّمايز بين الدّلالات المنطوقة والمكتوبة. بالنّسبة إلى دريدا، فإنّ وهم المعنى المستقر لا يمكن أنْ يأتي إلاّ من مثل هذا الاستبعاد. يجب أنْ يكون عمل التّفكر النّشط (كما في حالة مُصَنَّفِه، في علم الكتابة، الّذي استبعد الكتابة) هو استعادة تلك التّمايزات الكامنة، وجعلها تعمل ضد الاستقرار. ولا جدال بأنّ مثل هذا النّقد كان يتلاءم مع روح مايو 1968،[2] على الرّغم من عدم إفصاح دريدا عن ولائه السّياسي لتلك الرّوح. بالنّسبة لأيّ شخص يقرأ هذا الكتاب من زاوية نظريّة التّرجمة، فإنّ النّقد شكّل أيضاً نظريّةً للتّدليل وللمعنى بوصفه سيرورةً دائمةً للتّأويل وإعادة التّأويل (تم الاستشهاد بنظريّة بيرس (1931-1958) الّتي تذكر المُأَوَّل). وعلى الجملة، فقد كانت نظريّةً للتّرجمة تنزع إلى التّعميم، ولم تكن سيرورةً لإبلاغ المعنى ولكن لإنشائه بشكل دائم.

سنقف على آخر ما قال دريدا في القسمين التّاليين. ولكن هنا يجب ملاحظة وجهن. أولاً: لم

---

[1] ترجمه إلى العربيّة كل من أنور مغيث ومنى طلبة، ونشره المركز القومي للترجمة في القاهرة عام 2008. (المترجم)

[2] حركة 1968 في فرنسا هي حركة عصيان ومظاهرات طلابيّة كان لها تداعيات اقتصاديّة وسياسيّة وفكريّة واتسمت بغلبة المنزع اليساري المتحرر والمقاوم للرأسماليّة وأفرزت فكريا تيارات متصارعة في فرنسا وغيرها. (المترجم)

يَصُغْ دريدا أبداً، على مَبْلَغ عِلمنا، نظريّةً للتّرجمة ذات ميسم خاص. بالتّأكيد أنّه يذكر هذه المسألة في تعليق مبكّر على عدم التّكافؤ (دريدا، 1968) وفي قراءةٍ وَقَعَ استشهاده بها كثيراً عن ولتر بنيامين (دريدا، 1958). وحقيقة الأمر أنّه، في هذه القراءة نفسها، يرفض رأي جاكُبسون بسبب عدد قليل من الفئات المطلقة، لكنه لا يفعل سوى القليل لدمج مفهوم التّدليل. ثانياً: تعليقات دريدا الفعليّة على التّرجمات أكثر محافظةً وبنيويّةً من تلك الّتي لدى العديد من مُنَظِّري التّرجمة الّذين سيأخذون زمام المبادرة منه.

لكي نفهم لماذا قد يكون الأمر كذلك، يجب أن نحاول أنْ نرى كيف نجحت سلطة الفَلْسَفة في المجالات الأكثر خطورةً من هذا لاختصاص الفكريّ النّاشئ.

الفَلْسَفةُ بوصفها سلطةَ تنظيرٍ للتّرجمة

إن التّنظيرَ للتّرجمة، سواء من قبل المترجمين أو الأكاديميين، قد اتّكأ على خطابات فلسفيّة تفوق بكثير طاقة الفلاسفة في نظرتهم الجادة للتّرجمة. في هذه العلاقة غير المتكافئة للغاية، تقع نصوص صعبة في أيدي قرّاء ينتمون إلى مجالات أكثر عموميّة. ويشك المرء في أنّ الفلاسفة قد لا يتعرّفون دوماً ما تمّ فعله باسمهم.

إنّ وظيفةَ السّلطةِ وظيفةٌ مغرقةٌ في الزّمن. فقد وقع، على سبيل المثال، الاستشهاد بجيروم Jerome، بشأن سلطة الأمانة إزاء كلٍّ من الشّكل والمعنى، حيث قَبِلَ فعلياً بطريقتين للتّرجمة (إحداهما للنّصوص المقدّسة، والأخرى لسائر النّصوص). أما الأكثر شهرة فهي حالة هوراس Horace، الّتي تم فيها مِراراً وتِكراراً استخدام عبارته " nec verbo verbum‘ لا كلمةً لكلمة" بوصفها، حتّى تواريخ حديثة جداً، قَولاً رسمياً فاصلاً بشأن الحَرْفيّة و(بشكل صحيح، وهو ما نعتقده) ضِدها (انظر غارثيا يبرا García Yebra: 48-641994). وربما يكون الأمرُ الأكثرُ إثارةً للدهشة هو مدى المكانة الّتي رَفَعَ إليها التّنظيرُ للتّرجمة من قدر هاتين الشّخصيتين (مُتَرْجِم لاهوتي، وشاعر) إلى سلطةٍ صوّرتهما فيلسوفين يتحدثان بحكمةِ ماضٍ بعيد. يمكن للمرء أنْ ينسب مثل هذا الرّفع إلى الصّمت النّسبي للخطابات الفلسفيّة الصّحيحة. ومع ذلك، لا يزال

يحدث شيء مماثل مع شخصيات مثل همبولت، وشليرماخر، ونيتشة، وبنيامين، وساتر الّذين سيكونون مؤهلين بالتّأكيد بوصفهم مفكرين وعلماء دين، ومترجمين، وكُتّاباً، ولكن ليس دائماً بوصفهم فلاسفةً بأيّ معنى من المعاني المهنيّة. هذا هو الوضع الّذي يُدفَعُون إليه دَفْعاً في بعض الأحيان. ومن خلال القيام بذلك، يغلب على أولئك الّذين يُنَظِّرون للتّرجمة استسهال فرضيات تَوَافُق الفلسفات وإمكانيّة تناسقها. وفي كثير من الحالات، أَنْشأ مُنَظِّرو التّرجمةِ سلطةَ الفَلْسَفةِ وتخيّلوها هُمْ أنفسُهم.

إحدى النّتائج "المرتدة" لدور هذه السّلطة هي الممارسة الّتي شاعت شيوعاً كبيرا وتربط معاً أسماء تبدو منحازة إلى طرف واحد. ويتم الاستشهاد بمفكرين من مُخْتَلِف الأطياف بسبب المكانة الّتي يتمتّعون بها في الدّوائر التي يتمّ فيها مناقشة التّرجمة. فعلى سبيل المثال، نجد المُنَظِّر الأمريكي لورانس فينوتي يقترضُ أُطُراً من الماركسيّ الفرنسيّ لوي التّوسير Louis Althusser في عام 1986، ويأخذُ عن شليرماخر في عام 1991، وينحني لدريدا ودي مان De Man في عام 1992، وينتمي إلى نيتشه في عام 1995 ويشتغلُ اعتماداً على بنيامين وبلانشو في عام 1995. ثم في عام 1998، نجد فينوتي يَسْتشهدُ بحجج لوسيركل Lecercle بأنّ اللّسانيات تترك دائماً دون تنظير "بَقِيَّةً" منها هي جزء من اللّغة غير منتظم. ويَسْنِدُ فينوتي هذه الفكرةَ إلى حُجج ديلوز Deleuze وغواتاري Guattari بشأن "ثقافات الأقليّات"، التي تمّ إنشاؤها بشكل مثاليّ من خلال التّرجمات الّتي تستفيد من البقايا اللّغويّة (انظر Venuti, 1998a, 1998b). وهذه المراجع تحفّز النّقاش حول التّرجمة. غير أنّه في بعض الأحيان، يكون سيرها سيئاً في رحلتها انطلاقاً من الفَلْسَفة، وتصبح جِدَّتُها جِدّةً زائفةً وتسقط أحياناً بعيداً عن هدفها. إن فكرة "البقيّة" هذه يمكن العثور عليها مثلاً عند مفكرين ماركسيين أوائل، مثل لوففر Lefebvre (1968: 24–45) أو بشو Pêcheux (1975: 20–82)؛ بوصفها نقداً للّسانيات، لكنها افتقرت كليّة إلى تطوير شامل كما حدث مع اللّسانيّات الاجتماعيّة (منذُ لابوف Labov) أو لسانيّات النّص التّطبيقيّة (منذ فان ديجك van Dijk). وليست الانتقادات الصّارمة ذات أهميّة قصوى، إذ تكمن فضائل فينوتي الكبرى في جلب السّياقات السّياسيّة والاجتماعيّة إلى التّرجمة الأدبيّة باللّغة الإنجليزيّة، وفي

علاقته الوثيقة بالممارسة والممارسين معاً. على الرّغم من أنّ نصوصه المبكرة يمكن قراءتها على أنّها دفاع فكري عن استراتيجيات تغريب التّرجمة، على نطاق واسع ضمن التّقليد التّأويليّ، فإنّ ممارسته للتّرجمة قد تبنت أيضاً "التّرجمة بطلاقة" حين تكون ملائمة لمشروع معين (فينوتي ضمن ويلكك Wilcock :xvii 2000). ربما يَحْسُن بالمرء ألاّ يبحث عن مذاهب الفكر الفَلْسَفيّ، ولكن عن ممارسة التّزمها المترجِم بشكل منتظم. ومع ذلك، فإنّ المراجع الفلسفيّة تُضفي وزناً ونبرة جيدتين عندما يقرأها أناس بعيدون عن التّقاليد الأوربيّة، لاسيما تلك الّتي تعادي بالفعل اللّسانيات الوضعيّة (بناء على مناقشات سيرل–دريدا، إنْ لم يكن لأسباب أخرى). وهكذا نجح فينوتي المُتَرْجِم في تطوير فكره الخاص في حين تلاعب في الوقت نفسه بمكانة الأجنبي الرّفيعة. لاحظ أنّ وظيفة المكانة الرّفيعة هذه يُعززها البُعدُ عن المصدر: أي إنّ الاستشهاد بأسماء فرنسيّة وألمانيّة، والاقتصار في ذكرهم على بضعة أسطر أو فقرات، قد مَكّن فينوتي في آن واحد من أنْ يُبَسِّطَ مساهمتِهم وأنَ يصبحَ مفسرَهم المميَّز، وأن يتحدّى سلطتَهم.

إن مُنَظِّرَ التّرجمة بوصفه قارئاً مميزاً للفلسفة لم يقتصر إطلاقاً على التّقليد الأكاديمي الأدبي في أمريكا. ففي فرنسا، طوّر أنطوان برمان (1984) حُججاً لمصلحة التّغريب من خلال استخلاص أفكار الرّومانسيين الألمان المختارين، ورفع همبولت، وشليرماخر، دون خجل، إلى وضع الفلاسفة، ووضع على هامش الصّمت مفكرين ألمان مثل هيجل (راجع بيم، 1997). وهكذا أمكن لبرمان أنْ يفسر "التّغريب" بوصفه تقليداً ألمانياً واضحاً، ليكون نقيضاً للتقليد الفرنسي عن "الجميلات الخائنات[1] belles infidèles"، جاعلاً من نفسه نقطة اتصال متميزة. وقد استطاع

[1] تعبير "الجميلات الخائنات" هو تعبير مجازي أطلق في القرن السابع عشر في فرنسا على الترجمات الّتي أولت اهتماما أكبر بجماليّة التعبير في اللّغة–الهدف (الفرنسيّة) متجاهلة عمدًا أو بغير عمد حقيقة التعبير في اللّغة الأصل. وقد اتسمت جملة من النّصوص المترجمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بالانطواء على جماليات التلقي وليس حقيقة الأصل. وخلافا لتلك النزعة جاءت ظاهرة استضافة "الغريب" بتبني صيغ اللّغة–المصدر في نطاق اللّغة الهدف الّتي عُبر هنا بالتّغريب من الغريب الأجنبي عن اللّغة والّتي دافع عنها برمان في كتاباته عن

برمان مع ذلك أنْ يحول قراءاته إلى مشروع جذري ومحفّز لأخلاقيات التّرجمة، اعتمادا على الدّفاع عن الآخر ونقد الممارسات النّصيّة ذات المركزيّة العرقيّة. وبالنّظر إلى الصّرامة الاصطلاحيّة والمفاهيميّة لمشروعه، يرى المرءُ بصمةَ برمان ومهارتَه الأكاديميّة في الفَلْسَفة. وهذا تقليد آتَى أُكُله أيضاً في مُصَنَّف جان رينيه لادميرال[1] Jean-René Ladmiral (1979) حيث تم فيه إيلاء اهتمام دقيق بإشكاليّات التّرجمة وتدريسها – وفي مُصَنَّف ألكسي نوس Alexis Nouss (2001b) حول التّمازج métissage الثّقافي، والّذي يمكن النّظر إليه بوصفه تطويراً لمشروع برمان الأخلاقي في منأى عن الأطر المحدودة للتّرجمة.

أما المراجع الأخرى العابرة للثّقافات فليست منفتحةً انفتاحاً كلياً. فالمجلد الجماعي الّذي حرّره ألفرِد هِرش Alfred Hirsch عام (1997) Übersetzung und Dekonstruktion كان مُفْتَتَحُه ترجمةَ مقال كتبه دريدا مبكراً (باستخدام مفهوم التّرجمة لتصور دور الفَلْسَفة في نطاق التّقليد الأكاديميّ). ومع ذلك، يتبيّن لاحقاً أنّ "التّفكيك" يكاد يكون كل شيء، قلَّ قدره أو كثر، يمكن استعارته من وَلتر بنيامين (كانت قضايا الاتصال جَلِيّة في مؤلف هِرش، 1995)، بحيث يظهر بالفعل أنّ الفكر الفرنسيّ في التّرجمة هو فكر ألمانيّ، وأنّه كان كذلك منذُ أمد ليس بالقصير. وفي هذه الحالة، يتّضح أنّ سلطة الفكر الفَلْسَفيّ الأجنبي هي تذكير بـ "الشّفرة المنسيّة"، الّتي هي شيء مفيد حين يحوزها المرء في حِيَاضِه دائماً وأبداً.

وهكذا، فإنّ سلطة الفَلْسَفة تخلق قُرّاءً مميزين، ومن خلالهم وهو ما يدعو للاستغراب، تخلق اتساقاً لتقاليد متعارضة إزاء التّنظير للتّرجمة. زد على ذلك أنّ مُنَظِّري التّرجمة يميلون عندئذ إلى اقتفاء تقليد واحد وعدم رؤيّة التّقليد الآخر. على سبيل المثال، يشير مقالٌ نظريّ دقيق بشأن الخيارات غير الثّنائيّة المتضمّنة في الحوار عن التّرجمة (لِين ومِرسِر Lane-Mercer) إلى

التَّرجمة. ويمكن في الأدب العربي أن نجد مثالا للجميلات الخائنات في ترجمات المنفلوطي ترجمةً بتصرف لبعض أعيان الأدب الفرنسي (المترجم)

[1] نُقل هذا الكتاب إلى العربيّة بعنوان "التنظير في الترجمة"، ترجمة محمد جدير، بيروت، المنظمة العربيّة للترجمة، ط1/2011. (المترجم)

التّقاليد الأدبيّة الفرنسيّة–الأمريكيّة بكمالها ببساطة عن طريق ذكر اسميْ برمان وفينوتي. ومع ذلك، لا يذكر النّص كيف تم التّعامل مع نفس المشاكل بناء على تقاليد كوين.

يمكن العثور على شيء مشابه في اللّغة الألمانيّة في تطوير نظريّة الفعل التّرجمي (عند هولز–مانتاري Holz-Mänttäri 1984) وفي نظريّة المقصد الوظيفيّة (عند رايس، وفرمير، 1984). لقد استعارت هولز– مانتاري التّوجهات العامة الأوليّة من نظريّة الفعل لفون رايت von Wright (1968)، مضيفةً رؤى من كل من الرّيادات الّتي وفّرها علم الإناسة (انثروبولوجيا) الوظيفيّ الاجتماعيّ ومن نظريّة الفعل (باقتباسات من همبولت، ومالينوسكي Malinowski). أمّا الفكرة الأساسيّة لفرمير، من ناحية أخرى، فهي أنّ التّرجمة هي إجراء يتم القيام به من أجل تحقيق غرض (مقصد Skopos). وهذا الغرض متغير بدرجة كبيرة (قد يتضمن، أو لا يتضمن، تكافؤاً مع المصدر) ويتم التّفاوض عليه مع أي عدد من الفاعلين الاجتماعيين. وتؤكد هولز– مانتاري على تَعَقّد هذه المفاوضات، وعلى الدّور الاجتماعي للمترجم كخبير، وعلى أنماط العمل التّرجميّ العديدة (حيث إنّ المترجمين يقومون بأكثر من التّرجمة). سيعطي فيرمير وزناً أكبر لدور الزّبون والأولويّات المفاهيميّة ذات العلاقة. على الرّغم من شبكات المصطلحات المعقّدة جداً، قد يدّعي كلاهما أنّه "أنزل النّص المصدر من عرشه" (فيرمير، 1989)، وقد كشفا أنّ هناك محدّداتٍ أخرى عديدةً بشأن ما يفعله المترجمون. وفي نطاق البحث في اللّغة الألمانيّة، كان هذا كافياً لتشكيل مجموعة متشابكة من المُنَظِّرين الّذين استشهدوا بذواتهم، ونسجوا صورةً لثورة نظريّة، واختراقاً إبيستيمولوجياً لألفيّة من الدّهْر مضت في ضروب الأمانة والتّكافؤ. ومع ذلك، لم تكن أفكار نظريّة الفعل على الإطلاق هي المقياس الحصريّ لنظريّة التّرجمة العامّة. كان لمفهوم الفعل القائم على الغرض لغةٌ فلسفيّة منذ كانط Kant، وهو أمر شائع بما فيه الكفايّة في أيّ مقاربة اجتماعيّة. ويمكن أن يُفضي إلى التّركيز على الأغراض والكفاءات ونظريّة الخبرة، كما حدث في اللّغة الألمانيّة، ولكن لهذه النّظريّة أيضاً مَواطئ قدم عِدّة في اللّسانيات التّداوليّة، وأخلاقيّات الالتِزام deontics، ونظريّة الأنساق والمنهجيات الجديدة للمراقبة التّجريبيّة. تم تطوير هذه الجوانب الأخيرة بشكل أفضل خارج نظريّة المقصد، ولكن بطرق تبقى متوافقةً تمام التّوافق

مع مبادئها التّأسيسيّة.

لا يَحْسُن بالمرء أن يُفاجأ، إذن، عندما تظهر تنظيرات بديلة تخص الفعل التّرجمي متأتيّة عن نوع إدراكي إضافي من نظريّة الفعل، مصدره تداوليّة فاتزلافيك وآخرين .Watzlawick et al (1967) أو حتّى أخلاقيات فاريلا Varela (1992). فعلى سبيل المثال، يبدأ كل من موناسللي Monacelli وبونزو(2001) Punzo انطلاقاً من مفارقات مثل حقيقة أنّ التّرجمة هي تكافؤ ولا تكافؤ لمصدرها في آن معاً، اعتماداً على المنظور اللّحظي للمراقب. وقد رسمت مثل هذه العلاقات بمنطق محفوف بالغموض (راجع أيضاً غرانت Grant 1999). وما قد يثير الدّهشة، مع ذلك، هو أن أصول نظريّة الفعل، مهما كانت امتداداتها الاجتماعيّة أو الرّياضيّاتيّة أو النّفسيّة، تكمن في الفَلْسَفة التّحليليّة، أيْ في تقاليد فيتجنشتاين Wittgenstein وكوين. وهذا، على الأقل، ما يجب على المرء أن يُنْزِل عنده عمل فون رايت (1968) von Wright الرّائ، وفاتزلافيك وآخرين (1968) .Watzlawick et al.

فهل يمثل الاهتمام بنظريّة الفعل يقظةً متأخرة للفلسفة التّحليليّة؟ الأكثر ترجيحاً من ذلك أن مُنَظِّريّ التّرجمة المعنيين كانوا يَدُورُون على رَحَى أجزاء من الخطابات الفلسفيّة، ليس من أجل إضفاء الشّرعيّة على أي مقاربة تحليليّة منتظمة، ولكن بوصف ذلك جزءاً من محاولة لحل مشاكل معزولة غالباً ما يكون قد تقادم عليها الزّمن. وعلى سبيل المثال، يستشهد أندرو تشيسترمان (1993) Andrew Chesterman بالفرع البراغماتي من البحث الفَلْسَفيّ، مشيراً مرة أخرى إلى فون رايت، من أجل تحديد مفاهيم "المعايير" وآثارها على الأخلاق. ومع ذلك، فإنّ تشيسترمان (1997) يقترض أيضاً من كارل بوبر Karl Popper في عدة مناسبات إمّا لتوضيح المفاهيم (كما هو الحال مع مفهوم "العوالم الثّلاثة")[1] أو لتكييف أفكار محدّدة. ففي مجال

[1] في كتاب بعنوان "المعرفة الموضوعيّة" (1972)، قدم كارل بوبر فكرة وجود ثلاثة عوالم أو مجالات للوجود (أنطولوجيّة). العالم الأول هو عالم الأشياء والأحداث والعمليات الماديّة، بما في ذلك مجال علم الأحياء. العالم الثاني هو عالم الأحداث العقليّة والعمليات والاستعدادات – عالم المعتقدات والظّواهر النفسيّة الأخرى. العالم

الأخلاق، على سبيل المثال، لاحظ بوبر أنّ النّاس يتفقون على ما هو سيىء أكثر مما يتفقون على ما هو جيد. ويقترح تشيسترمان بالتّالي أنّه يجب، على نفس المنوال، أنْ تكون للتّرجمة "أخلاقيات سلبيّة"، قائمة على تجنب ضروب سوء الفهم وليس على أيّ نموذج مثالي للتّكافؤ التّام.

أمّا الاستخدام الآخر للخطاب الفَلْسَفيّ بوصفه أداةً لحل المشكلات فهو ما عبّرت عنه قِراءاتُ ارنو لايغوس Araud Laygues عن بيوبر Buber، ومارسل Marcel، وليفيناس Levinas (Laygues 2001). مع أنّ أياً منهم لم يناقش التّرجمة بإسهاب، لكن جميعهم ناقشوا أفكاراً يمكن أن تُساعد المترجمين على التّفكّير في علاقاتهم الإنسانيّة. عندما ينظر مارتن بيوبر على سبيل المثال، إلى العلاقة في الخطاب بين ضميري المتكلّم والمخاطب بوصفهما أكثر أصالةً من النّاحيّة الأخلاقيّة من خطاب ضمير الغائب، يقترح لايغوس أنّ المترجِم ذَا الخَلاقٍ يجبُ أنْ يَعُدَّ كلاً من النّص والقارئ ضميري مخاطبة [فاعلين]، وليسا مفعولين بهما. عندما ينظر إيمانويل ليفيناس إلى الآخر (ضمير غير المتكلّم) على أنّه وجهٌ لَهُ علينْا التّزاماتٌ أخلاقيّة معيّنة، يقترح لايغوس أنْ يسعى المترجِم إلى إقامة علاقة أخلاقيّة مناسبة مع الآخر (النّص، المؤلف، القارئ) وعندها فقط يكون قد أولى عنايّة بآداب السّلوك المهني. على نفس المنوال، حاول ميلبي (1995) Melby تطبيق رؤى ليفيناس على الآخر في المجال العام لتكنولوجيا اللّغة. وفي كلّ هذه الحالات، يُستخدم الخطاب الفَلْسَفيّ كمصدر لتحفيز المقارنات أو الدّقة الاصطلاحيّة اللّازمة، ولكن ليس بوصفه حلاً جاهزاً لجميع مشاكل علم التّرجمة.

بفضل ضروب الاقتراض هذه، كانت نظريّات التّرجمة في تسعينيات القرن العشرين مهتمةً بشكل متزايد بالقضايا الأخلاقيّة. وكان هذا جزئياً ردَ فعل ضد المفاهيم التّقليديّة مثل الأمانة والتّكافؤ، اللّذيْن تركتهما حالة عدم اليقين في القرن العشرين دون أيّ أساس مفاهيميّ. ومع ذلك،

الثالث هو عالم منتجات العقل البشري. وفي عمل لاحق، أخذ بوبر يشير إليها مرتبة: العالم الأول باسم ع1 (W1)، والعالم الثاني ع 2 (W2)، والعالم الثالث ع 3 (W3). (المترجم)

فقد كان أيضاً رداً على المنزع التّجريبيّ الّذي حفّز أجزاء كثيرة من علم التّرجمة في ثمانينيات القرن العشرين. فعلى سبيل المثال، أصبح التّكافؤ حقيقةً في جميع التّرجمات فيما يخص علم التّرجمة الوصفي (راجع توري Toury، 1980)، مما أدى إلى تحلل المفهوم إلى الحد الّذي لم يعد بإمكانه بيان ما يجب على المترجِمين القيام به؛ كانت مهمة الباحث مجرّد وصف المتغيرات والقواعد والقوانين الممكنة. وفي الوقت نفسه، لم يعد التّكافؤ أكثر من "حالة خاصة" مُقَيّدة لنظريّة المقصد، الّتي سعت إلى تزويد المترجمين بالإرشادات المهنيّة البديلة (راجع بيم Pym،1995). ومهما بدت المقاربات التّفكيكيّة أو مقاربات ما بعد الحداثة، فإنّ مفهومين مثل التّكافؤ والأمانة غدا وَهْمَيْن أساسهما التّقاليد، وهما غير قادرين على تقديم أيّ معالم إرشاديّة على الإطلاق. وقد اقترحت باربارا جونسون Barbara Johnson (1985) "النّظر فلسفياً إلى الأمانة" ، مثلما يفعل أحد الزّوجين عندما يخونه الآخر. ففقدان الوفاء يصنع فجوة، تسمح بالعودة إلى القضايا الأخلاقيّة الأساسيّة، هذه المرة بالاعتماد على مَظْهر العلاقات الإنسانيّة وليس على أيّ منزع تجريبي في الأداء. وهذه العودة إلى الأخلاق، لم تكن دون ثمن، فقد اقترنت باهتمام أكبر بتأويل الحوار، حيث يتم بشكل بديهي إعطاء أهميّة أكبر للناس بدلاً من النّصوص (انظر بيم Pym، 2001)

إذا كانت هناك طريقة معيّنة لاستخدام الخطاب الفَلْسَفيّ على هذا المستوى، فغالباً ما لا تكون لحل المشكلات المعزولة. إذْ يأخذ بعض المُنَظِّرين منظومةً كاملةً إلى بساط العمل، باحثين عن نتائجها الأخلاقيّة بمعنى أكثر شمولاً. وهنا يمكن للمرء أن يعود إلى ولتر بنيامين (1923) وهو يتأمل في ترجماته لبودلير من خلال رؤية العالم لتقاليد القَبَالة (انظر شتاينر Steiner,1975). إنّ نقطة الانطلاق الأكثر تكراراً هي جاك دريدا، الّذي شُغلت نصوصه منذ أواخر ثمانينيّات القرن العشرين بالتّرجمات وبدراستها. ويبدو دريدا في وقت لاحق على دراية تامة بأنّ عمله لا يتم تحويله إلى اللّغة الإنجليزيّة الأمريكيّة فحسب، بل يتمّ تفسيره أيضاً داخل أقسام الأدب الأمريكيّ والدّراسات الثّقافيّة. لقد استخدم علاقته بالتّرجمة فصار مُجَدِّداً لبنيامين، وكَاتِباً لدى المترجمين الأمريكيين وإليهم، وقَارِئاً لترجمات النّصوص الأدبيّة ولا سيّما شكسبير.

وأساس اهتمام دريدا بالتّرجمة في هذه المرحلة هو التّعدد (الظّاهريّ) للمصادر. وتُفْصِح عبارة "plus d'une langue" الّتي يتم الاستشهاد بها كثيراً عن هذه التّعدديّة: ويمكن ترجمتها على أنّها "أكثر من لغة واحدة" أو "هَبْ أننا لا نملك أكثر من لغة واحدة "، وكلتا القراءتين في لغة المصدر. ومع ذلك، لا يسعى دريدا إلى "الإطاحة بالنّص الأصلي"، كما ادّعى فيرمير أنّه فعل ذلك، وكما يعتقد العديد من التّفكيكيّن. ففي نصّ من عام 1992، وجدنا دريدا يسأل كيف يمكن أنْ يكون عمل مثل روميو وجولييت ذا معنى مفيدٍ – أيّ نوع من المعنى – بعيداً عن موقعه التّاريخيّ والثّقافيّ الأصليّ. وسُمّي هذا النّمط الواضح من قابليّة التّرجمة بـ"قابليّة التّكرار iterability"، ولا يُنسب إلى أي شيء دلالي، بل إلى إضفاء الطّابع المؤسسيّ الأدبيّ على بعض تأثيرات المعنى (راجع ديفيس، 35–30 :Davis, 2001). وفي هذا، يعترف دريدا أنّ الأدب بالضرورة هو نظام يعمل بمُثُلٍ أخرى بخلاف عمليّة التّفكيك المستتبّة الّتي قد تُشكّل بالفعل مفاهيم أخلاقيّة عمليّة مثل العدالة (دريدا، 147 :Derrida, 1993) وقد تم الاعتراف بذلك في وقت أقدم بكثير (دريدا، 229 :Derrida, 1967). وبالتّالي يمكن النّظر إلى النّص المصدر، ليس بوصفه مجموعة من الأوامر الإلزاميّة، ولا بوصفه مَلِكاً فَقَدِ عرشَه تماماً، ولكن بوصفه شَبَحاً، وصورةً يتم تنظيمها دون تحديد نطاق المتغيرات التّرجميّة. إنه يعود، مثل شَبَح الملك هاملت (دريدا، 3–42 :Derrida, 1993). ويحرص دريدا على تمييز ذلك عن أيّ ادّعاء بقابليّة التّرجمة، بوصفها تماثلاً قد يجعل تشكّل غَيْرِيّةٍ بيّنةٍ أمراً مستحيلاً، ولذلك يحب ضرورةً كسرها. ومع ذلك، فهو يُشيد ضمنياً بالنّص الأدبي العظيم، فضلاً على أنّه قد بوّأ نفسَه مَوْضِعَ القراءة لفهم جميع المتغيرات التّرجميّة، والحُكْم على التّرجمات الفرنسيّة لشكسبير، وإضفاء الشّرعيّة على صلتها بالمصدر. أيْ أنّ دريدا لا يعترف فقط بالأدوار الأساسيّة التي تؤديها المفاهيم الأدبيّة، بل يلعب هو نفسه لعبةً بوصفِهِ ذا منزع إنسانيّ.

وقد لاحظنا أنّ بعض التّفكيكيّن الآخرين كانوا يميلون إلى أنْ يكونوا أكثر تشدّداً بكثير ويكتسحون ساحة التّنظير للتّرجمة اكتساحاً. ربما تكون المُنَظِّرة البرازيليّة روزميري أروخو Rosemary Arrojo قد قادت نقد التّرجمة بوصفها "نقلَ المعنى"، أوْ سنَّ ضروبِ التّكافؤ

الضّروريّة، أو أيَّ افتراض يُضفِي عليها استقراراً مَوْضِعيّاً. وهكذا نجد أنّ انخراطها في التّفكيكيّة هي وزملاؤها المتنقلون (في التّحليل النّفسيّ، وما بعد الحداثة) ليس فقط في رفض جميع افتراضات نقل المعنى على هذا النّحو، ولكن (Arrojo, 1993) أيضاً رفض العديد من المُقَارَبَات النّسويّة للتّرجمة (Arrojo, 1994)، ورفض علاقات التّناظر المثاليّة (Arrojo, 1997) وفي الواقع رفض جميع أشكال الأسس اللغويّة (Arrojo, 1996). كما يمكن العثور على شكل من الرّفض مماثل لدى كايسا كوسكينن(Kaisa Koskinen (2000a، الّتي تشتغل ظاهرياً اعتمادًا على دريدا وبرمان من أجل تقييم أخلاقيات مُنَظِّري التّرجمة بيم وفينوتي. ومنهجها لما بعد الحداثة، الّذي يتحاشى أيَّ موقف يسعى لتوجيه مسؤوليّة الأفراد إزاء أفعالهم بذاتها، يجبرها على رفض ليس فقط القضايا السّياسيّة المثاليّة ولكن أيضاً عمليات البحث عن الذاتيّة المهنيّة، الّتي وقعت السّخريّة منها على أنّها "قَبَلِيّةٌ جديدةٌ" (Koskinen, 2000a: 78). وقلّما تسمح هذه الانتقادات بالرّد، لاسيما أن مُنَظِّرِيْن مثل فينوتي ونيم يميلان إلى الكتابة على المستويات العمليّة حيث يتم افتراض مفاهيم مثل "الاحتراف": الّذي يتجسّد في الكيانات الاجتماعيّة مثل الجمعيات المهنيّة. في تلك المستويات الأكثر نزوعاً خطاب تطبيقيّ، كما هو الحال في الكثير من الحركات النّسويّة أو الماركسيّة، لا يتم تلقائياً الاعتراف بالسّلطة الفلسفيّة لأخلاقيات ما بعد الحداثة. إذ غالباً ما تكون هناك مشكلات أكثر إلحاحاً يجب حلّها.

في الطّرف المقابل لمثل هذه الصّراعات المفاهيميّة، تمكنت بعض نظريّات التّرجمة من الازدهار دون الرّجوع إلى أي سلطة فلسفيّة على الإطلاق. تدّعي نظريّة المعنى الّتي طورتها دانيكا سيليسكوفيتش Danica Seleskovich في باريس أن المرء يترجم "المعنى"، وليس الكلمات (سيلسكوفيش ولودورير [1] Seleskovich, 1975; Seleskovich & Lederer, 1989). ومع ذلك، فإنّ الطّبيعة الدّقيقة لهذا "المعنى" تظل بلا نظريّة تقريباً. ويجد المرء بعض الإشارات المبكرة إلى

[1] تُرجمت أعمال كل من سلسكوفيش ولودورير إلى العربيّة مجزأة ومكتملة. والكتاب المشار إليه هنا ترجمته إلى العربيّة فايزة القاسم بعنون "التأويل سبيلا إلى الترجمة"، منشورات المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، ط 2009/1. (المترجم)

عَالِم النّفس الفرنسي بياجيه Piaget، ولكن ما عَدا ذلك، فقد استندت مدرسة كاملة من المُنَظِّرين والتّربويين إلى يقين تطبيقيّ بسيط يجعل أجزاء اللّغة ذات "معنى"، وبالتّالي يمكن ترجمة هذا "المعنى". ربما يكون هذا "المعنى" هو "المعنى الحرفي" الّذي دافع عنه سيرل؛ بل إنه قد يكون افتراضاً ضرورياً للمحادثات عند غرايس،[1] أو للقيمة الحقيقيّة عند ديفيدسون. ومع ذلك، لا يتطلب الأمر، في نظريّة [مدرسة] باريس، أكثر من التّبرير المؤسسي: "المعنى" هو فكرة تساعد على تدريب المترجمين، ولا داعي للخوض فيما هو أكثر من ذلك. والنّتيجة هي أنّه عندما يطلب المولعون بالجدل من هذه المدرسة (ربما سيرجيو فياجيو Sergio Viaggio وماريانو غارثيا لاندا Mariano García-Landa) مناقشةً فلسفيّةً حول هذه القضيّة، فإنّهم لا يكادون يجدون موطئ قدم يقفون عليه. والواقع أن تشاؤم كوين قد قوّض موقفهم هذا قبل عدة أجيال. كما محى التّفكيكيّون الفصل بين المعنى والشّكل؛ وهكذا لم تعد الشّروط المرجعيّة تجد أيَّ إطار فلسفيّ لها.

ربما يعتمد أيُّ تقدّم في نظريّة التّرجمة على إدراك أعمق بأنّ معظم الحُجج التّقليديّة لم تعد حُججاً يُعْتَد بها الآن. ومع ذلك، فإنّ استراتيجيات القُوى الأضعف تقود في الاتجاه المعاكس. احتاجت معظم المدارس أو تلك الّتي تتطلع أن تكون مدارس في نظريّة التّرجمة إلى بناء تصور للعدو Feindbild، فعند سيلسكوفيتش وأتباعها، كان العدو هو أيّ شخص يقول إنّه يجب على المرء أنْ يُترجِم الكلمات، وليس المعنى (هل يعتقد أيّ معاصر جاد ذلك حقاً؟). بالنّسبة إلى أتباع نظريّة المقاصد Skopostheorie، كان العدو هو أيّ شخص يؤمن بالتّكافؤ باعتباره الهدف الضروري الوحيد للتّرجمة (ولكن ذلك يعتمد بالتّأكيد على كيفيّة تعريفهم "التّرجمة"؟). وفي علم التّرجمة الوصفيّ، كان العدو هو أيّ شخص حاول إخبار المترجمين كيف يترجمون، لأنّ ذلك عُدَّ منزعاً توجيهياً (ولكن هل يمكن أنْ تكون الأوصاف محايدة تماماً؟). أمّا عند التّفكيكيّن، فإنّ العدو هو أيّ شخص يؤمن بالتّرجمة على أنّها "نقل المعنى" (ولكن هل يمكن في المطلق أن يدّعي أيّ شخص أنّك قد تستطيع أنْ تلتقط معنى؟).

[1] انظر الصفحات التاليّة: التوجهات المستقبليّة: حدود الفَلْسَفة، في الهامش. (المترجم)

يصعب العثور على معظم هؤلاء الأعداء في نظريّة التّرجمة، على الأقل من خلال المصطلحات التّبسيطيّة التي استخدمت في الهجوم عليها. إنّ أيّاً من هذه الثّنائيات المتعارضة لا يمكن دعمها بالمعنى المعاصر للخطاب الفَلْسَفيّ. ولهذا السّبب، فإنّنا نزعم، أنّ قلّة من الفلاسفة قد لا يتفقون كليّة مع ما قام به باسمهم مُنَظِّرو التّرجمة.

التّرجمةُ والفَلْسَفةُ

لقد ادّعى دريدا من وقت مبكر (9:1968) أنه "إزاء مشكلة التّرجمة، نحن نتعامل مع شيء لا يقل عن مشكلة العبور إلى الفَلْسَفة". كان قلقه المباشر في هذا النّص هو ترجمة إفلاطون، حيث يمكن أنْ يُطْلَق على المصطلح اليوناني فارماكون pharmakon بالفرنسيّة إمّا reméde (عِلاج) أو poison (سُمّ)، ولكن ليس كلا المصطلحين في آن واحد. وهكذا كانت مشكلة التّرجمة هي احترام المصطلحات الخاصة بالخطاب الفَلْسَفيّ، أو على الأقل الفَلْسَفة التي تتشاطر في مصطلحاتها مع أنواع أخرى من الخطاب. ولربما أمكن القول إنّ دريدا، حين لاحظ القصور الّذي يعتري التّرجمات الحاليّة باللّغة الفرنسيّة، أنجز بنفسه ترجماتٍ أشدَّ فعاليّة، وإنْ كان قد تخطى فيها بعض مُحدّدات الأداء. لقد فعل ذلك لأنّه من الواضح أنّ أيّ فيلسوف يستخدم لغة قُطْرِيّة فإنّه يهتم اهتماماً خاصاً بترجمة الفَلْسَفة. إذ تصبح التّرجمة شرطاً لقابليّة تّكرار الفَلْسَفة ذاتها، ويصبح إرثها في أَيَادي أجنبيّة (عن أنواع القلق الّذي ساور نيتشه إزاء هذا الموضوع، انظر بيم Pym, 1998a). بعد قرون من الإهمال تحت وطأة تراتبيّة للغات، صارت التّرجمةُ أكثرَ أهميّة من أنْ تُترك لمُنَظِّري التّرجمة وحدهم.

كانت ترجمةُ الفَلْسَفة (سيكون مثالنّا على ترجمة إفلاطون) مَصْدَرَ قلق للفلسفة الغربيّة منذُ أنْ أصبحت العلاقة بالماضي الكلاسيكي إشْكاليّة. فَإبّان عصر النّهضة بمنزعها الإنسانيّ في القرن الخامس عشر، أصرّ ليوناردو بروني على الأناقة بِعَدِّها ميزةً ضروريّة لترجمات إفلاطون، وشارك في مناظرة حاسمة مع الأسقف الإسباني ألونسو القرطاجني Alonso de Cartagena

الّذي دافع عن ترجمة مُعْجَمَةٍ[1] translationese من القرون الوسطى كان من الصّعب قراءتها، وتمتلئ بالنّسْخ الحرفي، وقَلَّ أنْ يصيبها خطأ في شيء يمس ثقافة الهدف. وفي هذا النّقاش، قد يُنظر إلى القرطاجني على أنّه دافع عن الغرابة foreignness وعن المصطلحات الفنيّة وعن التّعدديّة اللّغويّة، بطريقة يوافق عليها العديد من المنتمين إلى ما بعد الحداثة. وكان يُنَافِح أيضاً عن التّرجمات الّتي ستحفظ الفَلْسَفة الوثنيّة وتَسِمها بِمَيْسم لا يمّحي كونها مختلفةً عن العقيدة المسيحيّة. لسوء الحظ، فاز بروني تاريخياً في هذه المناظرة. ووجد أفلاطون صوتاً ترجمياً جعله شخصاً بليغاً. واستخدمت الفَلْسَفة نفس كلمات الأنواع [الأدبيّة] الأخرى؛ فاختلط الفكر الوثني باللاهوت اليهودي المسيحي؛ وتدفق الخطاب من اليونانيّة إلى اللاتينيّة ثم إلى اللّغات القُطْريّة في أوربا؛ وهكذا أصبحت مشكلة دريدا مع كلمة "فارماكون" مَوْضِعاً للتّفكير.

هذا التّقليد ذو المنزع الإنسانيّ في ترجمة الفَلْسَفة هو ما كان يستخدمه دريدا ويقاومه. وقد بقي هذا التّقليد إلى حد بعيد دون منازع حتّى أصبحت الفَلْسَفة علمانيّة ولاهوتيّة في آن واحد. وعلى سبيل المثال، فقد استطاع عالم اللّاهوت البروتستانتي شليرماخر أنْ يتظاهر بأنّه أيديولوجياً لا ينزعج من ترجمة أفلاطون بوصفه وثنياً؛ إذ أنّه كان أكثر اهتماما بالطّابع الفَلْسَفيّ لغِيْرِيّة النّص. كانت فكرة الرّومانسيّة الألمانيّة مركّزة على مستوى الشّكل واللّغة والهويّة وليس على المحتوى في ذاته. وبالتّالي كانت ترجمة شليرماخر لأفلاطون غير أنيقة، مع إثقالها بعدد كثير من ملاحظات المترجم، مما حدا بأورتيغا غاسيت (2000/1937) أنْ يخرج بعد حين مُنْتَقِصاً من شأنها بوصفها "قبيحةً". مع أنّه يتفق إلى حد بعيد مع استراتيجيّة التّغريب.

أمّا الموقف ضد الفردانيّة فيمكن تتبعه في الرّمانسيّة الألمانيّة من خلال الكثير من التّقاليد التّأويليّة. فقد استخدم مارتن هايدغر التّرجمة، أكثر من أي شخص آخر، لتوضيح المسارات

[1] مصطلح translationese يستخدم لازدراء ترجمات تتسم بركاكة الأسلوب وحرفيّة النقل وغلبة طابع اللغة–المصدر على معايير السّبك في اللغة–الهدف. لم نقف على مصطلح يعبر عن ذلك. فاشتققنا من الإعجام صفة لهذه الترجمة الّتي علقت بها عُجمة فلم تبن برغم خلوها من اللّحن في اللغة – الهدف. (المترجم)

المتعرّجة للتّأويل، جاعلاً التّرجمة وسيلة للعرض الفَلْسَفيّ، وربما للفكر. ويمكن رؤية ذلك في ترجماته المثيرة للجدل للمصطلحات الفلسفيّة الألمانيّة من يونانيّة ما قبل سُقراط، وفي تأملاته المستمرة في الاختلافات بين اللّغات، وفي إصراره على أنّ التّرجمة (Übersetzung) ليست مجرّد تفسير بل إنّها أيضاً مناولةٌ وتسليمٌ، فهي قضيّة تراث (Überlieferung)، حيثُ تعتمد المفاهيم الرّئيسيّة على ما كان مخفياً طي عَرَاقةٍ سَابقة (Heidegger, 1963: 395–396). وتصبح التّرجمة عملياً طريقاً للقيام بالفَلْسَفة، وحاملاً لتقليد مفقود. وفي هذا، نجد مصدر إلهام محتمل لاهتمام دريدا بمصطلح مثل "فارماكون"، ولو من باب التّبجيل لقابليّة التّكرار وحضور الماضي بصورة شَبَح. ولعلنا أيضاً نخمّن سبب تفضيل هؤلاء الفلاسفة ترجماتهم الّتي قاموا بها بأنفسهم على أي شيء يُنْتِجه مترجمون خُلَّص: أي أصبحت الفَلْسَفة الغربيّة، على مستوى معيّن، سلسلةً من التّرجمات المفاهيميّة لذات الفَلْسَفة.

وبنفس القدر يمكن للمرء أنْ يقول إنّ العديد من الخطابات الفلسفيّة المعاصرة تشترك في قلق دفين بأنّ لغتها في ذاتها هي نقل ترجمي على مستوى معين. والنّتيجة المألوفة هي نص شديد التّنوع، يميل إلى أنْ يصبح أقلّ من ذلك عند التّرجمة (فيما يخص التّرجمات الإنجليزيّة لفيجينشتاين وأفلاطون، انظر فينوتي (119–106 :1998b). إن أحد القوانين المحتملة لكل ترجمة هو أنّها تميل إلى جعل الخطاب على نسق واحد. ومع ذلك، في حالة الفَلْسَفة قد يكون هذا الخطاب الآن على أكثر من نسق، لأنّ المؤلفين يتحدثون من منطلق سلطة في نطاق العلوم الإنسانيّة: فدريدا الأمريكي، على سبيل المثال، لا يمكن الخلط بينه وبين لغة الفَلْسَفة الأمريكيّة. وحقيقة الأمر أنّ المترجمين ومُنَظِّري التّرجمة يميلون إلى احترام الفلاسفة أكثر بكثير مما قد يصنع أيّ فيلسوف، مع أنّ هؤلاء الفلاسفة لم يقولوا في حق المترجِم قولاً حسناً من أيّ نوع.

التّوجهاتُ المستقبليّةُ: حدودُ الفَلْسَفةِ

يبدو الآن أنّ المشاكل الرّئيسيّة في العلاقات بين الفَلْسَفة والتّرجمة أصبحت واضحةً إلى حد ما. فحيثُ توجد السّلطة الفلسفيّة، فإنّ العديد من مُنَظِّرِي التّرجمة يتحيزون لها دونما حاجة إلى

ذلك. وحيثما تكون غائبة، يسود منزع تجريبيّ غريب نوعاً ما قلّ أنْ يفارق مفاهيم العلم الوضعيّة، كما في معظم علم التّرجمة الوصفي، أو في لسانيات المدوَّنة أو بروتوكولات التّفكير بصوت عالٍ. وفي هذا الصّدد، فإنّ انقسامات الخطاب الفَلْسَفيّ نفسه على مستوى القارات لم تخدمنا بشكل جيد. إذ يدَّعي نصف العالم بأنه يعرف معرفةً مباشرةً ما هو الخطأ في النّصف الآخر. والنّتيجة ليست مجرد نقص في الحوار، ولكن سوء فهم خطِر.

إنّ بعضاً من أكثر الأخطاء المؤسفة تتعلق بوضع البحث اللّساني. فليس من غير المألوف، على سبيل المثال، العثور على مُنَظِّرين أدبيين (راجع فينوتي 21–24Venuti :b-1988) يعارضون شيئاً مثل أقوال غرايس[1] Grice المأثورة للمحادثة (لا تقل كذباً، لا تتكلم طويلاً، كن واضحاً، وما إلى ذلك)، لأن هذه الأشياء متغيّرة ثقافيا. ويمكننا العثور على عدد غير قليل من المقالات المعياريّة التي يتم فيها استخدام نفس هذه الأقوال المأثورة لِلْحُكْم على مدى جودة أداء المترجمين، كما لو كانت هذه الأقوال قوانين للنّصوص الجيدة. يتجاهل المُنَظِّرون وذوو المنزع التّوجيهي معاً، أو أنّهم يقلّلون من حقيقة أنّ غرايس يرى معنى تداوليّاً ينتج عن انتهاك هذه الأقوال المأثورة. ويشكل عدم رؤية هذا الأمر خسارةً فادحة. لا شك في أنّ غرايس، ضمن التّقليد التّحليلي، يبحث عن شيء مثل اليقين الدّلالي، ولكن ما وجده هو أنّ النّاس يخلقون معنى من خلال كسر القواعد. إذن القواعد ليست قوانين؛ إنّها خيالٌ لأداء العمل نستخدمها من أجل التّواصل؛ وإنّ كسرها يمكن أنْ يؤدّي إلى عدد لا حصر له من الفُوَيْرقات والطّرائف. وقد يوفّر هذا مؤشراً على الوضع المستقبلي للأشياء الّتي يقولها النّاس ويؤمنون بها بشأن التّرجمة.

واحد من المنظرين القلائل الّذين رجعوا إلى كل من التّقليد التّحليليّ وإلى ما تراكم بالتّأويل والتّفكيك هو أندرو بنيامين Andrew Benjamin، الّذي لم يكن لكتابه المعقّد "التّرجمةُ وطبيعةُ

[1] بول غرايس Paul Grice (1913–1988) فيلسوف لغوي بريطاني اشتُهِرت عنة ما صارت تُعرف بأقوال غرايس المأثورة أو حكم غرايس في تنظيم المحادثة والاتصال. وقد بناها معتمدا على مبدأ التعاون. ولها أربعة ركان هي الكميّة والكيفيّة والعلاقة والأسلوب. وصاغها على شكل حكم توجيهيّة تحت هذه الأركان الأربعة كما يرد بعضها هنا. (المترجم).

الفَلْسَفةِ" 1989 تأثيرٌ كبير على هذا المجال. مثلما فعل آخرون كُثُر، كان بنيامين يدرك أنّه لا يوجد أساس فلسفيّ للتّرجمة على أنّها "نقاهة عقلانيّة" (استخدام العقل لإنعاش معاني المصدر). ومثل العديد من علماء الأدب، كان يعتقد أنّه، بدلاً من الدّلالات والبحث عن اليقين، "يجب أن يتحول التّركيز إلى النّص نفسه وإلى الاهتمام باللّغة" (بنيامين، 1989: 86). لكن بنيامين يذهبُ أبعدَ من ذلك بقليل، محاوِلاً صياغة ما الّذي تحتويه اللّغة وما يُزْمَع تَرْجَمَتُه، أو يتم ابتداعه بالتّرجمة، وهو يفعل ذلك بعبارات تفاعليّة مثل: "في البدْء كان موقع الصّراع" (بنيامين، 1989: 108). إذن ذلك هو الموقع الّذي يمكن أنْ تمتد إليه يَدُ التّرجمة.

وقد يُظهر هذا النّوع من التّفكير طريقاً للمضي قُدماً، لاسيما إذا أمكن إعادة صياغة الصّراع مفاهيميّاً بوصفه تعاوناً تقليديّاً جديداً. والنّقطة المهمة هي أنْ نتجاوز الانتقادات السّهلة للأوهام. وتصبح مواقع الصّراع (أو التّعاون) مَواضعَ تكون فيها لأفكارٍ مثل الأمانة، أو التّكافؤ، أو قابليّة التّرجمة، أو الخفاء، أو الأخلاقيات المهنيّة أدوارٌ وظيفيّة تنظيميّة (انظر بشأن التّكافؤ، Pym، 1995؛ حول قابليّة التّرجمة، Pym & Turk، 1998؛ أو بشأن "التّطابق المفترض" غوت 1991، Gutt على الرّغم من أن تعريف غوت المقيد لـ" التّرجمة المباشرة "يؤدي إلى نتائج معياريّة لا جدوى منها). ويمكن استيعاب هذه الأدوار بالفعل من حيث إنها تقاليد تحليليّة. بل إن هذا نوع من العودة الّتي لا تُصَدَّق يمكن أن تنتمي إلى ما بعد الحداثة، كما لو أنّ المصطلحات هي المهمة.

إن إحدى المشاكل المتبقيّة هي دور المترجِم ومسؤوليته بوصفه فرداً. يدّعي أمّان Ammann (1994)، عند ذكره سلطة تأثير الوجوديّة، أنّ علم التّرجمة حاول باستمرار استبعاد الفرد من خلال تطوير فئات تكافؤ أو ثنائيّات متقابلة. وهذا صحيح بما فيه الكفاية. بل قد نذهب أبعد من ذلك أيْ: إذا كان أيّ عِلْم يتسم بطابع العموميّة، فإنّ أيَّ سمة علميّة تخص علم التّرجمة يجب أنْ تستبعد الفردانيّة المحضة. إذن هل خيارنا الوحيد هو استخدام الفَلْسَفة للتندّيد بمقتضيات النّظريّة، وبالتّالي تحرير الفرد أو تمكينه من خلال الادّعاء بأنّه يتخذ قراراته بنفسه؟ يبدو أنّ هذا الموقف يحبط رغبتنا في تَعَرُّف ضروب الخيال العمليّة.

وفي هذا المقام، ثمّة العديد من الحلول الممكنة. أحدها، ما جادل بشأنه تشيسترمان Chesterman (1999)، وهو الادّعاء بأنّ علم التّرجمة لا يحتاج مباشرة إلى إخبار المترجمين بما يجب عليهم فِعْلَه؛ يمكنه إجراء بحث علميّ تجريبيّ من أجل التّنبؤ بما يمكن أنْ يحدث إذا اعتمد المترجمون الخيار "أ" أو "ب" أو "ج" في مقام معيّن. وهذا يفضي بالمنزع التّجريبيّ إلى نتيجة منطقيّة، دون أن يفترض بالضرورة أنّ مصطلحات التّحليل لدى أيّ مُنَظِّر هي مصطلحات محايدة أيديولوجياً أو بلا سلطة مُسْتَعارة.

وثمّة حل آخر ممكن هو استخدام الخطاب الاجتماعيّ في تصور أنماط الفردانيّة الّتي تتكيف باستمرار مع العلاقات الاجتماعيّة، دون أن تُخْتَزَل فيها. هنا قد نتناول مفهوم "الإلْف"[1] 'habitus' الّذي صَاغه Bourdieu بورديو (انظر: سميوني Simeoni, 1998) ومحاولة جعله متوافقاً مع مفهوم قواعد التّرجمة الّتي طورها توري Toury (1995). مع ذلك، فإنّ هذه مجرد تسمية "موقع صراع" في نطاق موضوع الدّراسة، دون حل الصّراع فعلياً ودون ربطه بموقف المُنَظِّر.

وفي الوقت نفسه، يمكن للمرء أن يتّبع بورديو في قبول أنّ العلوم الإنسانيّة ليست ببساطة "ذات طابع عام"؛ لكنها ترتكز على علاقات اجتماعيّة يتشارك في نطاقها كل من المُنَظِّرين والممارسين، غالباً في الشّخص نفسه. وبالتّالي سيكون هناك قدرٌ كبير من الفردانيّة الّتي تنخرط، مع السّلطة الفلسفيّة بما يفسح في نهاية المطاف المجال أمام طرق تفكير تتكئ على علم الاجتماع للنّظر في مواقفنا واهتماماتنا الذاتيّة. إن مُنَظِّري التّرجمة، بوصفهم وسطاء بين الخطابات الفَلْسَفيّة والممارسات التّرجميّة، يشاركون بنشاط في حوار مستمر، حيث يجب أنْ نتعلم من كلا الجانبين. وفي ضوء ذلك، ربما لا تكون مشكلة علم التّرجمة هي أنّه يتعين عليه قراءة

[1] استخدمنا تجوزاً كلمة عربيّة: "إلْف"، لترجمة "الهابيتوس" habitus الّذي اقترحه بورديو للتعبير عن جملة الاستعدادات الّتي يكتسبها الفرد من خلال ما خاض أو يخوض من تجارب شخصيّة في المجتمع لتتحول مع الزّمن إلى بنيات ناظمة لسلوكه ومنتظمة فيه في آن واحد. وتميل الأدبيات العربيّة للاحتفاظ بالفظ الأعجمي. وعدم الانفكاك من ربقته شكلاً وذلك أمر يطول نقاشه. (المترجم).

المزيد من الفَلْسَفة، ولكن يجب أنْ يولي اهتماماً جدلياً لما يفعله المترجمون ويقولونه. قد يكون من الممكن صياغة إرشادات لذلك على النّحو التّالي:

يمكن النّظر إلى التّرجمة على أنّها نشاطٌ لحل المشكلات بما يُمكّن من نقل عنصر من لغة– المصدر بواسطة عنصر واحد أو أكثر في لغة–الهدف. إذا كان لدى المترجمين خيارٌ واحدٌ متاحٌ فقط، فلا يوجد ما يقال؛ ليست هناك حاجة إلى فلسفة. ومع ذلك، عندما يكون لديهم خياران أو ثلاثة، فإنّ التّرجمة جديرة أنْ تُناقش أمر ذلك، وسيكون الأمر مثاليا لو تمّ بين المترجمين، الّذين يمكنهم أنْ يشرعوا في التّنظير. وعندما تتوفّر، كما يحدث أحياناً، العديد من الخيارات المتاحة ولا توجد نظريّة واضحة حول كيفيّة تقليل هذا التّعقيد، يصل سبب المناقشة إلى مستويات يمكن عندها اللجوء إلى الخطاب الفَلْسَفيّ، للحصول على أفكار حول الخيارات، على الرّغم من أنّه نادراً ما يكون ذلك بحثاً عن حلول ترجميّة. يمكن رؤية هذا في معظم النّظريّات والأساليب الّتي تناولناها هنا. إذ تميل الخطابات الفلسفيّة إلى أنْ تكون جذابةً أو تتدخل فيما يتعلق بالمشكلات الّتي يتوفر لها أكثر من ثلاثة أو أربعة أبدال. ولتطوير الكلمات المناسبة لتلك الأبدال، قد يكون للفلسفة دور مناسب مثلما رأيناه؛ أما تبنيها والأخذ بها فإن ذلك هو واحد من الأدوار المنوطة بعلم التّرجمة.

إن ما تفتقده الخطابات الفلسفيّة، بطبيعة الحال، هو منطق الأنشطة اليوميّة الكثيرة، والتّقنيات العديدة التي يعمل المترجمون أنفسهم من خلالها على تقليل التّعقيد باستمرار. تلك هي ضروب الخيال العمليّة الّتي نحتاج إلى فهمها. وللقيام بذلك، ربما ينبغي لنا أنْ نتعلم أنْ نفكر من أسفل إلى أعلى، أيْ من الممارسات الفعليّة صُعُداً، بدل الاتجاه من القمة إلى القاعدة، أيْ من الأنظمة المفاهيميّة الكبرى، وإنْ كان يجدر التّقاء الطّرفين.

المراجع

- Ammann, M. (1994) Von Schleiermacher bis Sartre: Translatologische Interpret-ationen. In M. Snell-Hornby, F. Pöchhacker and K. Kaindl (eds) *Translation Studies: An Interdiscipline* (pp. 37–44). Amsterdam: John Benjamins. Amsterdam: John Benjamins.
- Arrojo, R. (1993) *Tradução, Deconstrução e Psicanálise*. Rio de Janeiro: Imago.
- Arrojo, R. (1994) Fidelity and the gendered translation. *TTR. Traduction Terminologie,*
- Arrojo, R. (1996) Postmodernism and the teaching of translation. In C. Dollerup and V. Appel (eds) *Teaching Translation and Interpreting* (pp. 97–105). Philadelphia: John Benjamins.
- Arrojo, R. (1997) Asymmetrical relations of power and the ethics of translation.
- Badawi, A. (1968) *La transmission de la philosophie grecque au monde arabe*. Paris: Vrin.
- Benjamin, A. (1989) *Translation and the Nature of Philosophy: A New Theory of Words*.
- Benjamin, W. (1970) The task of the translator (H. Zohn, trans.). In W. Benjamin (H. Arendt, ed.) *Illuminations* (pp. 69–82). London: Fontana (original work published in 1923).
- Benjamin, W. (1970) The task of the translator (H. Zohn, trans.). In W. Benjamin (H. Arendt, ed.) *Illuminations* (pp. 69–82). London: Fontana (original work published in 1923).
- Berman, A. (1984) *L'épreuve de l'étranger : Culture et traduction dans l'Allemagne*
- Berman, A. (1985) La traduction et la lettre : Ou l'auberge du lointain. In A. Berman
- Berman, A. (1992) *The Experience of the Foreign*: *Culture and Translation in Romantic*
- Bigelow, J. (1978) Semantics of thinking, speaking and translation. In. F. Guenthner and M. Guenthner-Reutter (eds) *Meaning and Translation: Philosophical and Linguistic Approaches* (pp. 109–135). London: Duckworth.
- Brower, R.A. (ed.) (1959a) *On Translation*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Burge, T. (1978) Self-reference and translation. In F. Guenther and M. Guenther-Reutter (eds) *Meaning and Translation: Philosophical and Linguistic Approaches* (pp. 137–153). London: Duckworth.
- Chau, S.S.C. (Chau Suicheong) (1984) Hermeneutics and the translator: The onto-logical dimension of translating. *Multilingua* 3 (2), 71–7.
- Chesterman, A. (1993) From 'is' to 'ought': Laws, norms and strategies in transla-tion studies.

Target 5 (1), 1–20.

- Chesterman, A. (1997) *Memes of Translation: The Spread of Ideas in Translation Theory*.
- Chesterman, A. (1999) The empirical status of prescriptivism. *Folia Translatologica* 6,
- Chomsky, N. (1980) *Rules and Representations*. New York: Columbia University Press.
- Davidson, D. (1984) *Enquiries into Truth and Interpretation*. Oxford: Clarendon Press.
- Davis, K. (2001) *Deconstruction and Translation*. Manchester: St Jerome.
- Derrida, J. (1967/1976) *De la grammatologie*. Paris : Les Éditions de Minuit. (English version: G.C. Spivak (trans.) (1976) *Of Grammatology*. Baltimore: Johns Hopkins University Press.)
- Derrida, J. (1968) La pharmacie de Platon. *Tel Quel* 32, 3–48, and 33, 18–59. (English version: B. Johnson (trans.) (1981) *Dissemination*. Chicago: University of Chicago Press.)
- Derrida, J. (1985) Des tours de Babel (English and French versions, J. Graham, trans.). In J. Graham (ed.) *Difference in Translation* (pp. 165–207; 209–248). Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Derrida, J. (1992) This strange institution called literature: An interview with Jacques Derrida (G. Bennington and R. Bowlby, trans.). In D. Attridge (ed.) *Jacques Derrida: Acts of Literature* (pp. 33–75). London: Routledge.
- Derrida, J. (1993) *Spectres de Marx*. Paris : Galilée.
- Feleppa, R. (1988) *Convention, Translation, and Understanding: Philosophical Problems in the Comparative Study of Culture*. Albany, NY: State University of New York Press.
- Føllesdal, D. (2001) *Indeterminacy of Translation: of Philosophy of Quine* (Vol. 3).
- Foucault, M. (1966) *Les mots et les choses*. Paris : Gallimard.
- Foucault, M. (1971) *L'ordre du discours*. Paris: Gallimard.
- Foucault, M. (1986) 'What is an author' (J.V. Harari, trans.). In P. Rabinow (ed.) *The Foucault Reader* (pp. 101–120). London: Penguin.
- Frege, G. (1984) *Collected Papers on Mathematics, Logic, and Philosophy* (B.McGuinness, ed. and M. Black, trans.). Oxford: Blackwell.
- Gadamer, H-G. (1977) *Philosophical Hermeneutics* (D.E. Linge, trans. and ed.).
- García Yebra, V. (1994) Traducción: Historia y teoría. Madrid: Gredos.

- *Germany* (S. Heyvaert, trans.). Albany: State University of New York Press. Berman, A. (1995) *Pour une critique des traductions : John Donne*. Paris : Gallimard. Berman, A. (2000) Translation and the trials of the foreign. In L. Venuti (ed.) *The*
- Gorlée, D.L. (1994) *Semiotics and the Problem of Translation: With Special Reference to the*
- Grant, C.B. (1999) Fuzzy interaction in dialogue interpreting: Factual replacements, autonomy and vagueness. *Linguistica Antwerpiensa* 33, 85–100.
- Guenther, F. and Guenther-Reutter, M. (eds) (1978) *Meaning and Translation: Philo-*
- Gutt, E-A. (1991) *Translation and Relevance: Cognition and Context*. Oxford: Blackwell.
- Heidegger, M. (1963) Excerpts from *Der Satz vom Grund* [1957]. In H.J. Störig (ed.) *Das Problem des Übersetzens* (pp. 395–409). Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft. Herbst, T. (1994) *Linguistische Aspekte der Synchronisation von Fernsehserien* Tübingen:
- Hirsch, A. (1995) *Der Dialog der Sprachen: Studien zum Sprach und Übersetzungsdenken*
- Hirsch, A. (ed.) (1997) *Übersetzung und Dekonstruktion*. Frankfurt: Suhrkamp.
- Hofstadter, D. (1997) *Le Ton beau de Marot: In Praise of the Music of Language.* New
- Holz-Mänttäri, J. (1984) *Translatorisches Handeln: Theorie und Methode*. Helsinki:
- Jakobsen, A.L. (1986) Lexical selection and creation in English. In I. Lindblad and M.
- Jakobson, R. (1959/2000) On linguistic aspects of translation. In R.A. Brower (ed.) *On Translation* (pp. 232–239). Cambridge MA: Harvard University Press. (Reprinted in Venuti, L. (ed.) (2000) *The Translation Studies Reader* (pp. 113–18). London: Routledge.)
- Katz, J. (1978) Effability and translation. In F. Guenther and M. Guenther-Reutter
- Katz, J. (1978) Effability and translation. In F. Guenther and M. Guenther-Reutter (eds) *Meaning and Translation: Philosophical and Linguistic Approaches* (pp. 191–234). London: Duckworth.
- Kirk, R. (1986) *Translation Determined*. Oxford: Clarendon Press.
- Koskinen, K. (2000a) *Beyond Ambivalence: Postmodernity and the Ethics of Translation*.
- Ladmiral, J-R. (1979) *Traduire : Théorèmes pour la traduction.* Paris : Payot.
- Laygues, A. (2001) Review article of Buber, Marcel, and Levinas. In A. Pym (ed.) *The Return to Ethics*. Special issue of *The Translator* 7 (2), 315–19.
- Lefebvre, H. (1968) *La vie quotidienne dans le monde moderne*. Paris: Gallimard.

- Malmkjaer, K. (1998a) Analytical philosophy and translation. In M. Baker (ed.) *Routledge Encylopedia of Translation Studies* (pp. 8–13). London: Routledge.
- Melby, A., with Warner, T.C. (1995) *The Possibility of Language: A Discussion of the Nature of Language, with Implications for Human and Machine Translation*. Amsterdam: Benjamins.
- Meschonnic, H. (1973/1999) *Poétique du traduire*. Paris: Verdier.
- Monacelli, C. and Punzo, R. (2001) Ethics in the fuzzy domain of interpreting: A 'military' perspective. In A. Pym (ed.) *The Return to Ethics*. Special Issue of *The Translator* 7 (2), 265–82.
- Nouss, A. (2001b) *Métissages*. Paris : Pauvert.
- Ortega y Gasset, J. (1937) Miseria y esplendor de la traducción. *Obras completas* 5, 433–52. Thde misery and the splendor of translation (E.G. Miller, trans.). In L. Venuti (ed.) (2000) *The Translation Studies Reader* (pp. 49–63). London: Routledge.
- Pêcheux, M. (1975) *Les Vérités de la palice*. Paris: Maspero.
- Poe, E.A. (2004) *Eureka* (S. Levine and S.F. Levine, eds). Champaigne, IL: Illinois University Press (original work published 1894).
- Price, L. (2000) *The Anthology and the Rise of the Novel.* Cambridge: Cambridge University Press.
- Pym, A. (1995) European translation studies, *une science qui dérange*, and why equivalence needn't be a dirty word. *TTR. Traduction Terminologie, Rédaction* 8 (1), 153– 176.
- Pym, A. (1997) *Pour une éthique du traducteur*. Arras: Artois Presses Université.
- Pym, A. (1998a) Getting translated: Nietzsche's Panama Canal. In M. Ballard (ed.)
- Pym, A. (ed.) (2001) *The Return to Ethics*. Special issue of *The Translator* 7 (2).
- Pym, A. and Turk, H. (1998) Translatability. In M. Baker (ed.) *Routledge Encylopedia of Translation Studies* (pp. 273–277). London: Routledge.
- Quine, W.V.O. (1959) Translation and meaning. In R.A. Brower (ed.) *On Translation*. Cambridge, MA: Harvard University Press. (Reprinted in L. Venuti (ed). (2000) *The Translation Studies Reader* (pp. 94–112). London: Routledge.)
- Quine, W.V.O. (1969) Linguistics and philosophy. In S. Hook (ed.) *Language and Philosophy.*

New York: University Press.
- Reiß, K. and Vermeer, H.J. (1984) *Grundlegung einer allgemeinen Translationstheorie.*
- Robinson, D. (1991) *The Translator's Turn.* Baltimore: Johns Hopkins University Press.
- Robinson, D. (1992) Classical theories of translation from Cicero to Aulus Gellius.
- Robinson, D. (1996) *Translation and Taboo*. DeKalb: Northern Illinois University Press.
- Robinson, D. (ed.) (1997b/2001) *Western Translation Theory from Herodotus to Nietzsche*. Manchester: St Jerome.
- Schleiermacher, F. (1838) Über die verschiedenen Methoden des Übersetzens. Lecture delivered in 1813. In *Sämtliche Werke, Dritte Abteilung : Zur Philosophie* (Vol. 2; pp. 207–245). Berlin: Reimer. (English version: On the different methods of translating. In D. Robinson (ed. and trans.) (1997) *Western Translation Theory from Herodotus to Nietzsche* (pp. 225–38). Manchester: St Jerome.
- Searle, J.R. (1969), *Speech Acts*: *An Essay in the Philosophy of Language*. Cambridge:
- Seleskovitch, D. (1975) *Langage, langues et mémoire*. Paris : Minard.
- Seleskovitch, D. and Lederer, M. (1989) *Pédagogie raisonnée de l'interprétation.* Paris:
- Steiner, G. (1975/1998) *After Babel: Aspects of Language and Translation*. Oxford:
- Strauss, M.L. (1998) *Distorting Scripture? The Challenge of Bible Translation and Gender Accuracy.* Downers Grove, IL: Intervarsity Press.
- Tampere: University of Tampere.
- Tarski, A. (1994) *Introduction to Logic and to the Methodology of the Deductive Sciences.*
- Toury, G. (1980) *In Search of a Theory of Translation*. Tel Aviv: Porter Institute.
- Toury, G. (1995) *Descriptive Translation Studies and Beyond.* Amsterdam: John Benjamins.
- *Translation Studies Reader* (pp. 276–289). London: Routledge.Varela, F.J. (1992) *Un know-how per l'etica*. Roma-Bari : Editori Laterza,
- Venuti, L. (1995) *The Translator's Invisibility: A History of Translation* London:
- Venuti, L. (1986) The translator's invisibility. *Criticism* 28 (2), 179–212.
- Venuti, L. (1991) Genealogies of translation theory: Schleiermacher. *TTR. Traduction Terminologie, Rédaction* 4 (2), 125–150.

- Venuti, L. (1998a) Introduction. In L. Venuti (ed.) *Translation and Minority*. Special issue of *The Translator* 4 (2), 135–144.
- Venuti, L. (1998b) *The Scandals of Translation: Towards an Ethics of Difference.* London:
- Venuti, L. (ed.) (1992) *Rethinking Translation*. London: Routledge.
- Venuti, L. (ed.) (1998c) *Translation and Minority*. Special issue of *The Translator* 4 (2).
- Venuti, L. (ed.) (2000) *The Translation Studies Reader.* London: Routledge.
- Vermeer, H.J. (1989) Skopos and commission in translational action. In A. Chesterman (ed.) *Readings in Translation Theory* (pp. 173–87). Helsinki: Oy Finn Lectura. (Reprinted in L. Venuti (ed.) (2000) *The Translation Studies Reader* (pp. 221–32). London: Routledge.)
- Vermeer, H.J. (1996). *Das Übersetzen im Mittelalter (13. und 14. Jahrhundert)* (2 vols).
- von Wright, G.H. (1968) *An Essay in Deontic Logic and the Theory of Action*.
- von Humboldt, W. (1836) *Über die Verschiedenheit des menschlichen Sprachbaues und ihren Einfluss auf die geistige Entwicklung des Menschengeschlechts*. Zweiter Nachdruck (1968 facsimile: Bonn-Hannover-Munich: Dümmlers Verlag).
- *Walter Benjamins und Jacques Derridas*. Munich: Fink.
- Watzlawick, P., Bavelas, J.B. and Jackson, D.D. (1967) *Pragmatics of Human Communi-cation*. New York: Norton.

مفهوم التكافؤ في الترجمة

ترجمة د. شريفة بلحوتس
جامعة محمد بوقرة، بومرداس
الجزائر

مقدّمة الترجمة

يعدّ كتاب كتارينا رايس Katharina Reiss بعنوان «Problématique de la Traduction» (إشكالية الترجمة) ترجمة Catherine A.Bocquet أحد أبرز مؤلّفاتها. وتعتبر الكاتبة من رواد المنظّرين في الترجمة، فهي تعرض إشكالية الترجمة من منظورها ضمن ثمانية فصول، في حدود 197 صفحة، عالجت فيها مسائل أساسية في الترجمة خاصة فيما يتعلّق بالنظرية والتطبيق، وبالتكافؤ وأنواع النصوص، وبدور اللسانيات الحديثة في الترجمة مدعّمة آراءها بأمثلة من لغات مختلفة. والكتاب مترجَم من اللغة الألمانية إلى اللغة الفرنسية، وهو من تقديم J.R.Ladmiral، وصدر عن دار النشر إكونوميكا Economica بباريس سنة 2009.

واخترنا هذا الكتاب بغرض ترجمة جزء منه لأهميته في الدراسات الترجمية، فهو مرجع هام للباحث والمترجم، إذ قمنا بترجمة صفحات (من الصفحة 147 إلى الصفحة 156) من الفصل الثامن الذي يحمل عنوان L'équivalence et l'adéquation: deux notions clef de la théorie et de la pratique de la traduction حيث ركّزت فيه رايس على مفهوم التكافؤ وقدّمت أصل المصطلح والتعاريف الخاصة به في ميادين مختلفة، كما عالجت إشكالية التكافؤ من المنظور الزماني، واستدلّت بأمثلة توضيحية من الإنجليزية والألمانية والإسبانية، قامت المترجمة كاترين بوكت بإثرائها من خلال ترجمتها إلى اللغة الفرنسية. أما عن العناوين الفرعية الثلاثة للنص المترجم، فهي:

1. أصل مفهوم التكافؤ

2. التكافؤ، توضيح المفهوم

3. التكافؤ مفهوم طيّع

ولتمييز هوامش ترجمتنا إلى اللغة العربية عن هوامش الأصل خصّصنا لها عبارة "هامش الترجمة".

1. أصل مفهوم التكافؤ:

تختلف الآراء حول لغة التخصّص التي استمدّ منها علم الترجمة كلمة التكافؤ. وإذا سلّمنا بقول Wolfram Wilss (1977، 159)،[1] فإن هذا المصطلح استعير من لغة المختصين بالرياضيات الذين يتحدّثون عن التكافؤ "حين يمكن إقامة علاقة متناظرة وقابلة للانعكاس بين عناصر تنتمي إلى مجموعتين بحيث يوافق كل عنصر في مجموعة معيّنة عنصراً آخر من المجموعة الأخرى والعكس صحيح".

يمكننا أن نكتفي بهذا التعريف إذا تحدّثنا عن الترجمة الآلية التي تهدف فعلاً إلى تعيين التطابق بين لفظة وأخرى. ومن المحتمل أن سبب رفض مفهوم التكافؤ – غالباً ما يكون رفضاً شديداً جداً– يعود إلى استخدام هذا المصطلح كما هو، من قبل أشخاص بنيّاتٍ حسنة، في الترجمة البشرية التي تتمّ في ظروف مختلفة. وببساطة، يستحيل إقامة التطابق بين لفظة وأخرى كمعيار للتكافؤ في الترجمة البشرية، وتتضّح هذه الاستحالة حين نقدم على ترجمة عكسية، مما يدلّ خصوصاً على أن اللغات البشرية تميل كلها إلى التغير، وأن المعايير اللغوية (العادات

[1] يستشهد *وولفرام ويلس* بـ Brockhaus Ezyklopädie، 1966، ج1، ص637.

يتحدث المختصين بالرياضيات عن التقابل، أو حسب مصطلح يبدو قديما حاليا، عن التطبيق واحد لواحد. تذكرنا هذه الصفة بـ "النزعة الترجمية" التي ندّد بها *جورج مونان* ([1955] 1994، 30) والتي يقول عنها ج. ر. *لادميرال* ([1979] 1994، 125) أنها "تفترض خلسة أنه قد يكون هناك توافق ثنائي بين الوحدات اللغوية لنظامين مختلفين، مما يجعل الترجمة مجرّد تحويل للشفرة. – وهذا ما يعني ببساطة ما يسمى "كلمة بكلمة"، ولكن من الواضح تمامًا أن هذه الحالة محدودة ، وهي استثناء لا قاعدة".

الخاصة باستخدام اللغة في مواقف معيّنة) تختلف ما بين المجموعات اللغوية، ممّا يستوجب إذن أن نجد تعريفا آخر للتكافؤ حين يتعلّق الأمر بالترجمة البشرية.

ولأننا نستكشف مختلف ميادين المعرفة للبحث عن تعاريف أخرى لمفهوم التكافؤ، نرى أنه من الحكمة أن نستلهم من الميدان الإلكتروتقني: "تكون الدائرتان ذواتا التيارين المتعاقبين متكافئتين حين يكون لهما نفس النشاط الكهربائي نحو الوسط الخارجي، مهما كان تردّدهما، وبالرغم من عدم تماثل بِنية الشّبكتين". ولكي لا نخوض أكثر في التمثيل للتكافؤ، يمكننا القول إن هذا التعريف ينطبق أكثر على الترجمة وعلى ما ينتجه النشاط الترجمي. إنّ الفكرة القائلة بأن "البِنية في الشبكتين غير متطابقة" تشير إلى أن اللغة لا تستعمل بالطريقة نفسها في النصين المصدر والهدف بالنظر إلى نوع النص المصدر ونمطه وخصائصه، ويعود سبب هذه الاختلافات إلى اختلاف بنية اللغات والسياق المقامي والثقافي.

لنتفحّص بعض الأمثلة الملموسة:

[3] Having entered his house, he unlocked all doors.

(مثال مأخوذ من ويلس، 1977، 204)

[3a] Nachdem er sein Haus betreten hatte […]
[Après qu'il eut passé la porte de sa maison, […]

[بعدما جاوز باب منزله]

[3b] Nach Betreten seines Hauses […]
[Après franchissement du seuil de sa maison, […]

[بعد عبوره عتبة منزله]

[3c] Er hatte sein Haus betrten und […]
Il était rentré chez lui et […]

[كان قد عاد إلى منزله]

يمكن ترجمة النص المصدر بترجمات عديدة مما يُنتج بالضرورة ترجمات بعيدة عن الأصل

المكتوب باللغة الإنجليزية لأن للغتين بنية مختلفة: وعليه فالأصل والنقل غير متطابقَين، وهذا لا يمنع تكافؤهما حسب سياق الكلام والسياق اللساني.

إذا طلبنا من شخص ناطق بالألمانية أن يترجم الجملة الآتية:

[4] El Mundial '82 tendrà lugar en **nuestro pais.**

[La coupe du monde de football se déroulera **dans notre pays]**

[ستقام كأس العالم لكرة القدم **في بلدنا]**

يتعيّن عليه أن يأخذ بعين الاعتبار اختلاف السياق المقامي في ترجمته، ليكتب على سبيل المثال:

[4a] Die FuBballweltmeisterschaft wird 1982 **in Spanien** ausgetragen.

[En 1982, la coupe du monde de football se déroulera **en Espagne**[1].]

[في سنة 1982، ستقام كأس العالم لكرة القدم **في إسبانيا]**

لنأخذ مثالاً آخر:

[5] Wird der Kompaβ von oben abgelesen, so weicht das Ergebnis um 180° […] ab.

[Lorsque la boussole est lue d'en haut, le résultat est décalé de 180°]

(من دليل الاستعمال)

[عندما تُقرأ البوصلة من الأعلى يتم تغيير النتيجة بـ 180°]

النص الهدف:

[5a] Si vous lisez la boussole d'en haut, le résultat dévie de 180°.

[إذا قرأت البوصلة من الأعلى فإن النتيجة تنحرف بـ 180°]

ينظر إلى النص الهدف من وجهة نظر بنية اللغة الهدف، فالاصطلاح المطبّق في اللغة

[1] أنظر ج.ر. *لادميرال* ([1979] 1994، 178–179)، فهو يؤكد في سياقات معيّنة أن « the river » (نهر) في النص المصدر الإنجليزي يجب أن تترجم بـ « la tamise » (تيمز).

الفرنسية في مثل هذا النوع من النصوص، الخاص بدليل الاستعمال، يؤدي بالمترجم إلى تغيير ضمير الشخص، ويقترح على سبيل المثال:

[5b] Lorsqu'**on lit** la boussole […]

[عندما **نقرأ** البوصلة]

لِنَرَ الآن مقطعاً من رواية:

[6] Jimmy McBride was dressed as **Santa Claus.**
(Jean Webster, [1912] 1967, 63)
[6a] Jimmy McBride war als **weihnachtsmann** verkleidet.

(ترجمة Margret Boveri، [1945] 1979، 75)

[Jimmie McBride s'était déguisé en **père Noël** (…)

(ترجمة Yvette Métral، [1981] 120)

[كان جيمي ماكبرايد متنكرا في زي **بابا نُوِيل]**

أصابت المترجمة حين ترجمت Santa Claus بـ Weihnachtsmann (père Noël) أي بابا نُوِيل ولم تترجمها بـ القديس نيكولا Saint Nicolas (وقع مترجمون آخرون في هذا اللبس)[1]، لأن الحدث كان في 24 ديسمبر وليس في 6 ديسمبر (السياق الاجتماعي الثقافي).

لدائرتي التيار المتناوب النشاط الكهربائي ذاته بالرغم من اختلاف بنية الشبكتين، وفي المقابل فإن النص المصدر وترجمته (أو ترجماته) يحقّقان درجة الفعالية الوظيفية ذاتها في التواصل، وعليه يمكن إقامة علاقة التناظر. وتظلّ صورة الشبكة مفيدة حين ندرس مفهوم التكافؤ عن قرب.

2. التكافؤ، توضيح المفهوم

يمكننا أن نصف التكافؤ إمّا كعلاقة بين الأدلة اللغوية التي تظهر في النصين، وإمّا كعلاقة

[1] لاحظت *ك. رايس* هذا الخطأ عند *مرجريت بوتشي* (Margrit Boesch-Frutiger) ([1945] 1970، 92)، أرى الخطأ نفسه في الترجمة المنشورة في Hachette (1925، 102) التي لا تحمل اسم مترجمها.

بين نصوص بكمالها. بيّنت الأمثلة العديدة التي علّقنا عليها إلى غاية هذا القدر أن وجود علاقات التكافؤ بين عناصر عديدة في النصين المعنيين غير كاف لوجود تكافؤ بينهما بطبيعة الحال. وبالمقابل، التكافؤ بين نصّين بمجملهما لا يقتضي بالضرورة وجود التكافؤ وحدة بوحدة في مقاطع النص أو في عناصر أخرى تشكّل النصّين.

لنفترض أن علاقة التكافؤ فيما يخص الترجمة تتعلّق بالنصوص (لا بالأدلّة اللغوية التي تتكوّن منها) وأن التكافؤ بين النصين (مثال خطاب انتخابي في الولايات المتحدة مقابل ترجمة ألمانية أو ترجمة إسبانية) لا يتحقّق أو لا يمكن أن يتحقّق إلا في الحالات التي يفترض فيها أن يقوم النصان اللذان تجمعهما علاقة ترجمة بوظائف متكافئة خاصة بالجماعات اللغوية المعنية. ويجدر الآن أن نبحث في ماهية التكافؤ بين النصين وفي كيفية إحداثه (أو استنتاجه وتقييمه).

[7] Is life worth living ?

- It depends upon the liver.

[7a] La vie vaut-elle la peine?

- C'est une question de foi (e).[1]

هل تستحق الحياة العيش؟

- إنها مسألة إيمان (كبد)[2]

لا وجود للتكافؤ بالنسبة للكلمات في الترجمة الفرنسية لهذا التلاعب بالألفاظ المنقول من اللغة الإنجليزية، غير أنه يمكننا أن نعتبر النصين متكافئين تماماً لأن الترجمة الفرنسية تؤدي وظيفة التواصل ذاتها في الجماعة الناطقة بالفرنسية (تلاعب بالألفاظ وهو روحي). وللتعليق على هذا

---

[1] المثال مأخوذ من Carlo Buzzetti، *La Parola tradotta*، Brescia، 1973)، وذكر في « Adequacy and equivalence » (*كتارينا رايس*، 1983، ص.304-305) نقلا عن *Traducir la Palabra* (Estella، 1976، 127).

[2] يوجد تلاعب بالألفاظ في الانجليزية بين living وliver، فالأولى بمعنى العيش أما الثانية فتحمل معنيين هما الكبد والشخص الذي يعيش الحياة، أما في الفرنسية فالتلاعب بالألفاظ موجود بين foi بمعنى الإيمان وfoie بمعنى الكبد (هامش الترجمة).

المثال بصفة مجردة أكثر، نقول إننا نجد هنا العناصر ذاتها: مسألة معنى الحياة، والجواب المَصوغ من عنصر خارجي، وتلاعب بالألفاظ مأخوذ من البنية الخاصة باللغة المستعملة (تقريبا بين living وliver) بالإنجليزية، الجناس بين foi وfoie بالفرنسية). لنحاول نقل هذا التلاعب بالألفاظ إلى اللغة الألمانية، إذ لا نرى سوى ثلاث ترجمات ممكنة.

[7b] Ist das Leben lebenswert ?
[La vie vaut-elle d'être vécue?]

[هل الحياة تستحق العيش؟]

-Das hängt von den Leberwerten ab.
[- Cela dépend des tests hépatiques.]

[– يعتمد ذلك على اختبارات الكبد]

- Das kommt auf die leberwerte an.
[La réponse change selon le résultat des tests hépatiques.]

[– يتغير الجواب حسب نتيجة اختبارات الكبد]

-Das ist eine Frage der leberwert.
[- Il faut savoir si les tests hépatiques sont perturbés ou non.]

[– يجب معرفة ما إذا كانت اختبارات الكبد مضطربة أم لا]

نجد العناصر المشتركة ذاتها بالنسبة للإنجليزية والألمانية من جهة والإنجليزية والفرنسية من جهة أخرى، وأعيد إنتاج التلاعب بالألفاظ حسب بنية النص الهدف.[1] نلاحظ في الترجمات الألمانية المقترحة تلاعباً من حيث تشابه الأصوات بين الكلمة المفتاحية الموجودة في السؤال الوجودي والكلمة المستعملة للإيقاع، تماما كما هو الحال في النص المصدر الإنجليزي، كما أن التلاعب بالألفاظ في الألمانية يعدّ أكثر ثراء مما هو عليه في اللغة الإنجليزية لأنه لا يخص عنصر "living/liver" أو "foi/foie" فحسب بل يتعلّق أيضا بعنصر القيمة "wert"

[1] لم يتم تحقيق التلاعب بالألفاظ في الترجمة العربية لعدم وجود المكافئ (هامش الترجمة).

(lebenswert/leberwerte).

يمكننا أن نستخلص من هذا المثال ثلاثة دروس:

1 إن الاختلاف البِنْيَوي للغتين المعنيتين يحدّد ويؤثّر في إمكان إنتاج التكافؤ بين النص المصدر والنص الهدف، وعليه فالحلول الموجودة بالنسبة للغتين المصدر والهدف لا توافق بالضرورة نظيراتها من اللغات الأخرى.

2 إن تقدير التكافؤ هو أيضا مسألة سلم من القيم (نتساءل مثلاً عن الحل الأفضل من بين الحلول الثلاثة المقترحة في 7ب، وعن وجود الحل الأمثل بشكل أساسي أكثر.

3 إن النص الهدف المكافئ لا يمثّل تطابقاً لفظياً، وهو تطابق قد لا يوجد فيه أي بديل يمكن تصوّره. ويمكن أن نجد ترجمات عديدة تكون متكافئة.

3. التكافؤ مفهوم طيّع

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن مفهوم التكافؤ في نظرية الترجمة بعيد كل البعد عن الاستقرار. ويرجع سبب هذا التغير إلى طبيعة الترجمة في حدّ ذاتها، وإلى طريقة النظر إلى النشاط الترجمي التي لم تكن ثابتة عبر التاريخ. وفي الواقع، تتمّ كتابة النص الأصلي أو نشره مرة واحدة، في حين أنه من الممكن أن يترجمه أو يعيد ترجمته مترجم واحد أو عدد من المترجمين. كما يمكن أن يتغيّر تلقّي النص المصدر عبر الزّمن وأن يضيف المترجمون المختلفون قراءات مختلفة للنص أو لبعض مقاطعه (يتغيّر هامش التأويل من نص إلى نص آخر و/أو يتعلّق بنوع النص)، إذ تتغيّر الصفات اللازمة لإنتاج النص الهدف حسب الذّوق المرتبط بالزمن.[1] وعلى سبيل المثال، إذا ما اعتبرت الترجمة الألمانية للكتاب المقدّس التي قام بها لوثر Luther في القرن السادس عشر مكافئة للنص المصدر فإن الناطقين بالألمانية اليوم لا يمنحونها هذه الصّفة في وقتنا الحالي لأنّ استخدام اللغة الألمانية تغيّر كثيرا خلال أربعة قرون. لذلك فإن الجذر

[1] فيما يتعلّق بإشكالية "المعايير في الترجمة"، أنظر Gideon Toury، 1980أ، 71–78، و 1980ب، 180–194.

"Einsamkeit" (الوحدة) أصبح له معنى الوحدة الثنائية "zweisamkeit" في إطار الإصلاح. والجذر "weiber" (النساء) له اليوم دلالات تحقيرية لم يكن يحملها في القرن السادس عشر، ويمكننا مضاعفة الأمثلة.[1]

واعتبرت ترجمات تراجيديات العصور القديمة التي أنجزت في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر من دون شك في ذلك الوقت نصوصاً مكافئة لنماذجها اليونانية أو الرومانية، إذ كان ذوق ذلك الزّمن يتطلب تكييف التراجيديات وشخصياتها حسب السياق الفرنسي للعصر الكلاسيكي (أنظر ج. مونان، 1967، 37–41 [= الطبعة الألمانية]/1965، 46–51 [=الطبعة الإيطالية]). غير أنه في الوقت الحالي، تبدو لنا الترجمات الفرنسية هذه بمثابة تحريفات بدلاً من نصوص مكافئة للأصل. فمن غير المعقول أن يُناقش التكافؤ بين النص المصدر والنص الهدف دون معرفة الزّمن والظروف التي أنجزت فيها الترجمة.

ولكن لا يعدّ مفهوم التكافؤ طيّعا إلا من المنظور الزماني. ووضّح Peter Newmark (1981، 156–157 [النسخة الإنجليزية الأصلية]/[1988] 1994، 270 [النسخة الإيطالية]) أنه قد يكون سابقاً لأوانه أن ننسخ الصيغة الشائعة في الألمانية، "derklub der fünf weisen" عند نقلها إلى الإنجليزية، وأضاف بقوله:

A version such as 'West Germany's committee of top economic experts, known as " the Club of the Five Wise men " ' may lead to a later literal translation.

(يمكن لمثل هذه الترجمة "لجنة صفوة الخبراء الاقتصاديين في ألمانيا الغربية" المعروفة باسم "نادي الرجال الخمسة الحكماء" أن تستبدل بترجمة حرفية لاحقاً).

[1] اللغة الألمانية ليست اللغة الوحيدة التي تطوّرت على مرّ القرون.ففي الفرنسية على سبيل المثال، المعنى الأصلي لـ viande (اللحم) هو الغذاء لأن الكلمة مشتقة من اللاتينية *vivenda*، أي ما هو ضروري للعيش. "في زمن لويس *الرابع* عشر يتم الإعلان عن الطعام بقولهم: اللحم جاهز. وفيما بعد أصبح للكلمة معنى لحم الحيوانات، ثم معنى الثدييات والطيور" (Robert J. Courtine، 1984، 1024).

وبتعبير آخر، في الوقت الذي أبدى فيه نيومارك هذا التفكير، كان من الممكن اعتبار الترجمة الإنجليزية هذه (الشارحة) مكافئة، لأنه وبالتحديد عن طريق الشرح تتحصّل الترجمة على القيمة التواصلية (إمكانية الفهم) التي يحتوي عليها هذا المركّب بالنسبة للقارئ الألماني. فبعدما أدرك الإنجليز هذه المؤسسة الألمانية استغنوا عن الترجمة الشارحة واعتبروا the Club of the " Five Wise men" الدليل اللغوي المكافئ للدال المصدر في الألمانية. خلافا لِوولفرام ويلس (1977، 177)، لا نستعمل عبارة "التكافؤ– الصفر" حين تنقل الوحدة المعجمية مثلاً من الإنجليزية floating voter [حرفيا: ناخب طاف] إلى الألمانية "wechselwähler" [ناخب بالتناوب]. يرى ويلس أنه في هذه الحالة لم يتم إعادة العنصر المصدر في اللغة الهدف، وأنّ هذه الظاهرة يجب أن تسجّل كفجوة لا بد من تقديرها في مستوى اللسان [بمعنى المصطلح عند دو سوسور]، كما يمكن سدّ هذه الفجوة عن طريق التكييف، وفي رأينا يوجد خطأ في فكرته هذه، وهو الخلط بين التكافؤ في اللسانيات التقابلية (الذي يتمحور حول اللغة كنظام من الأدلة) والتكافؤ بمعناه في علم الترجمة (الكلام بمعناه عند دو سوسور). يمكّن التكييف في هذه الحالة، وهو أسلوب من أساليب الترجمة من إنتاج تكافؤ نصي بمجرّد استعمال الكلمة في النص.

استعنّا بالأمثلة السابقة لتقديم هذا المفهوم، وهو مفهوم أساسي ووظيفي وبدونه يستحيل وصف التكافؤ بين نصّين وصفاً كافياً. وبيّنت اللسانيات الحديثة أن الملفوظ الواحد والوحيد يمكن أن تكون له وظائف مختلفة في التواصل (مثلا: "إنّه كلب فظ" يمكن أن يفهم حسب مقام التلفّظ كتحذير أو تأكيد موضوعي أو كعرض للبيع). كما أن بعض العناصر اللغوية يمكنها أن تؤدّي وظائف مختلفة حسب النص الذي تظهر فيه. ففي المقطع الآتي وظِّف تكرار الحرف في بداية الكلمات لبعث الصوت الذي يحدثه الدينامو لكي "يسمعه" القارئ.[1]

[8] Ce petit **fr**ôlement qui **fr**eine et **fr**otte en ronronnant contre la roue. Il y

[1] فيما يخص تكرار الحروف الأولي للكلمات في اللغة العربية كما هو الحال في الفرنسية، يمكننا أن نذكر الشطر الأول من البيت الشعري الذي وصف فيه امرؤ القيس الخيل في معلّقته : "**مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا** ...." وهي كلمات توحي بالحركة والسرعة (هامش الترجمة).

avait si longtemps que l'on avait plus fait de bicyclette entre chien et loup![1]

وفي القول الآتي:

[9] soyez soie[2]

[كن حريرا]

يقوم هذا الأسلوب بجلب الانتباه وتسهيل حفظ الرسالة الإشهارية وإحداث أفكار متداعية تضفي قيمة على المنتوج الذي يعرضه المعلن. وللحصول على ترجمة مكافئة بالنسبة للمثال رقم 8، يتعيّن إيجاد رنين يستحضر صوت الدينامو، أما في المثال رقم 9، فنبحث خصوصا عن صيغة سهلة للحفظ وعن تداعي أفكار ايجابية. يواجه المترجم إذن تحدِّياً لاستغلال الموارد اللغوية في اللغة الهدف. فالشعار الألماني "**M**ilch **m**acht **m**üde **m**änner **m**unter" (الحليب يجعل الرجال المتعبين سعداء) يمكن نقله إلى الإسبانية على النحو الآتي:

[ ] **L**ech-de**l**eite (variante possible : **l**iquido) de **l**istos.
[Le lait, délice (ou bien : liquide) des futés.]

الحليب، متعة (أو: شراب) الدّهاة

لنأخذ مثالاً ثانياً لتوضيح الفكرة:

[ ] […] si yo digo que « **el sol** sale por Oriente », lo que mis palabras […]

---

[1] *فيليب دولرم* Philippe DelermK، 1997، 22. يفكّر الفرنسي بطبيعة الحال في المثال المشهور " pour qui" Jean Racine, Andromatique, acte V, sc.IV) **s**ont **c**es **s**erpents qui **s**ifflent sur vos têtes ?) . وفي النسخة الأصلية لهذا الفصل، تستشهد *ك.رايس* بالأبيات الأولى في "Die Nachtblume" (Joseph von Eichendorff) :

« Nacht ist wie ein stilles Meer
Lust und **L**eid und **L**iebesklagen
Kommen so verworren her
In dem **l**indem we**ll**ensch**l**agen

[2] هو شعار إشهاري لغسول الشعر Schwarzkopf في Psychologie Magazine رقم 231، جوان 2004. مثال آخر للجناس بين gris و grain «le gris qui a un grain »، أنظر الفصل 6. أما الشعار الذي علّقت عليه *ك. رايس* بالألمانية فهو « **M**ilch **m**acht **m**üde **M**änner **m**unter »

propiamente dicen es que un ente **de sexo varonil** y capaz de actos espontàneos […] ejecuta la acción de « salir » (…)

(José Ortega y Gasset, [1937] 1983, t.V, 445-446)

للحصول على ترجمة مكافئة للنص المصدر، يقوم المترجم بترجمة "**el** sol" إلى اللغة الألمانية بـ "**die** sonne" (الشمس). [في اللغة الألمانية، Sonne اسم مؤنث] كما يترجم " un ente de sexo **varonil** " [هو كائن ذكر] بـ "ein wesen **weiblichen** Geschlechts" [هو كائن أنثى]، لأن هذا المقطع في النص الأصلي لـأورتيغا إي جاست يؤدي وظيفة واحدة، وهي التأكيد أن البنية التركيبية في اللغات الهندوأوربية تعكس فكرة أن كل ما يحدث على الأرض هو نتيجة أعمال كائن فاعل وهو من جنس معيّن. فإذا ظهر المقطعان "**el** sol" و" un ente de sexo **varonil**" في نص مقدّس حول نشأة الكون قديماً أو في حكاية أسطورية فإن وظيفتهما هي التعبير عن تصوّر أسطوري، وتصبح هذه الوظيفة معياراً للتكافؤ بين النص المصدر والنص الهدف. ولعلّ "إلاه الشمس" Le dieu soleil يمثّل التكافؤ النصي المناسب لـ "el sol" في هذه الفرضية، غير أن مثل هذا القول "يشرق إلاه الشمس من الشرق" في المؤلَّف المذكور قد يبدو بكل بساطة سخيفاً.

برنار سابلونييير: الدماغ، واللغة، والذكاء، والإيثار[1]

ترجمة: أ.د. محمد أحمد طجو

أستاذ جامعي ومترجم سوري، كلية اللغات والترجمة،

جامعة الملك سعود، الرياض.

يتمتع دماغ الإنسان بقدرات مذهلة.وقد تجسد تطوره، وهو مأثرة حقيقية في تاريخ القردة العليا، من خلال قفزة تطورية كبيرة في حجمه وعدد خلاياه العصبية خلال 2 مليون سنة، رافقها اكتساب القدرات المعرفية المتعددة التي تتفوق على معظم قدرات الثدييات. ونذكر هنا بعض القدرات، التي يوجد بعضها أيضاً لدى الرئيسات: استعمال لغة نحوية، وتبني تفكير رمزي، وتخطيط الأعمال، وامتلاك ذاكرة السيرة الذاتية،[2] وتخمين نيات الآخر وفهمها، وأخيراً الإبداع. وقد أصبحت هذه المهارات المعرفية، طوال تطور القردة العليا، معقدة للغاية. فبعضها، مثل اللغة النحوية، يُميزنا بوضوح من أقربائنا المقربين، أي الشمبانزي. وأخيراً، لقد تعلم الإنسان تدبر أمره على نحوٍ أفضل في جميع الظروف، لكن الانتقاء وظهور الجينات الجديدة ساعداه. وطور دماغه قدرة معرفية، بغية التكيف مع البيئة ومع الآخرين، أثمن بكثير حتى من اللغة والتجريد: لديه عقل اجتماعي وإيثاري. وبالطبع، تتعايش العدوانية مع التعاطف مع الغير لإثراء تنوع سلوكنا الاجتماعي.

---

[1] هذه ترجمة للفصل السابع من كتاب *AND, histoire de nos différences*، الصادر في عام 2020.

[2] (تركز ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية على ذلك النوع من التذكر الطويل الأمد الذي يتضمن استحضار واسترجاع تجارب شخصية وأحداث من الماضي، وبات هذا النوع من الذاكرة يحظى باهتمام باحثي الذاكرة الخاص، وذلك لكونه يشكل مفترق طرق رئيس في الإدراك البشري، تتمازج فيه اعتبارات تتعلق بالعاطفة، والنفس، والأهداف والمعاني الشخصية. لمزيد من التفاصيل، انظر: د. عبد الرحمن بن سليمان النملة "ذاكرة السيرة الشخصية الذاتية، مجلة *فكر الثقافية*، 2017/2/3، الرابط: https://www.fikrmag.com/article_details.php?article_id=449.

كيف أصبح دماغ الرئيسات دماغ إنسان

تتعلق الملاحظة الأولى بهذا التحول بزيادة حجم المخ من 600 سم^3 لدى الإنسان الماهر Homo habilis قبل 2 مليون سنة إلى 1300 سم^3 لدى الإنسان العاقل. بالطبع لا يرتبط حجم الدماغ حصراً بالقدرات المعرفية لنوع ما، لكنه يمثل مؤشراً جيداً عليها. وتتعلق الملاحظة الثانية بعدد العصبونات، الذي يبلغ نحو 86 مليار عصبون في دماغ الإنسان، منها أكثر من 15 ملياراً في القشرة. لكن تعقد التخصص يذهب أبعد من ذلك عندما نقارن دماغ الإنسان بدماغ الشمبانزي. فدماغ الإنسان يتميز بسُمْك القشرة وسطحها، وبتوزع مناطق الدماغ الرئيسة، وأيضاً بعدد الوصلات التي تربط بين العصبونات وكثافتها: المشابك العصبية[1] (انظر برنار سابلونيير، مناطق الدماغ الجديدة، مرجع سابق).[2] ونتوقف هنا، في عداد خصائص العصبونات ووصلاتها المختلفة، عند سمتين أساسيتين أتاحتا تمييز دماغ الإنسان العاقل من دماغ القردة العليا. تتعلق السمة الأولى بزيادة حجم الجمجمة، المرتبط على وجه الخصوص لدى البشر بسطح القشرة وتلافيف الدماغ. وتتعلق الثانية بالمدة الطويلة جداً لِلنُّضْجِ الدماغي: حوالي 25 سنة لدى الإنسان، على حين تبلغ عاماً واحداً لدى الشمبانزي. يسهل هذا الامتداد تكاثر عدد العصبونات الجديدة، ويعزز تأثير البيئة في اكتساب التعلم المتعدد، الذي يعدل اللدونة الدماغية.

لقد ساهم التحول التدريجي لدماغ القردة العليا وفوائده مساهمةً كاملةً في تطوير القدرات المعرفية، وهذا الأمر سهل تكيفاً أفضل مع التعاون الاجتماعي، والخطر المتناقص للافتراس، وزاد من ثَمَّ من فرص البقاء في قيد الحياة والقدرة على التكاثر. ينطوي تحول الدماغ هذا مع ذلك على ضرر واحد: إنه يستهلك الكثير من الطاقة لأنه إذا كان يمثل 2% فقط من وزن الجسم فإنه

---

[1] المشبك العصبي Synapse هو المكان الذي يحتك فيه المحور العصبي لعصبون ما بغصينات عصبون آخر أو بخلية جسدية، ويؤثر فيها. د. قاسم سارة، *معجم أكاديميا الطبي*، بيروت، أكاديميا، ص 846، المترجم).

[2] (انظر: برنار سابلونيير، *مناطق الدماغ الجديدة*، ترجمة محمد أحمد طجو، الرياض، دار جامعة الملك سعود، 2020. المترجم)

يستهلك 20% من الطاقة المنتجة. لذا كان على التطور إيجاد حل وسط: تحسين القدرات المعرفية، وتسهيل إنتاج الطاقة الجسدية في الوقت نفسه. وقد تجلى تكيف الإنسان العاقل في زيادة التمثيل الغذائي، أي التفاعلات الكيميائية الجسدية القادرة على إنتاج الطاقة، وتزويد الدماغ بالمزيد منها. وقد سهل تنوع الموارد الغذائية الحيوانية تكيف الطاقة هذا. ثم تحسن إنتاج الطاقة بفضل تغيرات شكل الجمجمة المختلفة، وتبني ثنائية الحركة Bipédie، وزيادة كتلة العضلات، وكتلة الدهون. فمنذ أكثر من 800 ألف سنة، حَسَّن تطور استعمال النار وطبخ الطعام غذاء أسلاف الإنسان العاقل، وهذا ما أتاح لنوعنا أن يكون له دماغ أكثر ضخامة.

دماغ الإنسان الذي يتطلب طاقة

يحرق الرجل سعرات حرارية في وضعية الراحة أكثر من الشمبانزي: وسطياً 25% أكثر من الشمبانزي، وإنسان الغاب أو الغوريلا. فمنذ نحو مليون سنة، أصبحت الأمعاء أكثر طولاً وأكثر كفاءة في امتصاص العناصر الغذائية، وزادت نسبة الدهون في الجسم لإرضاء شهية الدماغ للطاقة. وفضلا على ذلك، قام الإنسان العاقل بتنويع نظامه الغذائي تدريجيّاً، وسهّل بذلك وارداً أعلى من السعرات الحرارية. وقد قام المختصون بالأمراض الأولية لتقييمه بقياس قدرة القرود ومجموعة من البشر على التخلص من ثنائي أكسيد الكربون انطلاقاً من مصادر غذاء موسومة بنظائر الكربون، والهيدروجين والأكسجين. ترى Leslie Aiello، عالمة الأنثروبولوجيا في نيويورك، أن الإنسان العاقل أصبح قادراً على إنتاج المزيد من الطاقة، وإدارتها على نحو أفضل، وتخزينها، وكذا تزويد دماغه بالكثير منها، ومن ثَم اكتساب قدرات معرفية جديدة، وزيادة فرصه في البقاء حيًّا.

جينات الرأس الكبيرة

سهَّل تسارعٌ مرتبط بانتقاء جيني غير مكتمل الوضوح ظهور الإنسان العاقل، الذي وُهب رأساً كبيراً، وقدرات معرفية استثنائية. يعتقد معظم علماء الوراثة أن الجينات تساهم من 30 إلى 50٪ بقابلية توريث حجم الجمجمة و حتى الدماغ. وهكذا، يملك الآسيويون منذ تنوع الجماعات العرقية الرئيسة، جمجمة يبلغ حجمها 1,415سم^3، ارتفاع صاقورتها هو الأعلى. ويملك الأوربيون جمجمة حجمها 1369سم^3، وهي أكثر استطالة على المستوى الأمامي والقذالي. وأما الأفريقيون فحجم جمجمتهم 1260سم^3، مع قاعدة أضيق. وتظهر بيانات التصوير منذئذ حجماً دماغيًّا

وتغيريةً مألوفة حسب الأفراد تتفاوت بين 1200 و1500سم^3، بقطع النظر عن أصلهم العرقي. وتشارك جينات عدة في حجم الدماغ، لا سيما الجينات المسؤولة عن عدد العصبونات وكثافة الوصلات العصبونية. ويمكننا، من دون الخوض في التفاصيل، التركيز هنا على 3 جينات وُصفت على نطاق واسع في تكاثر الخلايا العصبية: ASPM و MCPH1 و CASC5. أولاً، الجين ASPM قادر على تنشيط انقسام الخلايا، ومن ثَم على تسريع تشكيل العصبونات الجديدة انطلاقاً من سلائفها: تخلق النسيج العصبي. وقد اكتشفت Natalya Kouprina، عالمة البيولوجيا في جامعة Bethesda، الكثير من متغيرات هذا الجين التي ظهرت طوال تطور الرئيسات. وتم اختيار العديد من هذه المتغيرات منذ تباعد القردة العليا قبل 6 ملايين سنة تقريباً حتى العصر الحجري الحديث، قبل 6 آلاف سنة. هناك إذن انتقاء خاص لهذا الجين في نوعنا وفي الأنواع التي سبقتنا. وثمة جين آخر يسمى ميكروسيفالين، و MCPH1 اختصاراً، لأن طفرات نادرة في هذا الجين تؤدي إلى أطفال برأس صغير عند الولادة، وتأخر في النمو المعرفي. يمارس هذا الجين دوره في إطالة دورة انقسام الخلايا، ما يسهل تكوين العصبونات الناضجة من سلائفها. وقد تم انتقاء العديد من متغيرات هذا الجين خلال تطور الإنسان العاقل، وهذا ما سهل زيادة حجم القشرة الدماغية. وقد تم انتقاء أحد أحدث هذه المتغيرات قبل 40 ألف سنة، مرافقاً هجرات الإنسان العاقل إلى أوراسيا. وتم تحديد متغيرات أخرى، وهي نتيجة الانتقاء الجيني التي يرجع تاريخه إلى أقل من 100 ألف سنة، منها الجين CACS5، الذي يُعَبَّر عنه بقوة في الأسابيع الأولى للجنين البشري. يؤثر هذا الجين في فعالية تخلق النسيج العصبي في أثناء الحمل. ولم ينته الكتالوج: لنأخذ مثال الجين DUF1220. وقد تطور بزيادة في عدد النسخ الموجودة في الجينوم البشري: نسختان فقط لدى الفئران، و120 نسخة لدى الشمبانزي، وأكثر من 270 لدى الإنسان. يُنشط هذا الجين انتشار العصبونات، ويرتبط نشاطه بعدد العصبونات وحجم المادة الرمادية. ففي وجود عدد كبير من نسخ هذا الجين، يتكاثر عدد عصبونات دماغ الإنسان بفعالية تبلغ عشرة أضعاف فعالية دماغ الشمبانزي.

جين ثنيات الدماغ

ظهر جين بشري خاص بعد انفصال القرود وأوائل البشر القدماء قبل 6 ملايين سنة. يتم التعبير عن هذا الجين، الذي يسمى ARHGAP11B، لدى الجنين حيث يسرع معدل الانقسام الخلوي للأسلاف العصبونية. يؤدي ذلك إلى زيادة كبيرة في عدد العصبونات، وزيادة في سطح القشرة الدماغية، وهذا ما يؤدي إلى دماغ ذي ثنيات، أي مع انثناءات أو تلافيف، توفيراً للمساحة. للتحقق من ذلك، استعملت Marta Florio، عالمة الوراثة في جامعة درسدن Dresde، فئراناً أدمغتها ملساء، ولا تعبر عن هذا الجين. فعندما أدخلت الجين البشري إلى الحمض النووي للفأر، أصبح الحيوان يصنع دماغاً ذا ثنيات وتلافيف.

نُضْج طويل من أجل لدونة قصوى

نمو الدماغ لدى الإنسان فائق الحد. تخيلوا: 400 غ عند الولادة، و 1100 غ عند 4 سنوات من العمر، و1300غ عند البلوغ في عمر 12 سنة. بالإجمال، إنها مدة نضج طويلة تستمر نحو 25 سنة. يُفَسر الفرق الرئيس مع تطور دماغ الشمبانزي على وجه الخصوص بمدة طويلة جداً لتكوين عصبونات جديدة تبدأ في نهاية الشهر الأول من الحمل وتتباطأ بدءاً من سِنّ 18 شهراً، ولكنها تستمر بمعدل أقل طوال الحياة. وتقوم خاصية أخرى على فترة طويلة من تطور المشابك، أي الوصلات بين العصبونات. يصاحب الطفولة المبكرة بين 2 و7 سنوات تفعيل العديد من جينات عمل وظائف الدماغ. تساعد هذه المدة على تطوير القدرات المعرفية الجديدة الأساسية للذكاء البشري: ملكة التجريد والتفاعل الاجتماعي. فميزة إطالة مدة النضج المعرفي هذه عند البشر هي السماح بتعديل معين: تجعل المرونة هذه الوصلات حساسة لتأثير البيئة وخاصة لتفاعلات الفرد مع من حوله والمحفزات التي تمارسها. ويرتبط هذا النضج الطويل بالتأثير الرئيس لجينات عدة. وهناك جينان جديران بالملاحظة: الجين الأول، MEF2A، الذي يتحكم بتنشيط المشابك الجديدة ونموها. ويتيح زيادة كبيرة في عدد المشابك التي يمكن أن يصل إيقاع تكوينها إلى 700 ألف في الثانية في عمر 3 سنوات وكثافة قصوى للوصلات العصبونية، التي تم الحصول عليها في سن 7 سنوات. وقد لاحظ علماء الوراثة انتقاء العديد من المتغيرات الجديدة

للجين MEF2A الذي ظهر وقت ظهور الإنسان العاقل Sapiens، قبل نحو 300 ألف سنة.

الجين SRGAP2 يطيل نُضْج المشابك

تخيلوا شجيرة ينمو جذعها بسرعة وتنتج فروعاً قليلة. هذا هو تأثير الجين SRGAP2A في دماغ العديد من الثدييات، إذ يشبه الجذع العصبون وتشبه الفروع مشابكه. فقد تحول هذا الجين منذ 3 ملايين سنة، ومرة أخرى منذ 2 مليون سنة، إلى نسختين جديدتين، SRGAP2B و C2، تبطئان نمو العصبونات. ينتج عن ذلك نضج أطول للعصبونات يصاحبه تكون بطيء لعدد كبير جداً من المشابك. وتطور العصبونات قدرات ذكاء جديدة بفضل هذه الكثافة في المشابك، مثل غابة من الأشجار الباسقة التي تنبت أوراقاً غنية.

اللغة، مكسب لا يقدر بثمن

يملك البشر لغة معقدة على نحوٍ لافت للنظر. يَفترض إنتاج اللغة مهارات حركية، ويستعمل مناطق من الدماغ تشارك في التحكم الحركي الدقيق والفعال لعضلات البلعوم والحبال الصوتية. وتحشد اللغة أيضاً ملكتي التجريد والترميز اللتين تشكلان رمزاً دماغياً حقيقياً يستعمل في كل من اللغة الشفهية والكتابية. تظهر المعطيات الأثرية وتحليل العديد من الحفريات أن إنسان نياندرتال الذي سبق الإنسان العاقل قبل 500 ألف سنة كان يملك بالفعل شكلا معقداً من اللغة، مع قدرة على التجريد. تقدم البحوث الأثرية أدلة على استعمال لغة مكتوبة يعود تاريخها إلى العصر الحجري الحديث قبل أكثر من 6 آلاف سنة. وقد استفاد التواصل الصوتي منذ ظهور الإنسان المنتصب من ثنائية الحركة، ومن تطور الرئتين والحَنْجرة، وبوجهٍ خاص من تأثير الجينات التي تطورت من خلال طفرات انتقائية لدى العديد من القردة العليا منذ انفصالها عن الرئيسات. وفقاً Philip Liberman، عالم الأنثروبولوجيا في جامعة العناية الإلهية في الولايات المتحدة، أثر التطور التشريحي الطويل في تكوين الحَنْجرة والبلعوم، الذي شارك فيه شكل الفك واللسان، في إثراء الصوتيات منذ نحو 200 ألف سنة. ويرى هذا الباحث أن إنسان نياندرتال لم يعرف حروف العلة "i" و "u" و "a". وقد اكتشف الجين الأول المسؤول عن اللغة، أي الجين FOXP2 لدى عائلة تعاني من اضطراب في الإلقاء وفي نطق الكلمات. وتطور هذا الجين تطوراً طفيفاً جداً

لدى العديد من الثدييات، وهناك فقط ثلاثة اختلافات في رسالته الجينية بين الحمض النووي للفأر والحمض النووي للإنسان. وقد لاحظ علماء الوراثة أن طفرتين من هذه الطفرات ظهرتا قبل الانفصال Divergence بين إنسان نياندرتال والدينيسوفان قبل 300 ألف سنة. لا يتحكم جين FOXP2 في مهارات الحبال الصوتية الحركية فحسب ولكن أيضاً في عدد الوصلات العصبونية بين نوى قاعدة الدماغ والقشرة. فهذه الآلية تسهل مرونة هذه المناطق، وتقدم بذلك العديد من قدرات التعلم الصوتي واللفظي والنحوي، التي يحفزها التقليد والاستعمال المتكرر للفونيمات. ويقوم الجين FOXP2 بدور مركزي لأنه ينظم بمفرده نشاط أكثر من 100 جين مشارك في اللغة المنطوقة والمكتوبة. ونذكر من هذه الجينات الجين CNTNAP2 الذي يشارك على الأرجح في ملكة الانفتاح على التواصل مع الآخرين، وفي قدرات تعلم اللغة. وقد لوحظت طفرات ضارة لهذا الجين في بعض أشكال التوحد. يشارك الجين FOXP1 في تطوير دارات عصبونية ضرورية لاكتساب الكلام واللغة. وتم تحديد جينات أخرى طفراتها مسؤولة عن عسر القراءة أو اضطرابات اللغة مثل ATP2C2 و CMIP. وتقوم هاتان الطفرتان أيضاً بدور في نضج دارات مختلفة للقشرة مشاركة في الطلاقة اللفظية.

جين أطباء النطق

تم في عام 2001 تحديد طفرات في الجين FOXP2 لدى عائلة إنجليزية وصفتها في عام 1990 جين هيرست Jane Hurst، عالمة الوراثة في لندن. أظهر العديد من أطفال هذه العائلة تأخراً في تطور اللغة، وفي صعوبات واضحة في الكلام. كان هؤلاء الأطفال يعانون من خلل الأداء اللفظي، ويظهرون اضطرابات في النطق الصحيح للكلمات. فهم غير قادرين على نطق جملة تضم أكثر من 5 كلمات، وغالباً ما ينتجون لغة غير مفهومة. وفضلا على ذلك، إنهم بطيؤون في تعرُّف اسم كائن مألوف وفي نطقه، ويخطئون غالباً في تعبيرهم، ويصعب عليهم النحو كثيراً. وبصرف النظر عن هذه الاضطرابات، لديهم سمع طبيعي، وليس لديهم تأخر حركي نفسي. وقد كانت هذه الملاحظة وراء اكتشاف هذا الجين الأساسي في تطوير اللغة.

حقن فريق Wolfgang Enard، عالم الأنثروبولوجيا في لايبزيغ Leipzig، الفئران بمتغيرات الجين البشري FOXP2. ولاحظ تعديل الانبعاثات الصوتية في صرخات صغار الفئران التي

كانت أقل حدة، وعلى وجه الخصوص زيادة في كثافة الوصلات العصبونية في دارة النطق الدماغية لديها. وهكذا، إن أنسنة جين الفأر يسهل تطوير اتصالات عصبونية جديدة، في دماغها.

عدد لا يحصى من جينات الذكاء

الذكاء متعدد. بحسب أعمال الطبيب النفسي الأمريكي Howard Gardner، الذكاء منظم في ثمانية أشكال متميزة: اللغة والقواعد، الحساب والتفكير المنطقي، والتوجه المكاني، والأذن الموسيقية، والمهارة اليدوية، والانفتاح على الآخرين، والقدرة على فهم الذات، والذكاء الطبيعي. من جانبه، يصف Charles Spearmann، "ذكاء عاماً" يمكن قياسه من خلال القدرة على الإجابة على اختبارات الذكاء المختلفة، واستكشاف مختلف المهارات المعرفية الأساسية. ويسمي "العامل G" القدرة التي تتيح التفكير وحل المشاكل المختلفة باستعمال جوانب متعددة لذكائنا. يميز سبيرمان في الواقع مجموعتين فرعيتين للذكاء العام تجتمعان في الحياة اليومية. فهناك من جهة الذكاء السائل الذي يستعمل في حل جميع أنواع المشاكل التي تستعمل المواد اللفظية والرقمية والتجريدية، ومن ناحية أخرى الذكاء المتبلور الذي يمنح مهارات عدة مصدرها التعلم والتربية واكتساب العديد من المعارف الأدبية، والتاريخية أو العلمية. فالاختبارات التي تتيح قياس حاصل الذكاء أو IQ تحلل بدقة هذين المجموعتين الفرعيتين للذكاء العام. وعندما يحصل علماء الوراثة على مقياس كمي للذكاء يستعمل على وجه الخصوص معدل الذكاء باعتباره نتيجة رائز، يلاحظون أن هذه النتيجة قابلة للتوريث بنسبة 40% لدى الأطفال وبنسبة 80% تقريباً لدى البالغين. في الواقع، دماغ الطفل أكثر مرونة، ويعدل قدراته المعرفية مع التقدم في التعلم وتراكم المعارف. تشير العديد من دراسات الارتباط الوراثية إلى مشاركة جينات عدة تتحد آثارها لتساهم في التنظيم المعقد لأداء الشبكات العصبونية المشاركة في الذكاء والقدرات المعرفية المتعددة. حدد التحليل أكثر من ألف متغير جيني تؤثر تركيبته فيما يقرب من 5% من التغيرية العامة لنتائج اختبارات قياس الذكاء. وتقوم هذه الجينات بأدوار مختلفة: تطوير الدماغ، وتكوين

العصبونات وتمايزها، وتنظيم نشاط المشابك العصبونية.

وراثة فائقي الذكاء: نتائج اولية

حصل Andrew Wiles، أستاذ الرياضيات في جامعة Princeton وخبير نظرية الأعداد، أو غاري كاسباروف، الأستاذ في الشطرنج، على نتيجة أعلى من 170 في اختبارات قياس الذكاء. فمثل العديد من فائقي الذكاء، لديهما قدرات ذكاء عام أعلى بكثير من متوسط عدد السكان. حلل فريق Gerome Breen، عالم الوراثة في كلية لندن الملكية King'S College London، جينوم 1200 فرد فائق الذكاء. ولاحظ 3 متغيرات للجين ADAM12 عثر عليها بِقَدْرٍ كبير لدى فائقي الذكاء، ولكنها لا ترتبط بالذكاء العادي. ولا تزال الوظيفة الدقيقة لهذه المتغيرات مجهولة، لكن هذا الجين يتحكم في تخلق النسيج العصبي للعديد من الأعضاء وتمايزها. ولا تزال هذه النتيجة أولية جداً، وتتطلب التحقق منها من خلال دراسات أخرى. ومن ناحية أخرى، يصل تأثير هذه المتغيرات الثلاثة في تغيرية قياسات معدل الذكاء إلى 2% فقط، وهو تأثير لا يزال ضئيلا لاستنتاج وجود جين للعبقرية.

التعاطف مع الغير والتنشئة الاجتماعية

ترتبط استعدادات الإنسان التي تميز سلوكه الإيثاري بقدرتين متطورتين على الخصوص لدى البشر: التعاطف مع الغير ونظرية العقل، التي تعكس قدرتنا على تخمين نيات الآخرين ومشاعرهم. فزيادة حجم الدماغ كانت عاملا حاسماً في ظهور الإنسان العاقل. وقد سهل ظهور حياة اجتماعية حقيقية انتقاء عوامل عدة ساهم في بناء قدرات التفاعل اجتماعي. من بين هذه العوامل، ساهمت الوراثة إلى حد بعيد ساهمت في تطور تعقد السلوك الاجتماعي. فتطور حجم الدماغ وظهور قدرات معرفية متزايدة التعقيد هما الشاهدان الأكثر وضوحاً على هذين الوجهين من السلوك البشري: التعاطف مع الغير والتنشئة الاجتماعية. وقد انطوت أنشطة الإنسان العاقل بوجهٍ خاص على طمأنة الحياة الزوجية، وحماية الأطفال، والهيمنة، والتسلسل الهرمي في المجموعة، التي تفترض العدوانية والإيثار في آن واحد. فتطور السلوكيات المختلفة التي اكتسبت تدريجياً بفضل الحياة الجماعية سهل ظهور التجارب الإيجابية التي ساهمت في زيادة قدرة الإنسان على البقاء في مواجهة تغيرات بيئته. هذا التطور الطويل للسلوك الاجتماعي صاحبه

انتقاء العديد من المتغيرات الوراثية المرتبطة بقدراته الاجتماعية. ففي هذا المجال أيضاً، أثبتت دراسة قابلية التوريث التأثير الخاص للوراثة في البيئة. وهكذا، تبيَّن أن السلوك الاجتماعي الإيجابي قابل للتوريث بنسبة 65%، والتعاطف مع الغير أو العدوان بنسبة 50%، والثقة في الآخرين بنحو 30%. وتتعلق الجينات المشاركة بالهرمونات المسؤولة عن التعاطف مع الغير والسلوك الإيثاري، أي لدى البشر على وجه الخصوص، الأوكسيتوسين وفازوبريسين (انظر برنار سابلونيير، كيمياء المشاعر، مرجع سابق). فوراثة مستقبلات هذين الهرمونيين الاجتماعيين أتاحت ملاحظة الفروق بين الأفراد. وهكذا تم تحديد متغيرات في جين مستقبل الفاسوبريسين AVPR1A، والأوكسيتوسين OXTR، الذي يُعدل تأثيره السلوك الاجتماعي الإيجابي وحدة الاستجابة العاطفية التي تم التعبير عنها خلال لقاء مع الآخرين. وبالمثل، إن متغير الجين SLC6A4 الذي يتحكم في نقل السيروتونين وتنشيط دماغ العواطف مشارك في حدة السلوك الإيجابي والتعاطف مع الغير. وقد دُرست جوانب أخرى للقدرات المعرفية للإيثار. فقد طور دماغ الإنسان، من الموقف العدواني إلى التعاطف مع الغير، استراتيجيات عدة تهدف أولاً لضمان بقائه في سياق انخفاض عدد السكان حيث كانت التفاعلات بين المجموعات البشرية قليلة الشيوع. وينطوي رد فعل الدماغ العاطفي على التحكم بالعواطف، أي على التوازن الدقيق بين نقص التفاعل العاطفي وزيادته. وإن تأثير العديد من الجينات المنظمة للدارات الدماغية وهرمونات الإجهاد في هذا المجال معقد. فالنتائج التي تم الحصول عليها في العديد من الدراسات تسلط الضوء على تأثير السيروتونين– ناقل عصبي يشارك في ضبط النفس و العواطف – والجينات التي تعدل إنتاجه و تدهوره في الدماغ. وهناك ناقل عصبي آخر، أي الدوبامين، يشارك بوضوح في السلوك اجتماعي. وهكذا، تشير دراسة أجريت على 126 عائلة إلى أن بعض المتغيرات الجينية لناقل الدوبامين، أي الجين DAT1، ترتبط بعطف الوالدين تجاه الأطفال. ومن المفارقات أن الحياة الاجتماعية، التي تتطلب قدرات الإيثار، تتطلب أيضاً في أغلب الأحيان سلوك الهيمنة والشهية للسلطة. ففي هذا المجال، تهتم البحوث الأولية بالدور المحتمل للمتغيرات الجينية في الاستثمار، والمنفعة، والثقة، وحتى السلطة السياسية. وتشارك في ذلك جينات عدة، مثل الجين

MAOA الذي يتحكم في تصنيع الدوبامين، والجين DRD2، وهو أحد مستقبلات الدوبامين.

عندما يعدل علم التخلق المتعاقب[1] الإيثار

ينظم الأوكسيتوسين، وهو هرمون الإيثار والتعاطف مع الغير، عمل دماغ العواطف الذي يتضمن لوزة الدماغ، التي تنشط الشعور بالعواطف، و أيضاً التلفيف المغزلي، وهو انثناء في الدماغ ضروري لترجمة تعبير الوجه. وقد برهن فريق Meghan Puglia، عالمة النفس في جامعة فرجينيا، أنه بالنسبة للجين OXTR الذي ينتج مستقبلات الأوكسيتوسين، وهو مثيلة بدرجة عالية – تعديل كيميائي يعدل تأثير الجين – تؤدي إلى حساسية أكبر لإدراك عواطف الوجه، لا سيما الغضب والخوف. وهكذا إننا قادرون تقريباً، وفقاً لدرجة مثيلة الجين في دماغنا، على تَعَرُّف عواطف الآخرين، وهذا أحد الجوانب الهامة في سلوكنا الاجتماعي والإيثاري.

خاتمة

إننا جميعاً مختلفون، فيما وراء القدرات المعرفية، في مواجهة الحياة اليومية. فسمات طبعنا، على سبيل المثال، تشهد على ذلك: البعض حيويون ومندفعون، والبعض الآخر، على العكس من ذلك، انطوائيون ومتحفظون. ما مكانة الوراثة في ميول شخصيتنا هذه؟ تميز سمات أخرى استعدادنا الواضح تقريباً للتفاؤل والمرونة في مواجهة مشاكل الحياة اليومية، ورغبتنا في العيش أيضاً. سوف ندخل في الفصل التالي في تفاصيل هذه الفروق الدقيقة في الجوانب العقلية. لماذا لا نولي اهتماماً لإيقاعاتنا البيولوجية، ونومنا ولهذه الخاصية جدًّا التي تتمثل في أننا أكثر نشاطاً وفعالية صباحاً أو مساء؟

[1] (يهتم "علم التخلُّق المتعاقب"– بدراسة اختلاف السمات الخلوية والفيزيولوجية التي لا تحدث بسبب تغيُّرات في سلسلة الحمض النووي (DNA) ، بل بسبب العوامل الخارجية والبيئيّة التي تنشِّط عمل الجينات أو تثبطه، وتؤثر في كيفية قراءة الخلية لتلك الجينات. انظر: دينا درويش، "غذاء الأجداد يؤثر على صحة الأحفاد"، *Scientific American للعلم*، 11 ديسمبر 2018، https://www.scientificamerican.com/arabic/articles/news/grandfathers-access-to-food-correlated-with-grandsons-mortality-risk/. المترجم).

من أمجاد الحضارة العربية والإسلامية

المسار الفلسفي للفكر العلمي العربي

د. مروان المحاسني
رئيس مجمع اللغة االعربية بدمشق

إن الإنجازات العلمية التي تحققت ضمن الثقافة العربية الإسلامية والتي حملتها اللغة العربية إلى الآفاق العالمية تستدعي منا وقفةً نتساءل فيها عن حقيقة وجود فكر علمي في تلك الثقافة في الحقبة التي تلت عصر التدوين.

وما ذلك إلا لما يُثار من التشكيك حول أصالة الفكر العربي الذي كثيراً ما يتهم بأنه مجرّد فكر ناقلٍ لما سبق، وغير مُهيِّئٍ لبزوغ الفكر العلمي الحقيقي في أوربا، ذلك الفكر الذي انبثق على أيدي علمائها من أمثال روجر بيكون وديكارت وغيرهما، وهو الذي اعتمد المنهج العلمي التجريبي وأنتج العلوم الحديثة.

ليس قصدنا اليوم أن نعود إلى الانغماس في نرجسية ثقافية تفاخر بفتات مما كتبه بعض المستشرقين مادحين الإنجازات العلمية التي قدمها العرب في ميادين المعرفة المختلفة، بل إن الغاية من بحثنا هي بيان أن كشفَ البوادر، التي تشير إلى ظهور فكرٍ علمي حقيقي في تلك المرحلة من تاريخنا الثقافي، قد سبق ما يُعرف بالفكر العلمي في الغرب، ذلك الفكر الذي أسبغ على الإنسانية نِعَم العلوم الحديثة وتقاناتها العصرية مستنداً إلى مجهودات الأوائل.

ولذا فلن نستفيض في تكرار مملٍّ نسرد فيه حقيقة ما أضافه العرب إلى العلوم المختلفة في تلك الحقبة العربية الموسوعية التي شملت معظم المجالات المعرفية خلال القرون الإسلامية الأربعة الأولى.

ولئن كانت نظرتنا إلى تراثنا لا يمكن أن تكون إلا نظرةَ إعجابٍ مطلق واعتزازٍ، بل انبهارٍ، تجاه ذلك التسارع في دفقٍ معرفي تتالى في مشرقنا ثمّ في مَغربنا، وقد كان عندها العالم المحيط

بنا عالماً يغلب عليه سباتٌ عميق لا تقطعه إلا الحروب، فإن ما يدفعنا إلى إلقاء تلك النظرة الفاحصة على تراثنا العلمي هو ما نشعر به من أسفٍ لما أصابنا من تقهقر في العلاقة بين ثقافتنا القومية وبين العلوم الحديثة، وهي علومٌ لا يستطيع أحد أن ينكر أنها بُنيت على مجهودات المسلمين الأوائل، ولا مشاركة لنا اليوم في تطويرها.

فالسؤال المطروح هو هل صحيحٌ أن العرب لم يصلوا إلى الفكر العلمي الصحيح، المتدرج في مسالكَ وأنساقٍ تقرّب الحقيقة إلى عقل الإنسان لتفتح أمامه سُبُل الارتقاء بما لديه من علم، وتوصله إلى إنتاج العلوم المتطورة التي هي مفتاح معرفةٍ أوسع فأوسع عن دقائق الكون؟

وهذا يعني عندئذ أن جُلَّ مهمة العرب كانت نقل العلوم السابقة لعهدهم وربما توضيحَ بعض ألغازها أو إعادةَ تصنيف وترتيب محتوياتها؟

أم أن إنجازاتهم كانت تستند فعلاً إلى فكر علمي حقيقي يمكن كشفه من خلال تحليل التطور العلمي والكشوف التي أورثوها الحضارة الغربية، وأن الأسلوب العلمي الحديث كان بارزاً في أعمالهم ولو أنهم لم يوصلوه إلى تمامه لأسباب لابُدّ من تقصّيها.

فلننظر أولاً في الفكر الذي كان يحمله الفاتحون العرب حين دخولهم الشام وبلاد الرافدين.

هنا لابد من التأكيد أن الجهل المطلق لم يكن الصفة الواسمة للجاهلية كما قد يتبادر للأذهان، فإن عرب الجزيرة الذين كانوا في عُسرٍ من العيش يتتبعون مواقع القَطر ويوغلون في بطون الأودية طلباً لما يقوم بِمُؤَنِهم كانوا كذلك حملةً لثقافة شفهية تسامت في أشعارهم وارتبطت بأمور حياتهم اليومية. هي ثقافة بدوية الأسس أضيف إليها ما استبطنوه من صلتهم بالثقافاتِ المحيطة بهم: ثقافات اليمن وثقافات الممالك العربية المزدهرة على تخوم الجزيرة، في الحيرة حيث الملوك اللخميون المتَصلون ببلاد الفرس، وفي بصرى حيث الملوك الغسانيون المتصلون بالروم.

إن هذا ما جعل الفاتحين العرب لا يشعرون بالغربة الثقافية في بلاد الشام وسواد العراق لدى لقائهم إخوةً لهم ينتمون إلى عشائر أصلها من جزيرة العرب، وكانت قد ترعرعت في مناخ ثقافي تلمع فيه حواضر عريقة في مسايرتها للتطور الحضاري في تلك الحقبة، ولها إشعاع علمي

وثقافي يشمل الشرق كله: جنديسابور في خوزستان حيث المدرسة الشهيرة، وحرّان على مقربة من الفرات، إضافةً إلى الإسكندرية تلك المنارة الثقافية الإغريقية في المشرق. وقد صُبّت هذه المؤثرات جميعها مع الموروث القديم الصادر عن أرض بابل ومصر واليمن في لُبّ الثقافة العربية الإسلامية، فدخلت تاريخنا القومي الثقافي منذ عصر التدوين.

هذا إلى جانب أمر هام هو أن الحجاز بخاصة كان ممرًّا للقوافل الآتية من اليمن، حاملة نفائس الهند إلى جانب العطور والبخور، وهذا ما جعل مكة حاضرةً غنية مفتوحة على مؤثرات ثقافية متعاقبة مع تكرار رحلة الشتاء والصيف، كما أن يثرب كانت على خط تجاري يصل الخليج بتدمر في بلاد الشام، حاملاً نتاج بلاد فارس وما وراءها إلى شواطئ البحر المتوسط.

إنها نظرة شاملة تستبعد رواسب النماذج السلبية التي تحيط البداوة بجوٍّ رومانسي، يجعلها الإطار الأوحد الذي انبثقت منه الثقافة العربية والشخصية العربية.

بل إن هذه الروافد الحضارية قد جعلت اللغة العربية، حاملة الدين الإسلامي تستوعب الكثير من الألفاظ والمفاهيم الثقافية، حين غلبت على اللغات المحلية في بلاد الفتح: السريانية والفارسية... وينطبق الأمر بخاصة على ما يرتبط بالصناعات المحلية كالنسيج وأساليب البناء، وهو استيعابٌ شكَّل انفتاحاً واسعاً على فكرٍ مغاير وعلى علوم وتقانات عريقة، وقد أضيف إلى ما كان لدى العربي من معارف تتعلق بالطبيعة، وإلى فكرته عن العالم، وما لديه من خبرات ومشاهدات عملية.

فقد وجدوا في بلاد الفتح موروثاً ضخماً من التقانات والعلوم التطبيقية، إذ إنهم أخذوا عن الحضارة البابلية إنجازاتها في التعدين ومعرفة المعادن ووجدوا صناعة الزجاج الراقية في بلاد الشام، والزجاجَ الملوّن وتحضيرَ العقاقير في الإرث الفرعوني.

ولاشك بأن هذا النوع من الانفتاح المؤدي إلى استيعاب عدد كبير من المفاهيم التفصيلية كان يتطلب مقابِلات لكل ما يتعلق بتلك المعطيات الجديدة. وهكذا فقد عمد الفاتحون إلى الاصطلاح على المقابِلات المناسبة، إما بربطها ربطاً تقريبيّاً بمفاهيم عربية أصيلة، أو بأخذها من لغاتها بعد

إضفاء مسحةٍ عربية عليها من حيث الجرس والوزن وسهولة النطق. إنها مرحلة بدائية في الترجمة أو التعريب بقيت فيها تلك المصطلحات ضمن ميدان المحسوس، ولم ترتقِ إلى مستوى التجريد والتعميم، بل اعتُمدت وسيلةً لتوضيح الفكر وحسن التعبير والإفهام.

وقد استفاد العرب في تَعَرُّفهم بالعلوم القديمة من صلات القربى بين اللغة العربية واللغة السريانية المحلية، التي كانت العلوم قد نقلت إليها من الإغريقية في القرون الميلادية الأولى. وقد وعى المؤلفون العرب حقيقة الصلة بين العربية والسريانية كما يقول ابن حزم «إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة، لا لغة حمير، واحدة تبدلت بتبدل مسكن أهلها».

ويمكننا إذا أردنا التوسع في مفهوم العلم أن نصنّف هذا الاستيعاب المعرفي الذي اطّلع العرب بوساطته على الجديد في الثقافات المحيطة بهم، بأنه علم بحدِّ ذاته إذا قبلنا قول ابن حزم أيضاً في رسالة مراتب العلوم «وعند التحقيق وصحة النظر فكل ما عُلم فهو علم».[1]

إلا أن هذه النظرة التي لم تخرج عن كونها تعريفية محضة، لم تستقر على عموميتها حين بدأ العرب ينظرون نظرةً تفصيليةً إلى العلوم الواردة إليهم، ليصنفوها تصنيفاً يعتمد الأفلاطونية المحدَثة كالتصنيف الذي طرحه الفارابي في «إحصاء العلوم» والذي يستعرض فيه العلوم بعد التعريف بأغراضها، ويجعلها في خمس مراتب: علوم اللغة، علم المنطق، علم التعاليم (الرياضيات)، الطبيعيات وما وراء الطبيعة (الكون والفساد، النبات والحيوان، النفس).

والحقيقة أن النظرة التصنيفية التي تُبرز بدايات الفكر العربي الإسلامي بوجهٍ خاص هي تلك التي بدأت بتصنيف العلوم علوماً شرعية وغير شرعية، وعلوماً نقلية وعلوماً عقلية. إنها نظرة تُبرز أهمية العقل أساساً وعنصراً معتَمَداً لما يوصل إلى الحقيقة.

ذلك أن حقيقة العلوم الشرعية لا مجال للتشكيك فيها نظراً لمنزلتها، والعلوم النقلية لا يتجاوز الأمر فيها الاهتمام بتطبيقاتها العملية، وأما العلوم العقلية فهي المجال الأوسع الذي لا يمكن

[1] محمد سويسي، **مدخل إلى أصول العلوم عند العرب**، ص 40، جامعة الزيتونة تونس.

الوصول فيه إلى أي نتيجة مؤكَّدة دون الاعتماد على العقل وإعطائه المنصب الأعلى، وقد وصفه الرازي قائلاً: «إن العقل أعظم نعم الله عندنا وأنفع الأشياء لنا وأجداها علينا».[1]

وهذا ما حدا بهم إلى أن يجعلوه للمعرفة ميزاناً، أو كما قال ابن خلدون «العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها».[2]

وهنا لابد لنا من تحديد ما نقصده بالعقل بُغْية تفسير هذا النزوع إلى ضبط العمليات الفكرية، خارج المجالات الإيمانية، بناظم يشكل الركيزة المتينة التي يمكن أن يبنيَ الفكرُ عليها بنياناً متماسكاً في محاولته الوصول إلى الحقيقة.

فالعقل مَلَكَة من جملة ملكات أخرى يستعملها الفكر. إذ إن الفكر يتضمن كذلك ملكتين أخريين تساعدان على إيصاله إلى ما يمارسه من فعلٍ في استيعاب الموجودات، وهما الخيال والذاكرة. فالتخيل كما وصفه الفارابي هو «قياس ما لا نعرف على ما نعرف»،[3] وهو عنصر هام جداً في اختيار المعنى وتحديد اللفظ الذي سيستقر عليه المفهوم، وذلك بفضل مركباته البيئية والأسطورية والمجتمعية. وأما الذاكرة التي تستند إلى مجموع المعارف المتوفرة لكل مفكر فهي الرابط بين المعطيات لتوصله إلى تعقّل الأشياء وإصدار الحكم بحقيقتها دون إهمال أيٍ من عناصرها.

وهاتان الملكتان الفكريتان لا يمكن فصلهما عن العقل في ممارسته لفعله إذ يحتاج العقل إلى التصوّرات التي يقدمها الخيال، وأما الذاكرة فهي التي تربط ماضي العقل بحاضره وتشكل ضامناً لالتزامه بسياق البحث في تناول الحقيقة مستنداً إلى ما يحتوي عليه من معارف سابقة.

ولاشك بأن ما قام به العرب من تبويب للعلوم وتصنيف لها قد أوصلهم إلى واقع جديد، هو النظر إلى العلوم من منطلق بعيد عن المنطلقات الإيمانية، لإخضاع محتويات تلك العلوم إلى

---

[1] أبو بكر الرازي، **الطب الروحاني**، ص 18

[2] محمد سويسي، المصدر السابق، ص 55

[3] قدري حافظ طوقان، **العلوم عند العرب (4)**، ص134، مكتبة مصر 1956.

موازين عقلية تحدد نصيب كل منها من الحقيقة.

وهكذا فقد كانت المرحلة الأولى في الطريق إلى الفكر العلمي، اعتمادهم على الفكر التحليلي حين تعرّضهم لدراسة العلوم الطبيعية، بتأثير ما وصل إليهم في الفكر الإغريقي من منهج عقلي استنباطي. وحين انبروا لتحديد العلاقات القائمة بين العناصر وإلى التدقيق في الأشياء بغرض تصنيفها، وجدوا أنفسهم يواجهون مشكلةً أساسية هي استخلاص المعنى من النصوص.

إن هذه المشكلة هي التي أكدت ما للغة من موقع محوري في العملية الفكرية، إذ إن اللغة هي القالب الذي تُفصَّل المعرفة على أساسه، وهي ترسم الحدود وتخطّ المحيط لكل معرفة بشرية ما دامت اللغة هي الوعاء الأساس لاحتواء الفكر.

وقد تجلت هذه الأهمية في انكباب العرب على الدراسات اللغوية في بدايات الحركة الفكرية التي تلت عصر التدوين، ولو أنها لم تخرج عن الإصرار على إعمال العقل في المنظومة اللغوية. ولذا فأول عمل علمي منظّم مارسه العقل العربي هو جمع اللغة العربية ووضع قواعد لها.

إن اللغة العربية هي لغة سحر وبيان ولكنها في الوقت ذاته المستند الأساسي لنظرة الإنسان العربي إلى الكون وتصوره له. ولذلك فقد دخلت اللغةُ الميدانَ العلمي محدِّداً حاسماً لنشاط الفكر العربي، إذ إنها القالب الذي يتشكل الفكر فيه، ولذلك كان من الطبيعي أن يختصّ الإطار المعرفي الأول في عملية التدوين بتصنيف النحو والفقه والكلام.

فما عمل الخليل بن أحمد في إرجاع الألفاظ العربية إلى عدد معيّن من الحروف نعتبرها أصلية في الكلمة ونعتبر الباقي مزيداً، سوى تطبيق تحليلي لمعطيات الفكر التصنيفي العقلي المستند إلى البيان. ثم سار الأمر في الدراسات اللغوية نحو حلِّ المشكلات المتعلقة بالإعراب، أي توضيح العلامات المحددة للمعنى في علم النحو، وظهرت الأوزان الصرفية التحليلية، ونوقشت علاقة نظام الخطاب بنظام العقل في علم البلاغة. وهذا يعني أن العملية الفكرية بقيت في بادئ الأمر محصورةً في حقل معرفي، تقوم عملية إنتاج المعرفة فيه على استثمار النص،

وتفصيل عناصره، وتقنين التناسق فيما بينها، وهذا ما جعل العلوم البيانية الاستدلالية تهتم بمتابعة العلاقة بين اللفظ والمعنى.

فلقد كان النظام المعرفي المسيطر على الثقافة العربية الإسلامية في عصر الترجمة هو النظام البياني الذي يعتمد مفهوم الأصل إلى جانب مفهوم الفرع، وهو الذي يرتكز إلى الخبر، والإجماع، وسلطة السلف، وعليه نشأت مدرسة الرأي، ومدرسة الحديث في بدايات عصر التدوين. وكان النظام المعرفي البياني يستند إلى ما كان يسمى بالقياس وهو لغةً «تقدير شيء على مثال شيء آخر وتسويته به»، أو كما ورد في لسان العرب «قاس الشيء يقيسه قَيْساً وقياساً واقتاسه وقيَّسه إذا قدّره على مثاله».

وهذا القياس يفتح مجالاً واسعاً أمام المجتهد، إذ إن الحكم بالشبه بين شيئين عن طريق هذا النوع من القياس متروك لانطباعات نفسية تبقى خاضعة للخطأ لأنها تصدر عن «ظنِّ القائس». فالحكم الذي يصدره المجتهد استناداً إلى القياس حكم يقوم على الظن فقط لا على اليقين.

إن هذا الأسلوب هو الذي اعتمده المتكلمون وأطلقوا عليه اسم الاستدلال، حيث يقولون بالاستدلال «بالشاهد على الغائب»، وهو كذلك في نظرهم «الاعتبار» أي العبور من المعلوم إلى المجهول قياساً لا ضوابط له إلا رأي المجتهد.

فنحن إذن في النظام المعرفي البياني أمام مسمَّيات هي القياس والاستدلال والاعتبار، وهي تُطلق على عملية ذهنية واحدة تقوم على تقدير الشيء على مثال شيء آخر لوجود جامع بينهما. ولذلك بقيت العلوم البيانية الاستدلالية محصورةً في ملاحقة العلاقة بين اللفظ والمعنى، وخاصة في مجال النحو، إلى أن انتهى الأمر بها إلى تجاوز حدود النحو ليطرحوا مسائل هي من ميدان المنطق وليست من ميدان اللغة. ذلك أن العلوم البيانية سواء أكانت لغوية أو دينية تجمعها كلها وحدة الموضوع، أي إنها تتركز على النص لأنها علوم الخطاب المبين تهتم بتفسيره. فحين البحث في دقائق العلاقة بين اللفظ والمعنى، أي حين المقاربة بين نظام الخطاب وبين المعاني والمقاصد التي يتضمنها النص، انقلبت دراسة النحو دراسةً منطقيةً حتى أصبحت القواعد النحوية

قواعدَ للفكر.

إن هذا الانجراف نحو المنطق يعني اتباع نظامٍ معرفيٍ جديد بديلاً عن النظام المعرفي البياني. وقد تسبب ذلك في ظهور صدام واضح بين هذين النظامين المعرفيين حين تصدى أبو سعيد السيرافي إمام النحويين في بغداد لمعارضة أبي بشر متّى ممثل المنَاطِقة، في مناظرةٍ شهيرة (عام 326هـ) أراد فيها النحويون استبعاد المنطق اليوناني الذي لا تحتاجه اللغة العربية في رأيهم. وكان النحاة العرب ينظرون إلى منطق أرسطو كمُنافسٍ دخيل إذ يقول السيرافي إن المنطق «وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها»،[1] فكانوا يرون أن منطق أرسطو هو نحوُ اللغة اليونانية، مثلما أن النحوَ العربي هو منطق اللغة العربية.

وهنا لابد من إعادة النظر في الرأي القائل بأن أرسطو كان غائباً في الثقافة العربية قبل أن يُجنّد المأمون الدولةَ وإمكاناتها من أجل استجلاب الكتب من بلاد الروم، ويأمر بترجمتها إلى العربية، وينشئ بيت الحكمة.

فمن المؤكد أن المنصور، الخليفة العباسي الثاني، كان حقاً هو الدافع لانطلاق حركة الترجمة بغرض نقل التراث الفكري المحلي، السابق لقيام دولة بني العباس، إلى العربية، وقد كان «أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغة العجمية إلى العربية، منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السَند هَند وترجمت له كتب أرسطو» من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس، وكتاب الارثماطيقا (نقوماكوس الجرشي)، وسائر الكتب القديمة من اليونانية، والرومية، والفهلوية، والفارسية، والسريانية، وأخرجت إلى الناس، فنظروا فيها، وتعلّقوا إلى علمها.[2]

ثم إن الخليفة المهدي وهو ابن المنصور عَهِد إلى البطريرك النسطوري طيماثاوس الأول (169هـ) بترجمة «مقولات» أرسطو إلى العربية، متابعاً نقل الفكر اليوناني إلى الثقافة العربية، وقد أعيدت ترجمة المقولات فيما بعد من قبل عثمان الدمشقي، ثم يحيى بن عدي المتوفى عام

[1] محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص 91، مركز دراسات الوحدة العربية 1988.

[2] المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، الفقرة 3446، الجامعة اللبنانية 1966.

(364هـ). ولاشك بأن الجو الثقافي في تلك الحقبة هو الذي أملى على الخليفة الرغبةَ في ترجمة «المقولات» تجاوباً مع تعاظم خطر المنتمين إلى الأديان الوطنية الفارسية: المانويين والبرديصانيين والمرقيونيين، وثوراتهم المتتالية معروفة وأهمها ثورة بابك.[1] فقد قامت في تلك المرحلة سجالات عديدة كالمناظرات الإسلامية والمسيحية ومثلها فيما يتعلق بالديانات الأخرى، ولاشك بأن مقارعة فرق المانوية (الزنادقة) كانت بحاجة إلى ما حواه كتاب أرسطو. فالمقولات كتاب يعلّم الجَدَل وهو فن المحاجّة على قواعد منتظمة، وهو يزودنا بقواعد المناقشة المرتبطة بالمساءلة والجواب بين خصمين.[2] وهكذا فقد أدخل المهدي إلى العالم الإسلامي أسلوب النقاش وما يلزمه من مواقف اجتماعية مع كل الحوارات الدينية – السياسية. «ومن ثَمّ فإن النقاش تم له نهائياً أن يكون الميزان الذي لا يُعلى عليه في البحوث الفقهية وأساليبها، ولما أنشأ الفقهاء المدارس الفقهية الأولى في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كانت مهمتها تدريس الجدل المنطقي والفقه».

وخلاصة القول إن ما دخل من فكر أرسطو إلى الثقافة العربية قبل عهد المأمون كان استمراراً لما كان معروفاً طيلة العصر الهليني وذلك عن طريق السريان. فقد ترجم ابن البطريق (ت 200) كتاب «السماء والعالم» وهي ترجمة تم إصلاحها على يد حنين بن إسحق (ت 260) ثم ابنه إسحق (ت 298). كما ترجم ابن المقفع (ت 142) أجزاء من «المقولات»، وقام بتلخيص كتاب «العبارة» وتلخيص الأورغانون وفيه «التحليلات الأولى» ليحيى بن خالد (158). وأما كتاب «الطبيعة» لأرسطو فقد كانت ترجمته في أيام البرامكة، وبالأصح في أيام الرشيد على يد سلام بن الأبرص (170-193هـ)، وبذلك أمكن الاستفادة منه للوصول إلى معرفة صحيحة تصلح لاستعمالها في المحاورات الكلامية.[3]

---

[1] ديمتري غوتاس، **الفكر اليوناني والثقافة العربية**، ص 126، ترجمة نقولا زيادة مركز دراسات الوحدة العربية 2003.

[2] ديمتري غوتاس، نفس المصدر ص 121.

[3] ديمتري غوتاس، نفس المصدر ص 137.

إن هذه الكتب تمثّل المنطق الأرسطي المرتبط بعمليات العقل الثلاث التي تحقق التوجّه نحو الحقيقة:

1. التصور البسيط الذي هو إدراك ذات الشيء وماهيته دون إثبات أو نفي، وهذا ما يهتم به كتاب المقولات الذي يميز بين الموجودات العَرَضية والموجودات الجوهرية كما يقوم على التفريق بين التناقض والتضاد.
2. الحكم والتصديق وهي عملية توحِّد وتجزِّئ إيجاباً وسلباً وهذا ما يجري حين دراسة القضايا المركّبة التي يقوم كتاب «العبارة» على دراستها.
3. المحاكمة والاستدلال وهي العملية المنظمة تنظيماً منطقياً للانتقال بين الأشياء من معلوم إلى مجهول ويختص به كتاب «التحليلات الأولى»، وهو كتاب القياس الذي يدرس الاستدلال من حيث صورته.

وبذلك اكتمل المنطق الصوري الأرسطي الذي استفاد منه المسلمون حين النظر في ما يرد إليهم من الثقافات الأخرى.

وعليه يكون إرث المهدي هو ما أدخله من أسلوب النقاش عن طريق المقولات، وفي الاستدلال عن طريق التحليلات الأولى.

أما ما قام به المأمون فهو يمثّل حركة إحياء وتنوير قوامها الرجوع إلى الأصول بالاعتماد على التحليلات الأولى التي تؤسس قواعد الاستدلال، أي ذلك الفعل العقلي الذي يوصل إلى المعرفة بالاستناد إلى معرفة سابقة.

فلقد طرح المأمون بوساطة حلمه المشهور إيديولوجيةً عقلانية جديدة معتمداً ما كان يتمتع به أرسطو من مكانة عالية نتيجة للترجمة التي سبقت عهد خلافته، ولذلك يمكن القول اليوم بأن حلم المأمون كان نتيجةً اجتماعية للترجمة وليس سبباً لها.[1] ولاشك بأن هذا المنطلق العقلاني هو الذي جعل الخليفة يفرض المحنةَ المرتبطة بخَلْق القرآن قاصداً تأثيل النقاش الفكري الذي يجب

[1] ديمتري غوتاس، نفس المصدر، ص 168.

أن يقود إلى التفاف نخبة من أهل الفكر حول الخليفة، لإرساء القواعد العقلانية في حياة المسلمين الذين بدأت تتجاذبهم تيارات مختلفة أهمها المانوية والباطنية الإسماعيلية. وبذلك تَرَسّخ موقع المنطق بأنه يفوق النحو في ما هو عالمي ومُتَخَطٍّ للّغات.

إن هذا الموقف العَقَديّ الذي اتخذه المأمون قد فتح باب البحث العلمي والمعرفة النظرية، وبذلك تأسس مشروع عربي علمي وفلسفي، اعتمد الترجمة أداةً توصله إلى علوم القدماء تمهيداً للمساهمة في تطويرها.

وهكذا ظهر كتاب الجبر للخوارزمي مثلاً بعد مرور نصف قرن على ترجمة «الأصول» لإقليدس، وتتالت الترجمات في العلوم الرياضية وتطبيقاتها العملية في الهندسة وفي مجالات الموازين والمقاييس وعلم الفلك الرياضي والبصريات. وقد أجمل ابن قتيبة (ت 276) في «أدب الكاتب»[1] مختلف العلوم النظرية والعملية التي تطرّق إليها علماء المسلمين في تلك الحقبة التي كانت فيها حركة الترجمة بلغت الذروة من القوة.

إنه مشروع علمي وفلسفي في آن معاً، وقد كان الكندي (185-257هـ) فيلسوف العرب أولَ من حاول استيعاب المنهج الأرسطي، وهو الذي أدخل العقل الكوني إلى الثقافة الإسلامية. وهذا العقل الكلّي هو القوة الفكرية التي تمكّن الإنسان من الحصول على معارف كلّية، أي عامة مشتركة بين البشر، وهي تفرض نفسها دون أن تدع مجالاً للشك وهي مُطلَقة بمعنى أنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وهي محاكمةٌ عقلية بحتة ترفض كل الوسائط الأخرى كالهرمسية والأفلاطونية الجديدة.

فكانت للكندي رسائل في العلوم الطبيعية تَبنّى فيها بوجهٍ عام آراءَ أرسطو التي تُشكّل نظامه المعرفي المناقض للنظام المعرفي العرفاني، وهي تتضمن رُؤًى علمية عقلانية عن الكون والإنسان في صيغةٍ تحترم المعقول الديني العربي، وتناصره في صراعه مع المانوية والباطنية. وقد استطاع الكندي أن يتغلب بذلك على ما يسمى «العقل المستقيل» الذي بقي مسيطراً على

[1] ديمتري غوتاس، نفس المصدر ص 191.

الثقافة العربية طيلة المئة سنة الأولى من عصر التدوين.

إن الروح الموسوعية التي رعت حركة الترجمة مدة نصف قرن قبل أيام الكندي، كانت تعتمد استعمال البراهين التي لا يُنال منها أي الرياضية والهندسية، إلا أن الكندي اتجه نحو تطوير برنامج بحث هدفه «التقدم بالمعرفة لا مجرّد تكرارها عن طريق الاستظهار الببغائي».[1] ونظام الكندي يتجه من المحسوس إلى المعقول ومن المشخّص إلى المجرّد، وهو يعتمد التجربة الطبيعية والخبرة المجتمعية. إلا أن الكندي لم يطّلع على مجموع تراث أرسطو ونظامه المعرفي الكامل، إذ إن موضوع الاستدلال من حيث مادته لم ينقل إلى العربية إلا على يد أبي بشر متَّى (ت 328هـ) الذي ترجم «التحليلات الثانية» التي تبحث المقالة الأولى منها في مبادئ البرهان. وبذلك تمكن الفارابي (260-339هـ) وهو معاصر لأبي بشر حين اطلع على النظام الأرسطي بكماله، أن يسترجع صناعة المنطق كاملة، فاستحق لقب المعلم الثاني قائلاً «المقصود الأعظم من صناعة المنطق هو الوقوف على البراهين»،[2] وبذلك يكون قد تجاوز الخطاب الكلامي، الجدلي السفسطائي، والخطاب العرفاني، خطاب «العقل المستقيل»، ليصل إلى خطاب «العقل الكوني» الموصل إلى اليقين وهو مبني على نظام معرفي خاص يقوم على البرهان.

ثم تلت «التحليلات الثانية» كتبٌ أخرى لأرسطو: «كتاب الجدل» و«كتاب الأغاليط»، وتُبيّن هذه الكتب بمجموعها أهمية الفروق بين الاستدلال البرهاني القائم على مقدمات كلية يقينية، والاستدلال الجدلي المركب من مقدمات ظنية احتمالية، والاستدلال السفسطائي الذي يعتمد مقدمات كاذبة تحتوي على النتيجة احتواءً ظاهريًّا، وهكذا فإن المنهج الأرسطي يُرسّخ القياس الإثباتي المستند إلى مقدمات ضرورية وهو يصلح أداةً للعلم وهو القادر على إيصال المرء إلى المعرفة الحقيقية.

وعليه تكون كتب أرسطو الأولى التي دخلت الثقافة العربية قبل الفارابي (المقولات والعبارة

---

[1] ديمتري غوتاس، نفس المصدر ص 203.

[2] الفارابي، **كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق**، ص 99، دار الشرق، بيروت 1968.

والقياس) هي السلم المتدرج من أجزاء المنطق، تنتهي إلى الجزء الرابع وهو كتاب «البرهان»، ويرى الفارابي أن العقل البشري لا يحتاج إلى إلهام أو معلّم ينقل إليه المعرفة إذ باستطاعته الوصول إلى الحقيقة عن طريق «براهين مؤلفة من مقوّمات صادقة ضرورية كلية»، وكل هذا يستند إلى مبدأ عام يحكم العمليات الاستدلالية البرهانية هو مبدأ السَبَبيّة في ارتباطه بمبدأ الهوية، وبذلك يكون الفارابي قد أقام النظام المعرفي البرهاني في الثقافة العربية الإسلامية.

وهكذا استقر العقل مرجعاً ومستنداً للوصول إلى الفهم وإلى إقرار الأسس الموصلة إلى الحقيقة. وهذا ما حدا بابن خلدون إلى القول أن المنطق هو «أول العلوم الحكمية وفاتحتها».[1] وكذلك يقول الرازي «صار حقيقاً علينا ألا نجعل العقل، وهو الحاكم، محكوماً عليه، ولا وهو الزمام مزموماً، ولا وهو المتبوع تابعاً، بل نرجع في الأمور إليه ونعتبرها به ونعتقد فيها عليه».[2]

إذن فلقد بدا تأثير أرسطو واضحاً حين أصبحت قواعد منطقه أساساً لكل محاكمة عقلية أي لاستخلاص النتائج من المقدمات وذلك بالاعتماد على القياس الجامع syllogisme من أجل الوصول إلى البرهان، إذ إن القياس ليس خاتمة الأمر كما يقول أرسطو «البرهان قياس ما وليس كل قياس برهاناً» بل إن ما يعنيه أرسطو بالبرهان هو القياس العلمي* أي ذلك الذي يستند إلى البديهيات (كعدم اجتماع النقيضين) و(الكل أكبر من الجزء) ثم الفرضيات thèses وهي القضايا المطروحة للبحث مع المسلَّمات Postulats والتعاريف. والبرهان الأرسطي منهج في التفكير وتصوّر للعالم يختلفان كل الاختلاف عن المنهج والتصور اللذين تم إرساؤهما في الثقافة العربية الإسلامية، فهو منهج يرفض منطلق الاعتماد على السلف أي على المعطيات الخاصة باللغة والدين، وهو عالم من المعرفة يكفي نفسه بنفسه وقد تم تأسيسه بوسائله الخاصة التي هي العقل وما يضعه من أصول.

---

[1] ابن خلدون، **المقدمة**، ص 490.

[2] أبو بكر الرازي، الطب الروحاني، ص 18.

* يقول أرسطو «أعني بالبرهان القياس العلمي، وأعني بالقياس العلمي القياس الذي بامتلاكه نمتلك العلم».

لذلك نرى الفارابي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ينبري في «إحصاء العلوم»[1] لِتأكيد أهمية المنطق قائلاً بأن هدفه تحديد «القوانين التي شأنها أن تقوم العقل وتسدِّد الإنسان نحو طريق الصواب ونحو الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات».

كما أنه خصص في «كتاب الحروف» إحدى المقالات لشرح كيفية نشأة اللغة ومراحل تطور المعارف وانتظامها في علوم وفنون، وما يرافق ذلك من تطور في طرق البحث والاستدلال انطلاقاً من الطرق الخُطَبية والشعرية إلى الطرق الجدلية والسفسطائية وانتهاءً إلى الطريقة البرهانية التي يحصل بها العلم اليقيني.

وكذلك فإن حجّة الإسلام الغزالي الذي هاجم الفلاسفة محاولاً إثبات تهافتهم قد أصر على أهمية المنطق واستفاض في ذلك خاصة في كتابه «معيار العلم» معتبراً أن كل من لا يتخذ المنطق ميزاناً ومعياراً في المسائل الفكرية «فهو فاسد العيار غير مأمون الغوائل والأغوار»[2]

إن ما يهمنا في هذا الصدد هو هذا الانتقال من القياس البياني، أي الاستدلال بالشاهد على الغائب حسب رأي المتكلمين، إلى القياس الجامع، قياس أرسطو، وهو الاستدلال القياسي الذي يشكل المستند الرئيسي للفكر العلمي. إذ يترتب على ذلك نقل مشكلة المنهج من مشكل في آلية الاستدلال إلى مشكل على مستوى المقدمات التي يعتمدها، أي مسألة الصدق والكذب فيها، وحينئذ يمكن الاحتكام فيها إما إلى العقل وإما إلى معطيات التجربة.

على أن هذا لا يعني أن القياس الأرسطي فرض نفسه بديلاً عن القياس البياني دفعة واحدة فهو لم يكن منافسه الوحيد، إذ كانت هناك رواسب قوية للفكر الغنوصي العرفاني gnose herméneutique الموروث عن المرحلة الهلينية في المشرق، ذلك الفكر الذي رفضه أفلوطين تلميذ أرسطو. إن ذلك الفكر العرفاني الذي نشأ في الإسكندرية وعرف باسم الهرمسية في القرنين الثاني والثالث للميلاد هو ما يطلق عليه «العقل المستقيل» لاستناده إلى الغيبيات واعتماده مبدأ

---

[1] الفارابي، **إحصاء العلوم**، تحقيق عثمان أمين، ص 67، القاهرة.

[2] أبو حامد الغزالي، معيار **العلم**، تحقيق سليمان دنيا، ص 59، دار المعارف، القاهرة.

«التجاذب والتنافر» أساساً لنظريته في وحدة الكون، وهو المنطلق لكل ما ذكر عن السحر والتنجيم في الثقافة العربية الإسلامية.

وقد كان هذا الفكر كذلك متصلاً بمذهب المانوية (الثنائية) كما يظهر في رسائل إخوان الصفا. وقد رفض المناطقة على لسان كبيرهم أبي سليمان المنطقي السجستاني (ت 391هـ) طروحات إخوان الصفاء الذين أرادوا أن يضموا الشريعة إلى الفلسفة، حيث قال: إن في «أثناء الشريعة ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه ولا بدَّ من التسليم للداعي إليه والمنبه عليه»،[1] فبقيت الفلسفة بعيدة عن الانغماس في جدال مفتوح مع المعطيات الإيمانية.

وخلاصة القول إن العرب قد انتخبوا أرسطو وفضَّلوه على غيره لأن طريقته أقرب إلى نزعاتهم العلمية من مذهب أفلاطون الخيالي. ولذا نرى ابن سينا يقول عن المنطق إنه «الآلة العاصمة للذهن عن الخطأ فيما نتصوره ونصدق به، والموصلة إلى الاعتقاد بالحق بإعطاء أسبابه ونهج سبيله».[2] فابن سينا يعتقد بسلطان العقل وقد أبدى نزعته إلى الاستقلال في الرأي ورغبته في التحرر العقلي حين **نفى إمكان التحويل في جوهر الفلزّات**، ذلك الذي كان الهدف الأسمى لعلم الكيمياء alchimie، كما أنه نظر في الخوارق التي كانت تعتبر ناتجة عن تأثير مخلوقات أسطورية وسعى في تعليله لها إلى أسباب وأمور تجري على قانون طبيعي.

الفكر العلمي العربي

وهنا لابد من التساؤل، ونحن في مسعانا إلى كشف مدى وجود الفكر العلمي عند العرب، هل نكتفي بإقرار اعتمادهم على العقل وقبولهم لمنطق أرسطو وتسخيرهم نظامه الفكري للوصول إلى الحقيقة، حجةً على وصولهم إلى فكر علمي حقيقي؟

أم أن ما رأيناه من استبعادهم نظاماً معرفياً يستند إلى البيان ويتخذ من النص والإجماع

---

[1] محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، ص 261، (عن التوحيدي).

[2] قدري حافظ طوقان، المصدر السابق، ص 74.

والاجتهاد سلطاتٍ مرجعيةً أساسية، [وكذلك استبعادهم لنظام معرفي آخر يستند إلى الولاية ويعتبر «الكشف» الغنوصي الطريق الوحيد الموصل إلى المعرفة، وأخيراً كيف أنهم انتهوا إلى نظام معرفي يستند إلى البرهان، ويعتمد قوى الإنسان المعرفية الطبيعية (الحس والتجربة والمحاكمة العقلية)]، يجعلنا نقول: إن كل ذلك هو في حقيقته مدارجُ كان لا بدَّ من سلوكها حتى يمكن الارتقاء إلى الفكر العلمي المنتج للمعرفة.

إن تسلسل الأحداث بعد عصر التدوين يظهر نتائجَ متتالية انتهت إلى ما نسميه الفكر العلمي، إذ إن هذا المسلك العقلاني الذي سلكه العرب أعطى تباشيره في مرحلة تبويب العلوم التي تلت مرحلة الترجمة والتدوين.

فقد كان تبويب العلوم المرحلة الأولى في تحكيم الرأي المبني على عملية عقلية حددت الأسس واعتمدتها لتصنيف ما ورد إليها من علوم سابقة، وهو عمل تصنيفي كان متزامناً مع الجهود التي بُذلت في مجالات اللغة من حيث تحليل العناصر المركبة لها، وذلك بتطبيق أسلوب تحليلي عقلي يسمح باستثمار معطيات النصوص.

وهنا لا بدَّ من القول إن التبويب هو غير إنتاج العلم، ذلك أنه حين يكون العلم جاهزاً ومتوفراً يلتزم الباحث بالتقاطه وجمعه والنظر في ارتباط أقسامه، وهذه عملية تصنيفية تستعرض بنظرة فاحصة محتويات هذه الأقسام العلمية لتستخلص ما فيها من معطيات، وهو عمل محصور بمجرد الاستفادة منها دون أن يعني تطويرَها أو الارتقاء بها.

إلا أنّ هذا الاستعراض للعلوم بغية تبويبها بعد تعريبها قد انتهى إلى إغناء اللغة العربية بمصطلحات جديدة ومفهومات جديدة، إذ إن التعريب كان بالفعل عمليةً عقلية بامتياز ومظهراً من مظاهر الخلق والإبداع، بحيث أصبحت اللغة العربية منذ ذلك الزمن لغة حضارية علمية قَولبت الذهنية العربية وأنتجت تراثاً هو الموروث العربي الإسلامي.

إنها نقلة نوعية للفكر، أطلقت للعقل عنانه ووضعته في مواجهة مفتوحة مع الموروث الإغريقي، بعد أن امتلك الأدوات التي أوصلت الإغريق إلى ما وصلوا إليه. وبذلك أصبح

الاطلاع على العلوم الجديدة والسعي إلى استخلاص محتواها منطلقاً يتيح فرصاً جديدة للتساؤل عن حقيقة ما ورد فيها، وهذا ما يتطلب إخضاع محتواها لموازنة جديدة تستند إلى فهم عميق مشفوع بنظرة ناقدة تفتح أبواب التفسير أولاً ثم التصحيح حين يجب التصحيح.

إن الحضارة العربية ظاهرة طبيعية ليس فيها خروج عن منطق التاريخ. ذلك أن الإنسان لا يبني من العدم بل يستفيد مما يصل إليه ليستخرج منه ما يدفعه نحو التعرف بأشياء جديدة. ولاشك بأن اللغة العربية بعد أن استوعبت الفلسفة ودققت في مفرداتها وحددت مفاهيمها بكل عناية كانت هي الحامل الأمثل لتطوير العلوم واختطاط معابر جديدة للارتقاء بها.

فاللغة العربية التي يهيكلها الإعراب وتتميز بمقاييس واضحة تُصَبُّ فيها المفهومات، هي لغة تحليلية تميل إلى الدقة في التفصيل، كما تميل إلى الاقتضاب في تسجيل الحِكَم والأقوال المأثورة والأمثال بجزئياتها. وقد أكدت الدراسات اللسانية الحديثة أن التضمين الذي يزيد في آفاق الكلام قد جعلها لغة جاهزة لتقبل المفهومات الرياضية التي أضحت تشكل اللبنات الأساسية للبنيان العلمي.

ومن الطريف أن نذكر هنا أن ما كان يسمى «بالمعجزة اليونانية» لم يكن نتاجاً اختص به سكان بلاد الإغريق، بل هو نتاجٌ كُتِب باللغة الإغريقية التي أصبحت لغة الثقافة بعد فتوحات الإسكندر، وقد شارك في هذا النتاج مَشرِقيون من مصر (بطليموس وإقليدس وفيلون الإسكندري) ومن آسيا الصغرى (طالس الملاطي) ومن صور (فرفوريوس) وغيرهم، إذ تَشكَّلَ من فكرهم نسيج ثقافي متجانس، كما سَيتكوَّن فيما بعد نسيج ثقافي آخر تفجرت من خلاله الثقافة العربية الإسلامية.

وقد لاحظ ابن خلدون «أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم».[1]

ولا ضير في نظرنا بأن يكون الأمر كذلك فيصدر هذا النتاج عن مجتمع جديد إسلامي الدين عربي اللسان أعجمي الحضارة.

[1] محمد سويسي، المصدر السابق ص 43.

فهم أفراد أدخلوا الأمة في شعاب العلوم وارتقوا بها إلى أوج حضاري، هو العلم العربي الذي كُتبت مادته باللغة العربية من قِبل أصحابها العرب، ومن قِبل أقوام عاشوا في البلاد العربية وجمعوا تراثاً مشتركاً وارتبطوا بمصير واحد. وقد تذوّق جميعهم لغة العرب حتى قال أحدهم (البيروني) «الهجو بالعربية أَحَبُّ إلي من المدح بالفارسية».[1]

لقد كان نقل الفلسفة الإغريقية إلى العالم العربي «المغامرة الفكرية الكبرى التي أصابت مجمل الفضاء المتوسطي، ثم منطقة الغرب في العصور الوسطى لكي تشمل بعدئذ العالم كله مع ظهور الاكتشافات الكبرى للفكر الحديث»[2] إنها كانت طفرةً عقلية أوصلت العرب إلى مرحلةٍ ذهبية أضاءت فيها حضارتهم العالم لعدة أجيال.

فنحن إذن أمام واقع جديد بعد تبويب العلوم هو واقع النظر إلى هذه العلوم من منطلق فكري بعيد عن المنطلقات الإيمانية لإخضاع معطياتها إلى موازين عقلية تحدد نصيب كل منها من الحقيقة.

فقد خرج العرب من الغيبيات وابتعدوا عما قاله المحاسبي في العلم «إنه نور يقذف به الله في أفئدة من اصطفى من عباده لكي يعلموا».[3]

وهكذا غلبت على العلماء المسلمين نظرة واقعية إلى الأمور، وهي نظرة أرسطو التي تعتمد الملاحظة الحسية أساساً لتكوين أي مفهوم؛ فالحس في نظره هو منطلق كل معرفة، بحيث ينتقل الفكر من الخاص إلى العام نتيجة لتجارب الإنسان الحسية: الفهم والتمييز والتذكّر، وينتهي به الأمر إلى اعتماد التصنيف ثم التعميم، فيصل إلى إنتاج المفهوم المخصص لكل حادثة ولكل عنصر. وبذلك ابتعد المسلمون عن أسلوب أفلاطون الذي ينطلق من الفكرة منحدراً إلى الحقائق في محاولته فهم الكون. ولاشك بأن أسلوب أرسطو هو الذي يوصل إلى العلم الذي يستند إلى

---

[1] محمد سويسي، المصدر السابق ص 42.

[2] محمد أركون، **الفكر الإسلامي نقد واجتهاد**، ص 148، ترجمة هاشم صالح، الساقي، بيروت 1998.

[3] محمد سويسي، المصدر السابق ص 39.

التجربة أي إلى المقارنة بين المعطيات. وهكذا فإن التدرج في معرفة الكون لا يكون إلا ببناء فرضيات تنطلق من إدراك المحسوسات، فما البرهان سوى «مجموع العمليات الذهنية التي تقرر صدق قضية ما بوساطة الاستنتاج أي بربطها ربطاً ضرورياً بقضايا أخرى بديهية أو سبقت البرهنة على صحتها».[1]

ويجب التأكيد أن ترجمة النصوص الإغريقية لم تكن عملية نقل حرفي لمحتواها بقدر ما كانت دراسة تربط ذلك المحتوى بمشاهدات المترجمين، وتسمح لهم بالتدقيق في ما ورد فيه، وكثيراً ما كانوا يلجؤون إلى تصحيح أشياء أيقظت حسهم الناقد فعمدوا إلى تقصّيها.

فلا شك بأن الاعتماد على العقل قد كان هو مفتاح الدخول إلى الفكر العلمي، ذلك الفكر الحرُّ الذي لا يخضع لأي سلطة معرفية تكون امتداداً لأي نظام سياسي أو عقدي، إذ إنه الفكر الذي يُجيل في الكون نظرةً فاحصة هدفها استجلاء الحقيقة واستبعاد الوهم.

ليس هنا المقام المناسب للدخول في تفصيل ما طرأ على الثقافة العربية من سجالات فكرية في محاولات متتالية لجعل المنطق، ومن ورائه الفلسفة بمجموع مجالاتها، محوراً مركزياً ينتهي إلى إقامة نظام معرفي واضح المعالم والأسس، ويجعل الثقافة العربية الإسلامية ثقافة عالمية. بل إن ما حاولنا تأكيده في هذا السياق هو أهمية دخول المنطق الأرسطي إلى حَيِّز الثقافة العربية ليتولى موقعَ الميزان والقسطاس في أي مسعى للوصول إلى الحقيقة، وبذلك يمكننا توضيح الأسس التي بني عليها الفكر العلمي في الثقافة العربية.

فإن العرب حين التزموا الاعتماد على العقل وخرجوا من تسلسل الخَبَر والتواتر والظَّنّ والتخمين أساساً لفهم العالم، أي خرجوا من القياس البياني الذي يحكمه مبدأ التجويز والمشابهة ولا يعتمد مبدأ السببية، بل يكتفي بمبدأ عقلي وحيد هو مبدأ عدم التناقض، فإنهم وجدوا في النظام الأرسطي الأدوات اللازمة للوصول إلى حقيقة الأشياء، فتدرجوا من المنطق الصوري إلى المنطق الإثباتي المستند إلى البرهان بعد أن اكتملت لديهم ترجمة النظام الأرسطي.

---

[1] محمد عابد الجابري، **بنية العقل العربي**، ص 383.

ولذا أخضع العرب علومَ الإغريق، حين نقلوها إلى لغتهم بعد استخلاص محتواها، إلى محاكمة عقلية تبدأ بقراءتها قراءة تقود إلى الفهم العميق ولا تكتفي بتلاوة سطحية، وقد كان فهمهم لتلك النصوص خاضعاً لما يضعونه من التصحيح لبعض ما يكون غامضاً في النص، ثم يعودون إلى تحليل الأقوال وموازنتها مستندين إلى تجربتهم الشخصية في مجال العلم المدروس. وهكذا نرى كيف تجاوز ابن سينا في الطب ما وصل إليه من الإغريق، حين نجده يقدم معارف القدماء ومعارف المعاصرين له في الطب، منسقة واضحة. وهو الذي قدم في كتابه «القانون» دراسة وافية عن جهاز الهضم، والتفريق بين الأعراض المرتبطة بما يطرأ عليه من حالات مرضية، واستطاع تمييز نوعي الشلل (المركزي والمحيطي) وغير ذلك من الكشوف المرتبطة بتجربته الشخصية.

ولن نخوض في أعمال الرازي أو ابن زهر أو الزهراوي وقد بقيت كتبهم عُمُداً بنيت عليها العلوم في أوربا حتى القرن السادس عشر بل نكتفي بذكر بعض الأمثلة.

فإن أثر آراء ابن سينا في علوم الأرض عن تكوّن الصخور وعن الزلازل ما يزال يُذكر «نحن مدينون لابن سينا برسالته في تكوين الجبال والأحجار والمعادن»[1] وكذلك فإن دراسات أبي الريحان البيروني في مجالات علوم الأرض مازالت مجال إعجاب العاملين فيها: فقد قاس البيروني محيط الأرض واستخرج حساب نصف قطر الأرض بمعادلة تسمى الآن بمعادلة البيروني. وقد اشتغل أيضاً في علم الطبقات والحفريات، ودرس تكوين القشرة الأرضية وما طرأ على اليابسة والماء من تطورات خلال الأزمنة والأحقاب الجيولوجية المختلفة.

ليس الغرض هنا إعادة ذكر الأسماء الكبرى التي توّجت الحركةَ العلمية العربية، لنؤكد تمكّن العرب من فكر علمي حقيقي، يعتمد الملاحظة ويستند إلى التجربة وإلى مبادئ علمية قد تأكدت صحتها فيما بعد، مثل مبادئ التكاثف والتبخّر مثلاً في تعليل تكوين الثلج والصقيع والبَرَد. فإن هذا المستوى من الفكر العلمي هو الذي يسمح للبيروني أن يؤكد وجود الجاذبية الأرضية أي إن

[1] حكمت نجيب عبد الرحمن، **دراسات في تاريخ العلوم عند العرب**، ص 298، جامعة الموصل 1977.

الأرض تجذب ما فوقها نحو مركزها حيث قال في كتابه «القانون المسعودي»: «والناس على الأرض منتصبو القامات على استقامة أقطار الكرة، وعليها أيضاً نزول الأثقال إلى السفل».[1] وقد أثبت البيروني الأوزان النوعية لكثير من المواد بطريقة تجريبية بسيطة أوصلته إلى أرقام قريبة جداً من الثقل النوعي الذي حددته الطرق الحديثة وذلك بالنسبة لمعظم المعادن والأحجار الكريمة.

ولاشك في أن ما وصل إليه الحسن بن الهيثم في علم البصريات في كتاب «المناظر» يمثل قمة حقيقية فريدة في ما أنتجته الثقافة العربية الإسلامية بالاستناد إلى الفكر العلمي والمنهج التجريبي.

إنه منهج علمي بُني على الاستقراء والقياس وكذلك على التمثيل والاستنباط، وقد نبغ علماء العرب في الوصول إلى هذا المنهج العلمي قبل الغرب بعدة قرون لعدة أسباب ترجع إلى اتساع آفاقهم، إذ إنهم بلغوا شأواً عالياً في ممارستهم لعلوم عديدة في آن معاً.

فقد كانوا يجمعون الرياضيات إلى الفلسفة. ولما كانت الرياضيات هي منطلق التنظيم والتحليل ومستند برهنة الأبحاث، فإن الفلسفة هي التي تساعد على الإحاطة بالأمور والتعمق في التصنيف. ولقد قال الكندي إن الفلسفة نفسها لا تُفهم إلا بالرياضيات إذ إن الرياضيات تكون بالبراهين لا بالإقناع الشخصي ولا بالظن.

وقد كان للعلماء العرب موقف مستقل تنطلق فيه الفكرة من المحسوس، أي من المشاهدات، بحيث ترتقي المدركات، بعد تحديد ما هو خاص منها وما هو عام حتى تصبح مجموعات جاهزة للتصنيف، وعندها تتجلى كمفاهيم متميزة واضحة تنتظم في فرضيات لم تكن المحسوسات، بمجرد وجودها، قادرةً على إثارتها. فهم ابتعدوا عن الاسمائية nominalisme حيث التعريف بالاسم ليس سوى شرح لفظي، على حين التعريف بالحقيقة هو تأكيد لوجود الشيء وتحديد لماهيته. وقد اعتمدوا الحَدْس كإدراك مباشر أساساً لاستدلال استنباطي، لينتقلوا بعد ذلك إلى

[1] حكمت نجيب عبد الرحمن، المصدر السابق، ص 307.

الاستدلال الاستقرائي الذي يعتمد فحص أكبر عدد ممكن من الحالات حتى يمكن الخلوص إلى نتيجة عامة مبنية على القياس اليقيني.

ولنا أن نتساءل أمام هذا الدفع الثرّ في مجالات العلوم عند العرب واعتماد البحوث على العقل والمنطق والبرهان، هل نجد لديهم دستوراً يسير عليه العلم للوصول إلى حقيقة الشيء؟

هذا ما نجده في الرسالة السابعة من رسائل إخوان الصفا[1] وهي التي تبحث في الصنائع العلمية، وقوام هذا الدستور أحكام تسعة:

السؤال الأول	هل هو	وجود الشيء أو عدمه
السؤال الثاني	ما هو	حقيقة الشيء
السؤال الثالث	كم هو	مقداره
السؤال الرابع	كيف هو	صفة الشيء
السؤال الخامس	أي شيء هو	واحد من جملة أو بعض من كل
السؤال السادس	أين هو	مكان الشيء أو رتبته
السؤال السابع	متى هو	زمان كون الشيء
السؤال الثامن	لِمَ هو	يبحث عن الشيء المعلول
السؤال التاسع	من هو	يبحث في التعريف للشيء

إن هذا الدستور يحصر اتجاهات العقل ويشكل لها إطاراً يكفي للإحاطة بالأشياء في مسار يوصل إلى معرفة حقيقتها وفهم موقعها.

إلا أن هذا الدستور لا يشكل سوى مرحلة أولى من مراحل الفكر العلمي، الذي عليه أن يعتمد التجربة ويسلك مساراً استقرائياً وقياسياً.

[1] قدري حافظ طوقان، المصدر السابق، ص 84.

وهذا ما جعل العرب يقومون بحركة تطوير للفكر القديم المنقول إذ أضاف ابن سينا الكثير إلى أعمال جالينوس معتمداً تجربته الشخصية، وألف محمد بن يوسف الخوارزمي «كتاب الحساب»، ولم تُعرف الهندسة اليونانية إلا عن طريق العرب (لم يعثر على النسخة اللاتينية لكتاب إقليدس قبل عام 1583). وهُمْ مؤسسو علم المثلثات إذ جعلوا منه علماً منظماً منفصلاً عن علم الفلك مستقلاً عن بقية العلوم الرياضية الأخرى، كما استعملوا الرموز في الجبر.

ومن أهم ما تميز به العرب الفكر التجريبي، مخالفين بذلك اليونان الذين تميز فكرهم بالصورية والبحث عن المبادئ والأصول.

وقد يكون خير من تجلت في مؤلفاته الروح العلمية كما نفهمها اليوم هو الحسن بن الهيثم في كتابه «المناظر» حيث يقول: «نبتدئ في البحث باستقراء الموجودات وتَصفُّح أحوال المُبصَرات وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار وما هو مطّرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس.

ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى».[1]

ومن المعروف أن ابن الهيثم قد استعمل أجهزة مبتكرة كان يصنعها وتدل تجاربه وحساباته على أنه استطاع أن يجمع بين مقدرته الرياضية وكفايته العلمية.

وقد أثبت ابن الهيثم رجاحته العلمية فيما تصدى له من أبحاث أصيلة قلبت مفاهيم الأولين في كل ما يتعلق بالضوء والإبصار، وأغلاط البصر وانعكاس الضوء وانكساره، كما وصف العين بدقة كآلة بصرية، وقد اتّبع في كل ذلك منهجاً علمياً بناه على (الاستقراء «باستخراج القاعدة العامة من مفردات الوقائع»، وعلى القياس أي «الموازنة بين الوقائع المختلفة والمقارنة بين النتائج» وأحياناً على التمثيل أو الاستنباط أي «تفريع الأحوال المفردة من القاعدة العامة»).[2]

---

[1] قدري حافظ طوقان، المصدر السابق، ص 86.

[2] عمر فروخ، **تاريخ العلوم عند العرب**، ص 368، دار العلم للملايين، بيروت، 1970.

ولابد من التأكيد هنا أن الشك كان من المنطلقات المركزية في كل ما أنتجه العقل العربي في ميدان العلوم، وهذا واضح بوجهٍ خاص في آراء المعتزلة، حيث يقول النظّام وهو من كبار المعتزلة «الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقادٍ غيره حتى يكون بينهما حالُ شكّ».[1]

ويعتبر جابر بن حيان خير مثال للفكر التجريبي إذ إن التجربة تصدرت منهجه العلمي. فقد أورد في «كتاب الخواص الكبير» «والله قد عملته بيدي وبعقلي من قبل وبحثت عنه حتى صحَّ وامتحنته فما كذب»،[2] والعلم عند جابر يسبق العمل «إن كل صناعة لابد لها من سَبْق العلم في طلبها للعمل، لأنه إنما هو إبراز ما في العلم من قوة الصانع إلى المادة المصنوعة لا غير».[3] فهو يعتمد «الدُّرْبةَ» أي التجارب العلمية شرطاً أساسياً للعالِم الحق. وعليه فإن منهاجه العلمي يعتمد العمل باليد وإعمال العقل والبحث عن الفرض ثم امتحانه بالتجربة.

وهو يعتمد الاستقراء منهجاً حيث يقول في كتاب التصريف «إن كل ما لم نشاهده وله مثيل وشبيه فهو موجود، وإن كل ما لم نشاهده وليس له مثيل وشبيه فليس بموجود»،[4] لأن الاستقراء على خلاف الاستنباط ينصب على أشياء الوجود الخارجي.

وقد رسم كذلك جابر بن حيان حدود المنهج الرياضي في تركيز واضح «فإنه ينبغي أن تعلم أولاً موضع الأوائل والثواني في العقل، أولاً كيف هي حتى لا تشكّ في شيء منها ولا تطالب في الأوائل بدليل، وتستوفي الثاني منها بدلالته وتطالب به في أوضاع جميع الأشياء»،[5]، والأوائل بطبيعة كونها أدلّة في العقل لا تكون مُستَنبطةً من سواها، ولا يُطلب لها دليل سوى حدسها حدساً صادقاً، وأما الثواني فهي التي تأتي بعد ذلك عن طريق الاستنباط من الأوائل وتحتاج إلى دليل.

---

[1] قدري حافظ طوقان، المصدر السابق، ص 82.

[2] جابر بن حيان، **كتاب الخواص الكبير مختارات كراوس**، ص 322، في دراسات في تاريخ العلوم ص 262.

[3] جابر بن حيان، **كتاب الخواص الكبير، في دراسات في تاريخ العلوم**، ص 263.

[4] جابر بن حيان، **كتاب التصريف، في دراسات في تاريخ العلوم**، ص 264.

[5] زكي نجيب محمود، جابر بن حيان، ص 76-77.

وهو يقول كذلك إن صناعة الكيمياء «إنما تكون لذي الرأي الصحيح والقياس الواجب والدرس الدائم» «والبرهان أصدق شاهد وأعدل حاكم»، وكذلك «وملاك كمال هذه الصنعة العمل والتجربة فمن لم يعمل ولم يجرّب لم يظفر بشيء أبداً».[1]

وقد سار الجاحظ في «كتاب الحيوان» على مسار علمي لا يسلِّم بشيء إلا إذا استساغه العقل، وهو يلجأ إلى التجربة ليتحقق صحةَ نظرية أو رأي من الآراء، فهو يجرب في الحيوان والنبات ويشكّ ويستمر في الشك: «فلا تذهبْ إلى ما تريك العين واذهبْ إلى ما يريك العقل. وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقل، والعقل هو الحجة».

ولذا نراه يهاجم رجال الحديث لأنهم لا يشغلون عقولهم «ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهاناتها لَخَفَّتِ المؤونة، ولكن أكثر الروايات مجرّدة وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلّة ودون الإخبار عن البرهان».[2]

وهكذا فقد تصدرت التجربة المنهج العلمي عند علماء العرب فأخرجتهم من نطاق التخمين والاستدلال الصوري إلى موقف علمي مبني على الدقة في العمل والاعتماد على التجارب والاحتياط في الاستنتاج. وبذلك انتقلت الكيمياء على يد جابر بن حيان من طور صنعة الذهب الخرافية إلى طور العلم التجريبي في المختبرات «إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة وإن المعرفة لا تحصل إلا بها»،[3] وأسس الحسن بن الهيثم العلوم المتعلقة بالضوء والإبصار، وأثمرت علوم العرب بحوثاً أصيلة في الطب والطبيعة والفلك وعلوم الأرض.

وإن الاطلاع على كتب جابر وكتب ابن الهيثم وغيرهما من علماء العرب يوضح لنا المراحل الفكرية التي كانت تتتالى في بحوثهم، بدءاً بطرح المشكلة وصوغها بدقة ثم تصميم الجهاز العلمي اللازم لإجراء التجربة. وقد كانوا يستعملون أجهزة اختبار استحدثوها بأنفسهم وطوروا

[1] محمد سويسي، المصدر السابق، ص 119-120.

[2] قدري حافظ طوقان، المصدر السابق، ص 83.

[3] قدري حافظ طوقان، المصدر السابق، ص 83.

أخرى ورثوها عن سابقيهم وحددوا الموازين المختلفة التي يمكن اعتمادها في تجاربهم. وقد ساعدتهم معرفة العرب بالزجاج في مصر وبلاد الشام ليصنعوا المعدات المختبرية الزجاجية كالدورق والإنبيق والقَرْع والزِقّ، وإن جميع ما استعمله الحسن بن الهيثم في المرايا ودراسات علم المناظر قد جعل منه أساساً لما عرفته أوربا في ذلك المضمار بعد عدة قرون. وما زالت أدوات الجراحة التي استعملها الزهراوي تزين بعض المتاحف الكبرى مؤكدةً أسبقية الفكر العلمي العربي.

خـــاتـمـة

إن إلقاء نظرة استرجاعية إلى هذا التطور الفكري العلمي، تظهر لنا كيف أنه انبثق بعد الفتح العربي لبلاد الشام وبلاد الرافدين ثم استمر في عطائه السخي؛ وهو نتاج معرفي يشمل معظم المجالات الفكرية، وقد وصل إلى ذروته في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حتى جعل للحضارة العربية الإسلامية موقعاً فريداً بين الحضارات السابقة واللاحقة، نظراً لما تميزت به من تعمق في جميع ما تطرقت إليه من أبواب في الفكر وفي العلوم.

ولاشك بأن عصر التدوين هو الذي تشكلت فيه البِنية الذهنية الثاوية في الثقافة العربية التي نعيشها اليوم، والتي انتقل العرب بفضلها من بداوةٍ وركود حضاري في مدن الجزيرة إلى إشعاع فكري عالمي حاملين قيماً أخلاقية واجتماعية سامية، وناشرين الأسس العقلية التي أدخلتهم في رحاب الفكر العلمي الذي بنيت عليه العلوم الحديثة. ثم انتقل الشغف بالعلوم بعد القرن الرابع الهجري إلى مصر الفاطمية ثم إلى الأندلس التي كان منها إشعاع العلوم العربية على الحضارة الأوربية.

إن الفكر العلمي فكر دقيق مترابط لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال وعاء وجداني يهيئ القواعد الفكرية لاحتواء معطياته. وهذا ما جعل العرب يَنبَرون في عصر التدوين لإطلاق الدراسات اللغوية التي جعلت اللغة العربية قادرةً على استيعاب التعابير الجديدة والمفاهيم الفلسفية والعلمية. إنها دراسات عقلية أوصلتهم إلى تحديد قواعد اللغة وضبط طرق اشتقاقاتها واختراع العلامات التي تحول دون الوقوع في اللبس، بحيث انتهوا إلى **جعل اللغة العربية لغة علمية**

عالمية استمر تأثيرها في العلوم حتى القرن السادس عشر الميلادي.

وبذلك فرض عصر التدوين نفسه تاريخياً أنه الإطار المرجعي الذي تستند إليه دراسات الموروث العربي الإسلامي في مجالاته المختلفة.

لقد استخلصنا من مراجعة تطور العلوم عند العرب ما كان لدخول النظام المنطقي الأرسطي من الأثر الحاسم في توجيه الفكر العربي نحو الحقائق التي يمكن إثباتها بالبرهان.

وقد أشرنا كذلك إلى ما كان من تنافس بين النظام البرهاني والنظامين الفكريين الآخرين في توالي عصر التدوين، وهما النظام البياني والنظام الغنوصي الهرمسي اللذان كانا يحاولان الاستئثار بالفكر العربي المتطلع إلى تفسير الكون.

ولابد من القول بأن النظام الأرسطي لم يستطع إقصاء هذين النظامين المنافسين إقصاء تاماً عن الساحة الفكرية العربية. فقد بقي للبيان المستند إلى أقوال السلف وجودٌ أكيد في النتاج الثقافي العربي كما يمكن كشف وجود تأثيرات قوية للفكر الهرمسي لدى كثير من العلماء المسلمين.

فقد توضح ما يشير إلى هذا التأثير في رسائل عالم كبير كجابر بن حيان حين يقول «إن في الأشياء كلها وجوداً للأشياء كلها»، كما أنه أطلق مبدأ «المماثَلة والمقابَلة» على المبدأ الهرمسي المعروف بـ «التجاذب والتنافر»،[1] واعتبره من الأسس الفكرية ولو أنه لا يرتبط بالمنطق.

والأمر ينسحب أيضاً على أبي بكر بن زكريا الرازي أكبر طبيب في الإسلام حيث يُظهر في كثير من كتبه استحسانه لمذهب الثنوية، والمانوية الثنوية كما هو معلوم تعتمد الغنوص gnosis، وهو الوحي بالشيء، أساساً معرفياً: إذ إن المعلّم يتلقى الحقيقة من أعلى وليس بالفكرة والاجتهاد.

ونجد كذلك أن الفيلسوف الكبير ابن سينا، الذي كان يعتمد العقل ويؤكد حرية الفكر، نجده في كتابه «الإشارات والتنبيهات»[2] يعطي مكانةً خاصة للغيبيات، كما أنه يتكلم عن القوة القُدسية في كتابه «النجاة»، وقد صنّف العارفين على درجات وقدّم شروحاً للكرامات ولآيات العارفين.

---

[1] بول كراوس، **مختار رسائل جابر**، ص 8، مكتبة الخانجي، القاهرة 1953.

[2] ابن سينا، **الإشارات والتنبيهات**، ج4، ص 115، دار المعارف، القاهرة 1958.

ذلك أن المدرسة الفكرية التي أسسها ابن سينا هي المدرسة الفلسفية المشرقية التي عاد فيها إلى التزام الهِرمسية بتصوّفها وعلومها السحريّة. وهذا ما يجعلنا نفهم بأن هجوم الغزالي على فلسفة ابن سينا يقصد تأكيد ما فيها من متناقضات بحيث أدى ذلك إلى تهافتها أي تحطمها تحطماً ذاتياً،[1] إذ إنه لم يلتزم قواعد المنطق في عرض مسائلها بل قَبِلَ «عجز العقل عن قبول الحقيقة» حين خَلَط مسائل العلم الطبيعي بمسائل العلم الإلهي في «الإشارات والتنبيهات».

إن أمثال هذه الهنات لا يمكن أن يكون موقعها في ذلك الدفق المعرفي الجبّار أكثر من شوائب بسيطة، لا تعكّر صفاء ذلك النهر الفياض الذي حمل العلم العربي إلى آفاق المعمورة، وأيقظ فيها حركةً علمية مازالت ترتقي بالإنسان إلى أعلى مستويات يمكن الوصول إليها في محاولة فهم أسرار الكون.

فلقد قامت على أيدي العرب حركةُ تطويرٍ شاملة للفكر القديم المنقول، حين أقاموا منهجاً علمياً بَنَوْهُ على مقومات عقلية، وصبّوا جهودهم في طيّاته ليدركوا ما خَفي في علوم القدماء، حتى استطاعوا الارتقاء إلى مجالات الإبداعات الشخصية، التي مكّنتهم من ابتكار علوم وفنون جديدة خاصةٍ بهم، وقد أصبحت فيما بعد تراثاً إنسانياً بقي العالم يغترِف منه كل جديد.

والسؤال الذي يؤرق مفكرينا في عالم اليوم هو، هل من سبب حقيقي يفسّر تقصير العالم العربي عن اللحاق بركب الحضارة العلمية العالمية الحديثة؟ هل يكمُن الضعف في مجتمعاتنا أم أن لغتنا لم تعد كافيةً لاستيعاب ما يرد إلينا من علوم، أم أن العقل العربي قد وصل إلى مداه الأقصى؟

من الصعب أن نجيب عن تلك التساؤلات قبل أن نذكر ما مرّت به شعوبنا من انقطاع طويل عن منابع العلوم الغربية حين بقيت أجيال عديدة في بلادنا حبيسة العلوم النقلية في اللغة والبلاغة والحديث. وهو ما أوجد حالةً من الجمود الفكري في مواجهة سيطرة الغرب الذي أوشك أن يحتكر الفكر العلمي، ويختصّ في إنتاج تلك الإنجازات العلمية التي تبهرنا نظراً لما أدخلته

[1] هنري كوربان، **تاريخ الفلسفة الإسلامية**، ص 277.

من وسائل لتسهيل أمور الحياة، حتى أصبحت تثير التشكيك في قدرتنا على المشاركة في أي تيار علمي أصيل.

كلنا أمل أن تستعيد أجيالنا الجديدة حماسة آبائها للتحريات العلمية، وأن تسارع إلى الانغماس في إتقان العلوم الحديثة لعلّها تستطيع أن تساهم في تطويرها.